

الهداية

فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مجلة إسلامية دورية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
مملكة البحرين - العدد (٣٤٩)
السنة (٣٩) - صفر ١٤٣٩ هـ - نوفمبر ٢٠١٧ م

هيئة التحرير

رئيس التحرير: الشيخ د. فريد يعقوب المفتاح
مدير التحرير: الشيخ د. محمد طاهر القطان
مشرف التحرير: أ. علي أمين الريس
مستشار التحرير: أ.د. عامر حسن صبري
التدقيق العلمي واللغوي: الشيخ فهمي المتولي الشيخ
د. محمد عبدالله الوائلي
سكرتير التحرير: أ. زينب مجيد سلمان

ص.ب: ٥٦٠ المنامة - مملكة البحرين
هاتف: ١٧٨١٢٨٠٧ - ١٧٨١٢٨١٠
فاكس: ١٧٨١٢٨٤٩

البريد الإلكتروني: alhedaya@moia.gov.bh
وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
www.moia.gov.bh

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

الفهرس

اتفاقية سلام وأمان.. وتعايش ووثام

فضيلة الدكتور فريد بن يعقوب المفتاح

٦

وثيقة المدينة المنورة عنوان وحدة وتآلف

قيس بن محمد آل الشيخ مبارك

١٢

عقد المواطنة.. عقد الوحدة وصمام الأمان

سماحة العلامة السيد علي الأمين

١٦

عقد المواطنة الأول

أ.د. محمد عبدالغفار

٢٢

ماذا نقصد بالموطن الصالح؟

فضيلة الشيخ عدنان بن عبدالله القطان

٢٧

الوحدة الوطنية وثيقة المدينة (نموذجاً)

سماحة الشيخ محمد حسن عبد المهدي

٣١

ميثاق العمل الوطني.. ارتباط بالأصل واتصال بالعصر

د. مال الله الحمّادي

٤٠

هذه ترجمتي.. إبراهيم بن عبداللطيف آل السعد

د. محمد رفيق الحسيني

٤٥

كيف ننشر السنة النبوية على وسائل التواصل الاجتماعي؟

د. سعد الله المحمدي

٥٣

الأحكام الفقهية المتعلقة بالمصحف المترجم

د. حمزة عبدالعزيز العاني

٦٨

أثر النقد في العلوم الإسلامية في إبراز المنهج الوسطي

د. صالح عبدالكريم أحمد

٨٧

هاؤم اقرؤوا ديننا (الحلقة ٢)

فضيلة الشيخ خالد جذع السعدون

١٠٤

تزكية النفس وأثر القلب في ذلك

قراءة في مشروع الفيلسوف طه عبد الرحمن

د. لبنى السحايمي

١٢٢

التحكيم في الأحوال الشخصية بدول مجلس التعاون الخليجي

د. حبيب الناملتي

١٣٥

الوقف ودوره في التنمية في الحضارة الإسلامية وتأثيره على العالم الغربي (الحلقة ٢)

د. ناصر محمد لوري

١٥٩

دراسات أكاديمية حديثة

مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين
وجهودها في الدعوة إلى الله تعالى - دراسة تحليلية ميدانية

أ: حمدان خالد حسين

١٨٠

كلمة العدد



معالي الشيخ خالد بن علي آل خليفة
وزير العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد؛

نفتتح هذا العدد بالحديث عن إنجاز حضاري سجله التاريخ بأحرف خالدة ليعكس بجلاء سمو المبادئ التي قامت عليها حضارة الإسلام على يد خير الأنام محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، تلك المبادئ السامية والقيم العليا التي تضمنتها شريعة الإسلام الغراء، تُجسّد بحق عالمية الإسلام وعدله وتسامحه وانفتاحه، وتؤكد أنه دين الإنسانية المتجدد مع كل عصر وزمان، إنها مبادئ الحق والعدل والسلام والحرية والتعددية، والعيش الإنساني المشترك، التي شيّد بها المسلمون أعظم وأسمى حضارة عرفها التاريخ الإنساني، حضارة قامت وأُسست على العدل والسماحة والمساواة، ليستظل بظلها كل البشر دون تمييز، وكان المؤسس الأول لتلك الحضارة يستنير بهدي ونور الوحي المبارك، ليقم مجتمعاً حضارياً يُحفظ فيه أمن الناس ويصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم.

إننا لنفخر بذلك الإرث الحضاري لديننا الحنيف، الذي عاش الناس في ظل حضارته آمينين مطمئنين، قد ضمن لهم الإسلام عيشاً إنسانياً كريماً لا فرق فيه بين أحد ولا تمييز فيه بين الناس على أساس دين أو عرق أو لون أو جنس، معالم وقيم ومبادئ خالدة سجلها التاريخ مُفخّرة للإنسانية كلها - وهما نحن اليوم أمام واحد من تلك المفابر - ومعلماً حضارياً راسخاً من معالم الحضارة الإسلامية، إنه عقد المواطنة الأول وهو ما عرف بوثيقة المدينة، ذلك العقد الذي سبق به الإسلام سبقاً حضارياً، وهو يُعدّ أحد النماذج التنظيمية الراقية التي أبدعتها الحضارة الإسلامية، لثُبّت واقعاً أن جميع المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات، مؤسّسة بذلك معايير المواطنة الصالحة، التي يتعايش في ظلها جميع المواطنين بحقوق ومسؤوليات مشتركة.

إن وثيقة المدينة التي أبرمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين واليهود جميعاً الذين عاشوا بالمدينة جنباً إلى جنب مع المسلمين؛ تُعدُّ عقد مواطنة يَمنح المواطنين كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حقوقاً متساوية، ليؤدوا دورهم كاملاً في خدمة ورقي وتقدم وطنهم وإرساء المسؤولية الاجتماعية المشتركة.

وإن مما نفتخر به في مملكة البحرين قيادة حكيمة رشيدة سارت على النهج الحضاري الإسلامي مقتدية بالهدي النبوي الشريف في إرساء مبادئ المواطنة الصالحة، حيث تفضّل حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة - حفظه الله ورعاه - بمشروعه الحضاري عبر ميثاق عمل وطني وعقد اجتماعي عزّز ورسّخ لدولة مدنية حضارية تحتضن جميع مواطنيها، وتدفع بطاقتهم الإبداعية إلى التعاون والإنجاز من أجل التقدم والرخاء.

إن ميثاق العمل الوطني الذي نادى به عاهل البلاد -أيّده الله- أسهم بجلاء في الانطلاقة العصرية لمملكتنا الحبيبة، حيث لا فرق بين مواطن وآخر ولا تمييز بين مواطن وآخر مما يعزز الوحدة الوطنية، ويقوي لحمة المجتمع، ويدعم مسيرة التنمية والتقدم والبناء. وقد تجلّى ذلك في دستور مملكة البحرين بتأكيد هذه المبادئ انطلافاً من قيم ديننا الأصيلة، وحفاظاً على مكتسباتنا التاريخية، حيث كانت البحرين منذ قديم الزمن -ولا تزال- ملتقى للأديان والحضارات ورمزاً للوسطية والاعتدال.

والله تعالى نسأل أن يحفظ مملكتنا الغالية، وأن يديم عليها نعمة الأمن والأمان والوحدة والإخاء، متفيئين بظل المسيرة الإصلاحية لسيدي حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة -أيّده الله- بمساندة صاحب السمو الملكي الأمير خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء الموقر، وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد آل خليفة ولي العهد، نائب القائد الأعلى، النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء.

خالد بن علي آل خليفة

وزير العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف

اتفاقية سلام وأمان.. وتعايش ووثام

وَبَقِيَ الْمَدِينَةُ

عَقْدُ الْمَوَاطِنَةِ الْأَوَّلِ

فضيلة الدكتور فريد بن يعقوب المفتاح
وكيل الوزارة للشؤون الإسلامية

”هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، مِنْ قُرَيْشٍ وَيَنْزَبِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَحَلَّ مَحَلَّهُمْ وَأَقَامَ مَعَهُمْ“.

بِأَمَانٍ وَاسْتِقْرَارٍ، وَتَفَادِيًا لِلْعَدَاءِ وَالْفِتَنِ، وَتَلَافِيًا وَاحْتِوَاءً لِلنِّزَاعَاتِ وَالْخِلَافَاتِ بَيْنَ مَكُونَاتِ الْمُجْتَمَعِ.

لقد أسست صحيفة المدينة، للمجتمع المدني أو للدولة المدنية - كما في التعبير الحديث - التي يعيش في ظلها تنوع بشري متعدد الديانات والثقافات والمذاهب والأعراق، وأرست الصحيفة قواعد دولة المواطنة، التي يستظل بظلها كل من يعيش على أرضها، بغض النظر عن دينه وثقافته وعرقه ومذهبه، حيث جاء أول بنود الصحيفة: «أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ». كما أسست صحيفة المدينة، لجعل العرف الذي لا يخالف الشرع أساساً فيما تكون عليه المعاملات والعلاقات بين الناس، ومرجعاً عند عدم وجود نص شرعي يرجع إليه، حيث ذكرت بنود الصحيفة بهذه العبارة: «كُلُّ طَائِفَةٍ تَقْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ“.

وأرست الصحيفة، ميزان العدل أساساً في الحكم بين الناس، في ظل الإسلام، فجاء ضمن بنودها: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى كُلِّ مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ تَجَاوَزَ، أَوْ ابْتَغَى ظُلْمًا أَوْ إِثْمًا أَوْ عُذْوَانًا أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ كَانَ

هذه مقدمة صحيفة المدينة، التي أبرمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون اتفاقية سلام وأمان، واتفاقية تعايش ووثام، بين المسلمين وبين كل الطوائف والأديان، الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين، لبيان الحقوق والواجبات والحدود والمسؤوليات، بين المسلمين أنفسهم، من مهاجرين وأنصار، وأوس وخزرج، وبينهم وبين غيرهم من يهود ونصارى، وغيرهم، لمعرفة ما لهم وما عليهم، فكانت هذه الصحيفة أو الوثيقة النبوية أول عهد دولي، وأول تشريع أو ميثاق عالمي يحفظ حقوق الجميع، ويحفظ حقوق الأقليات، بغض النظر عن الدين والمذهب والعرق والجنس.

لقد تضمنت صحيفة المدينة على قرابة أربعة وخمسين مادة تشريعية، تتناول حقوق المسلمين فيما بينهم، وحقوق غير المسلمين، وطريقة التعامل سلماً وحرباً، وأصول وقواعد الاختلاف إن حدثت، وضمانات كل طرف من الأطراف الموقعة على الصحيفة، وكذلك ما على كل طرف من استحقاقات وواجبات ومسؤوليات. كما تضمنت الصحيفة شروطاً جزائية على من يخالف بنودها، ويتنكر بعد توقيعه عليها، حفاظاً على وحدة المجتمع وأمنه وتماسكه، وتعايشه فيما بين الجميع

مُحَدَّثًا - أَيُّ مُجْرِمًا ظَالِمًا مُتَعَدِّيًا - وَلَا يَأُوِيهِ،
وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ حَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ وَلَا
شَهَادَةٌ».

وَجَعَلَتِ الصَّحِيفَةُ الْمَرْجِعَ عِنْدَ الْاِخْتِلَافِ
كِتَابَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، حَيْثُ
جَاءَ فِي بُنُودِ الصَّحِيفَةِ: "وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ
مِنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ
ﷺ". كَمَا أَسَّسَتِ الصَّحِيفَةُ لِلْاِفْتِصَادِ الْمُنْفَتِحِ
الْحُرِّ دُونَ تَمَيِّزٍ، وَأَنَّ الْاِنْفَاقَ عَلَى الْجَيْشِ
وَتَجْهِيزَاتِ الْحُرُوبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ
مُوَاطِنٌ عَنْ غَيْرِهِ بَغَضُ النَّظَرِ عَنِ الدِّينِ، لِأَنَّ فِي
ذَلِكَ تَحْقِيقًا لِلْأَمْنِ لِلْجَمِيعِ فَيَسْتَوِي فِي ذَلِكَ
الْمُسْلِمُ وَغَيْرُ الْمُسْلِمِ فِي الدَّفَاعِ عَنِ الْوَطَنِ، فَفِي
الْمَادَّةِ الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الصَّحِيفَةِ: "وَإِنَّ
الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا
مُحَارِبِينَ". كَمَا أَسَّسَتِ الصَّحِيفَةُ لِنِظَامِ نُصْرَةِ
الْمُظْلُومِينَ، وَإِقَامَةِ الْأَحْلَافِ، لِرَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ
الْمُظْلُومِينَ، وَنُصْرَةِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمْ، كَمَا تَفْعَلُ
الدُّوَلُ الْيَوْمَ، وَلَعَلَّ أَبْرَزَ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ، الْحِلْفُ
الدَّوْلِيُّ الْإِسْلَامِيُّ، الَّذِي تَقُوُّهُ الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ
السُّعُودِيَّةُ، بِقِيَادَةِ خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ،
لِمُحَارَبَةِ الْإِرْهَابِ، وَلِرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْ إِخْوَانِنَا
فِي الْيَمَنِ، وَكَمِثْلَ ذَلِكَ دِرْعُ الْجَزِيرَةِ، كَحِلْفِ
لِلدَّفَاعِ عَنْ دُولِ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الْخَلِيجِيِّ
وَهَكَذَا.

وَلَدَ أَحَدِهِمْ"، وَمُسْتَنْدَ هَذِهِ الْمَادَّةِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ
الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

كَمَا أَسَّسَتِ الصَّحِيفَةُ لِعِلَاقَةِ سَوِيَّةٍ، أَوْ
الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ - كَمَا فِي تَعْيِيرِنَا الْحَدِيثِ -
وَأَسَّسَتِ لِتَعَايُشِ سَلْمِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ
غَيْرِهِمْ، مِنْ أَتْبَاعِ الدِّيَانَاتِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ،
وَهُمْ كَانُوا أَقْلِيَّةً، فَجَاءَتِ الصَّحِيفَةُ لِتُحَافِظَ عَلَى
حُقُوقِهِمْ، وَتَنْصُرَ ضَعِيفَهُمْ، فَجَاءَ الْبَنْدُ السَّادِسُ
عَشَرَ مِنْهَا؛ مُؤَسَّسًا لِحَقِّ نُصْرَةِ الْيَهُودِ، وَعَدَمِ
مُتَاصِرَةِ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ، مَا دَامُوا مُسَالِمِينَ، مُلتَزِمِينَ
بِمَا أَقْرَوهُ فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ، حَيْثُ جَاءَ فِي تِلْكَ
الْمَادَّةِ: "وَأَنَّهُ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ، فَإِنَّ لَهُ النُّصْرَةَ
وَالْأَسُوءَةَ وَالْأَمْنَ، غَيْرَ مُظْلُومِينَ، وَغَيْرَ مُتَنَاصِرٍ
عَلَيْهِمْ".

كَمَا تَمْنَعُ الصَّحِيفَةُ الْمُحَابَاةَ وَالْمُجَامَلَةَ،
صِيَانَةَ لِحُقُوقِ النَّاسِ جَمِيعًا، وَتُعْطِي لِنَفْسِ
الْبَشَرِيَّةِ أَيًّا كَانَ دِينُهَا، وَتُعْطِي لِلْإِنْسَانِ أَيًّا كَانَ
دِينُهُ، الْكَرَامَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَحَقَّ الْأَمْنِ وَالْعِيشِ
الْكَرِيمِ، وَالْاِنْفَاقَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ،
وَحَقَّ أَنْ يَعِيشَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ وَسَلَامٍ وَحُرِّيَّةٍ
تَامَّةٍ، فَفِي الْمَادَّةِ الثَّالِثَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ صَحِيفَةِ
الْمَدِينَةِ: "وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَوْ لِفَرْدٍ أَقْرَبَ بِمَا فِي
هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَمَّنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ

مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْبَشَرِيَّةُ مِنْ خُرُوبٍ
وَخِلَافَاتٍ وَاعْتِدَاءَاتٍ وَنِزَاعَاتٍ وَفِتَنِ، نَسْأَلُ اللَّهَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ مِنْهَا.

مَا أَحْوَجَ الْبَشَرِيَّةَ الْيَوْمَ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى بُنُودٍ
مِثْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي أَسَّسَتْ لِعَلَقَاتٍ
إِنْسَانِيَّةٍ سَوِيَّةٍ مُتَسَاوِيَةٍ رَائِعَةٍ، تَحْفَظُ حُرْمَةَ النَّفْسِ
الْبَشَرِيَّةِ، وَتَأْخُذُ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَالْمُعْتَدِي، وَتُعْلِي
مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ وَكَرَامَتِهِ، وَتُؤَسِّسُ لِيَصْمَانَ
حُقُوقِهِ، وَتَحْصُنُ كَرَامَتَهُ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ دِينِهِ أَوْ
عِرْقِهِ أَوْ جِنْسِهِ أَوْ ثِقَافِهِ أَوْ لَوْنِهِ أَوْ انْتِمَائِهِ.

إِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، أَنْ يَسْتَنْطِقُوا
نُصُوصَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْعَظِيمَةِ، وَيَدْرُسُوهَا
وَيَرَاجِعُوهَا، وَيُفِيدُوا مِنْهَا، وَيَنْشُرُوهَا عَالَمِيًّا،
لِيَعْلَمَ النَّاسُ، وَلِتَعْلَمَ الْبَشَرِيَّةُ، وَلِيُطْلَعَ النَّاسُ فِي
عَالَمِ الْيَوْمِ، مَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَمَدَى الرُّقْيَى الَّذِي
وَصَلَ إِلَيْهِ وَقَدَمَهُ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَمَا هِيَ مَبَادِئُهُ وَقِيمُهُ
وَحَضَارَتُهُ، وَحِفْظُهُ لِحُقُوقِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ
الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ. لِيَعْلَمَ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَلِيَعْلَمَ
الْمُسْلِمُونَ قَبْلَهُمْ، وَلِتَعْلَمَ الْبَشَرِيَّةُ، أَنَّ هَذَا الدِّينَ
جَاءَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، جَاءَ لِإِسْعَادِ الْإِنْسَانِ - مِنْ
حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ - جَاءَ هَذَا الدِّينُ لِيُؤَسِّسَ لَعِيشِ
كَرِيمٍ، لَعِيشِ سَلْمِيٍّ تَعَاوُنِيٍّ مُشْتَرَكٍ، لِيَعِيشَ كُلُّ
النَّاسِ فِي كَنْفِهِ، فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ وَكَرَامَةٍ وَسَلَامٍ
وَاحْتِرَامٍ، جَاءَ هَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ لِيَجْعَلَ مِنَ
الْبَشَرِيَّةِ أُسْرَةً وَاحِدَةً مُتَعَدِّدَةً مُتَنَوِّعَةً، مُتَعَارِفَةً
مُتَعَاوِنَةً مُتَكَافِلَةً مُتَفَاهِمَةً.

وَقَدْ أَقَامَتِ الصَّحِيفَةُ نِظَامَ عُقُودِ الْأَمَانِ،
وَالْجَوَارِ، وَحِفْظِ الْحُقُوقِ وَالْعُهُودِ، وَصَمَانَ
حُقُوقِ مَنْ دَخَلُوا بِإِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، بِمُوجِبِ هَذِهِ
العُقُودِ وَالاتِّفَاقِيَّاتِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَقْضُ عَهْدٍ
لِمُعَاهِدٍ إِلَّا إِذَا صَدَرَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ، عَمَلًا
بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

هَذِهِ إِشَارَاتٌ وَعِبَارَاتٌ وَنُصُوصٌ وَمَوَادٌّ
مُخْتَارَةٌ، تَوَقَّفَتْ خِلَالَهَا مَعَكُمْ مَعَ بَعْضِ بُنُودِ
وَمَوَادِّ صَحِيفَةِ الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ،
وَالَّتِي مَضَى عَلَى إِبْرَامِهَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
عَامٍ، أَبْرَمَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ، مَعَ كُلِّ مَنْ
يَعِيشُ مَعَهُ فِي مُجْتَمَعِ الْجَزِيرَةِ، لِيَحْفَظَ بِهَا
حُقُوقَ الْجَمِيعِ، سَوَاءَ كَانُوا أَقَلِّيَّةً أَوْ أَكْثَرِيَّةً.

وَالْمُدْهَشُ وَلَكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا أَنَّهُ قَبْلَ أَكْثَرِ
مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ، يُقَدِّمُ لَنَا الرَّسُولُ
الْكَرِيمُ ﷺ، عَهْدًا وَوَعْدًا وَمِيثَاقًا وَمَشْرُوعًا
حُقُوقِيًّا حَضَارِيًّا رَائِعًا، يَحْفَظُ فِيهِ حُقُوقَ النَّاسِ
مِنْ مُهَاجِرِينَ وَأَنْصَارٍ وَأَوْسٍ وَخَزَرَجٍ، وَيَحْفَظُ
فِيهِ كَذَلِكَ حُقُوقَ الْأَقَلِّيَّاتِ مِنَ يَهُودٍ وَنَصَارَى
وغيرِهِمْ، أَيْ رُقْيَى هَذَا الَّذِي قَدَمَهُ الْإِسْلَامُ فِي
ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَالْيَوْمَ مَا أَحْوَجَ الْبَشَرِيَّةَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ
الصَّحِيفَةِ الْحُقُوقِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ الرَّاقِيَّةِ، فِي ظِلِّ

وَصَدَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَظِيمُ حَيْثُ قَالَ:
﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

حَقٌّ لَنَا أَنْ نَفْخَرَ وَنَعْتَزَّ بِثِرَاتِنَا، وَبِدِينِنَا
وَبِحَضَارَتِنَا، لِمَا حَوَتْهُ مِنْ كُنُوزٍ عَظِيمَةٍ، وَجَوَاهِرِ
ثَمِينَةٍ، مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْوَثَائِقِ الْحَقُوقِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ
الْمُمَيِّزَةِ الرَّاقِيَةِ، كَصَحِيفَةِ الْمَدِينَةِ، الَّتِي وَضَعَتْ
النُّقَاطَ عَلَى الْحُرُوفِ، فِي حِفْظِ حُقُوقِ بَنِي
الْإِنْسَانِ، إِنَّنَا نَعْتَزُّ بِأَنَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةَ؛ صَحِيفَةُ
الْمَدِينَةِ، هِيَ أَوَّلُ دُسْتُورٍ دَوْلِيٍّ مَكْتُوبٍ، سَبَقَ
إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ غَيْرُهُمْ، قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ
قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ، بِمَا يَضْمَنُ تَحْقِيقَ مُجْتَمَعَ سَلَامٍ
آمِنٍ، مُجْتَمَعَ مُتَعَايَشٍ مُتَعَاوِنٍ، مُجْتَمَعَ مُتَعَارِفٍ
مُتَأَلِّفٍ مُوَحَّدٍ. إِنَّنَا نَفْخَرُ وَنَعْتَزُّ بِثِرَاتِنَا الَّذِي جَاءَ
بِمَا يَضْمَنُ لِلْأُسْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْمُجْتَمَعَ الْإِنْسَانِي؛
الْكَرَامَةَ وَالسَّلَامَ وَالْأَمْنَ وَالْأَمَانَ وَالاسْتِقْرَارَ،
وَالْتَعَايِشَ بِتَعَاوُنٍ وَاحْتِرَامٍ، وَحِفْظِ حُقُوقِ بَنِي
الْإِنْسَانِ.

إِنَّ عَالَمَ الْيَوْمِ بِصَرَاعَاتِهِ وَعَدَاوَاتِهِ، وَمَا انْتَشَرَ
فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَسَفْكِ لِلدَّمَاءِ، وَانْتِهَاكِ لِلْحُرُمَاتِ،
وَالْتَعَدِّي عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الْبَرِيَّةِ، بِكُلِّ أَنْوَاعِ
الْبَطْشِ الْعُدْوَانِ وَالْعُنْصَرِيَّةِ، مِنْ قَتْلِ، وَتَجْوِيعِ،
وَتَهْجِيرِ، وَتَشْرِيدِ، وَاضْطِهَادِ، وَذَبْحِ عَلَى الْهُوِيَّةِ،
وغير ذلك مِنْ أُمُورٍ لَا تَلِيْقُ بِهَذَا الْمُخْلُوقِ، الَّذِي
كَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا
بَنِي آدَمَ﴾.

إِنَّ مَا يَحْدُثُ الْيَوْمَ، مُنَاقِضٌ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ، الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَيْهَا، إِنَّ
مَا يَحْدُثُ الْيَوْمَ، مُنَاقِضٌ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى
لِلْإِنْسَانِيَّةِ، لِذَا وَجَبَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَعُودُوا
لِمَنْهَاجِ خَالِقِهِمْ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى أَوَامِرِهِ
وَنَوَاهِيهِ، وَأَنْ يُقِيمُوا الْعَدْلَ وَالْقِسْطَ الَّذِي أَمَرَهُمُ
اللَّهُ بِهِ، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مُوقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ
رَبِّهِمْ، مَسْئُولُونَ عَنْ كُلِّ مَا أَقْرَفُوهُ، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

فَحَتَّى لَا نُلْجِمَ عَنْ الْجَوَابِ عِنْدَ السُّؤَالِ،
عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى دِينِنَا، وَقِيمِنَا وَشَرِيعَةِ رَبِّنَا،
فَتَتَعَلَّمَ وَتُذَكَّرَ، وَنَفْهَمَ دِينَنَا فَهَمًّا صَحِيحًا دَقِيقًا
سَلِيمًا، وَنُطَبِّقَ ذَلِكَ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، بِأُسْلُوبِ
حَضَارِيٍّ رَاقٍ، عَلَيْنَا أَنْ نَعُودَ إِلَى مَنْهَاجِ خَالِقِنَا،
وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَأَنْ نَجْعَلَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَنَهْجًا
فِي كُلِّ تَفَاصِيلِ حَيَاتِنَا، وَعِلَاقَاتِنَا مَعَ النَّاسِ،
عَلَى اخْتِلَافِ مَوَاقِعِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَدِيَانَاتِهِمْ
وَتَقَاتِيهِمْ، عَلَيْنَا أَنْ نُمَارِسَ دِينَنَا بِأُسْلُوبٍ وَنَهْجٍ
حَضَارِيٍّ رَفِيعٍ رَاقٍ وَمُشَرَّفٍ، كَمَا مَارَسَهُ وَأَسَّسَ
لَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَ غَيْرِ
الْمُسْلِمِينَ، كَمَا شَاهَدْنَا ذَلِكَ فِي صَحِيفَةِ الْمَدِينَةِ.

عَلَيْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ الْحُقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا،
عَلَيْنَا أَنْ نَتَجَنَّبَ الظُّلْمَ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ، وَأَنْ نُنَاصِرَ
الْمَظْلُومِينَ وَالْمُضْطَهَّدِينَ وَالْمُشَرَّدِينَ، وَأَنْ
نُعِثَ الْمَلْهُوفِينَ وَالْمُهْجَرِينَ، وَأَنْ نُسَانِدَ أَهْلَ
الْحَقِّ، عَلَيْنَا أَنْ نُنَاصِرَ قَادَتَنَا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا الَّذِينَ

كُلُّ الْبَشَرِ. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

هَبُّوا، وَلَبُّوا، وَتَحَالَفُوا لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِينَ فِي الْيَمَنِ وَسُورِيَا وَفِي كُلِّ مَكَانٍ.

عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ مِنْ دِينِنَا وَشَرِيعَتِنَا نُمُودَجًا حَضَارِيًّا وَاقِعِيًّا رَاقِيًّا، لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَالتَّعَاشِ بِسَلَامٍ وَاحْتِرَامٍ، بِأَقْوَالِنَا وَسُلُوكِيَّاتِنَا، وَآدَابِنَا وَقِيَمِنَا وَتَعَامُلَاتِنَا وَعَلَاقَاتِنَا وَأَخْلَاقِنَا مَعَ



وثيقة المدينة المنورة عنوانٌ وحدةٍ وتآلف

وثيقة المدينة المنورة

عقداً للمواطنة والأولئك

قيس بن محمد آل الشيخ مبارك

أستاذ الفقه والأصول بجامعة الملك فيصل بالأحساء

صحيفة المدينة المنورة صحيفة مشهورة، ثبت أصلها في الصحيحين وغيرهما، فقد روى البخاري عن علي رضي الله عنه قال: (ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة)، وعن النبي ﷺ: (المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. وقال: ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. ومن تولى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل).

في المدينة المنورة، على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، من شعوب وقبائل متفرقة، وعلى اختلاف أعراقهم وعوائدهم، وعلى اختلاف أديانهم وعقائدهم.

وهي نص ناطق بأن الكفر بالله تعالى ليس سبباً للقتل ولا للتأديب، فلا تستباح به الدماء ولا الأعراض، وإنما سبب التأديب هو الخروج عن النظام، فيؤدّب من خرج عن النظام، واقتات على الجماعة، مسلماً كان أو غير مسلم، وهذا أدب قرآني، فقد أخبرنا الله تعالى أنه لن يجعل الكفر سبباً لهلاك الكفار في الدنيا، وإنما يكون الهلاك إذا حصل منهم فجور وظلم فاحش، فإن فعلوا ذلك وأفسدوا في الأرض، فقد عرّضوا أنفسهم للعذاب، إن شاء أمهلهم، وإن شاء أنزل بهم سخطه، كما حصل مع قوم نوح وهود وصالح عليهم السلام، ومع قوم لوط عليه السلام، بفعلتهم القبيحة، وقوم شعيب ببخسهم المكيال والميزان، فقد أنزل الله عليهم عذابه، وهذا

وقد وردت كثير من نصوصها بأسانيد صحيحة، وذكرها كاملة أئمة المغازي والسيرة بأسانيد مرسلة، كالزهري في مغازيه، وكابن إسحاق، ومن طريقه رواها ابن هشام بصيغة الجزم، قائلًا: (وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادّع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم...) وذكرها كاملة، ورواها الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي وابن سيّد الناس في عيون الأثر، وقد رويت بسند صحيح عن الزهري بلاغاً، رواها عنه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال وابن زنجويه في الأموال، ويلاحظ أن أهل العلم تلقّوها بالقبول، فلم يتعرّض لنفيها أحد، فضلاً عن أنها أجملت ما فصلته الآيات والأحاديث، فنصوص القرآن على لفظها ومعناها.

هذه الوثيقة التي تعدّ دستوراً يحكم العلاقات بين جميع المواطنين المقيمين

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وصحَّحَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: (دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن، وأنه يمتُّعه قليلاً ثم يضطرُّه إلى عذاب النار).

وهذه الوثيقة أيضًا تُبَيِّنُ بجلاء أَنَّ الله تعالى حين جعل المراء مدنيًا بالجبلة، فقد جعل الشأن فيه أن يعيش ضمن جماعة أو أمة ينتظمها غرض واحد مقصود وهو حماية الجماعة، وهو ما يسمَّى بحفظ البيضة، كما قال لَقِيْطُ الْإِيَادِي:

(يَا قَوْمَ بَيَّضْتُكُمْ لَا تُفْضَحُنْ بِهَا

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا الْأَزْلَمَ الْجَدْعَا)

أي: احفظوا عُقْرَ دَارِكُمْ، فاستنادًا إلى هذا فإنه لا حرج في أن ينتظم عددٌ من الأفراد حول غرضٍ من الأغراض الشريفة، أيًا كان هذا الغرض، قبيلاً أو اجتماعياً أو ثقافياً أو اقتصادياً أو إدارياً أو سياسياً، كالتفاف مجموعة حول غرض رعاية المعوقين، أو رعاية الأيتام، أو بثِّ وعيٍ ثقافي أو سياسي، أو نشر سلوكٍ أخلاقي، أو تنشئة اجتماعية، أو نشرٍ للإسلام، أو رعاية

معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [هود: ١١٧]، ثم ذكر بعد هذه الآية أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، أي: مجتمعين على دينٍ واحدٍ، أي أن يجعلهم كُلُّهُمْ مُسْلِمِينَ، غير أنه أراد أن يكونوا مختلفين، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْلُفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَٰذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٧-١١٩]، قَالَ تلميذ الإمام مالكٍ أَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَأَلْتُ مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة، قَالَ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وَقَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ومن حكمة الله تعالى أنه تكفل برزق جميع الخلق، لا فرق في ذلك بين مسلمٍ وغير مسلمٍ، قَالَ تعالى: ﴿كَلَّا نُنَادِي هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالجميعُ سَيُمتَّعُ ويُمَهَّلُ: ﴿قِيلَ يَتُوحَّ أَهْبِطْ سَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَتُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فالرزق في الدنيا مكفولٌ لابن آدم وإن كفر:

أن تكون بينهم أخوة خاصة، تجعل بينهم تآزراً وتناصرًا أشدَّ من تآلفهم مع بقية أفراد المجتمع، فتُضعِفُ معنَى المواطنة، وتعبير آخر: تنشأ بينهم وحدة شعورية تعزلهم عن غيرهم، فتُفضي المحبة والتآلف بينهم إلى أن يصيروا كجسمٍ منفصلٍ عن شركائهم في الوطن، فالتبعية والمناصرة فيما بينهم بهذه الصفة تُعدُّ صورةً من صُور تشتيت الكلمة وإضعاف الوحدة، وإسقاط هبة الدولة، فما أسوأ أن يُفضي التعاون إلى أن يكون لاءً بعض أفراد المجتمع إلى بعضهم أقوى من ولائهم إلى البعض الآخر .

أسرة لأحوال أفرادها، فهذه معانٍ في غاية الحُسن والنُّبل، ففي الحديث (إن الأشعريين إذا أُرْمِلوا في الغزو جمعوا ما كان عندهم، ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم) فالمواساة في المال وفي الرعاية وفي الدعوة أو غيرها من أجل الأعمال وأفضلها عند الله .

غير أن هذا التنوُّع في الأجناس والأعراف والمعتقدات، قد يُفضي في بعض الأحوال إلى ضرر بالمجتمع، وذلك حين يَظُنُّ المتعاونون على غرضٍ صحيح أن هذا التعاون يبيح لهم



عقد المواطنة..
عقد الوحدة وصمام الأمان

وَبَقِيَ الْمَدِينَةُ

عَقْدُ الْمَوَاطِنَةِ الْأَوَّلِ

سماحة العلامة السيد علي الأمين

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه عندما تتعدّد الجماعات والأفراد، وتتعدّد الثقافات والأديان هو الصيغة العمليّة التي يمكن الاعتماد عليها في الجمع بين تلك المكوّنات التي اختلفت في الهوية الدينية والثقافية؛ لأن التعددية هي مظنة للخلاف والصراع، ودفعاً لأضرار الخلاف وأخطار الصراع وقع البحث عن السبل التي تؤدّي إلى انتظام هذه المجموعات في إطار واحد يجمعها ويشكّل مرجعية لها لفرض ما يمكن أن يقع من نزاعات بينها، بما يحفظ حقوقها ويضمن استمراريتها.

والثقافية وغيرها من موجبات التعدّد والاختلاف بين الأفراد والجماعات.

وقد يرى البعض أن صيغة العيش القائمة على عقد المواطنة هي من إنتاج الفكر المعاصر، وقد ينظر آخرون إلى أنّ القول بها هو تقليد للغرب، فلا تصح الدعوة إليها ولا العمل بها!. ولكن الناظر بإنصاف إلى التجربة الإسلامية الأولى يرى أنّ هذه القاعدة كانت موجودة فيها بمضمونها، وإن لم يكن التعبير عنها بالألفاظ المتداولة اليوم، فإن وثيقة المدينة المنورة التي حصلت بعد وصول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وبرز ظاهرة التعددية الدينية فيها من خلال المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالإسلام الرسالة الجديدة مع وجود مؤمنين بالديانة اليهودية السابقة على الإسلام وغيرها، إلى جانب التركيبة القبليّة التي كانت قائمة، تدلّنا -هذه الوثيقة- من خلال بنودها على بداية ولادة جديدة لصيغة ينتظم فيها المجتمع التعددي، ويقوم على أساس التعاون بين مكوّناتها

فهل من قاسم مشترك يجتمعون إليه ويأوون إلى كنفه، يصون لهم وحدتهم وجماعتهم ويعطيهم الحق في الاحتفاظ بخصوصيات التعددية الدينية والثقافية والقبلية والعرقية؟

هذا هو التساؤل الذي حاول الكثيرون من علماء الاجتماع والسياسة والقادة المصلحين الإجابة عليه، مستفيدين في ذلك من تجارب الحكم وأشكاله المتعدّدة التي مرّت على المجتمعات البشريّة التعددية، حيث لا يكاد يخلو وطن من الأوطان ولا شعب من الشعوب ولا أمة من الأمم من خصوصيّة التعدّد في الثقافات والقبائل والأديان والآراء والأفكار وغيرها من الأمور.

والصيغة التي توصّل إليها جمع من العلماء والمفكرين وطبقها دول عديدة في العصر الحديث هي الصيغة المعتمدة على عقد المواطنة التي يتساوى فيها المواطنون في الحقوق والواجبات بعيداً عن الانتماءات الدينية

المختلفة.

لكل المواطنين.

وقد ورد في بنودها أنّ المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب «المدينة» ومن تبعهم على اختلاف انتماءاتهم القبلية والمناطقية هم أمة واحدة، وأنّ مرجعيتهم فيما يختلفون فيه إلى الله ورسوله، وأنّ اليهود على تعدد قبائلهم ومواليهم هم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، وأنه لا يكسب إلا على نفسه، وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم امرؤ بحليفه، وأنّ النصر للمظلوم، وأنّ النصر بينهم على من دهم يثرب، وأنّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنّ من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة.

ومن الواضح أنّ هذه البنود تشكّل منطلقاً وقاعدة للعيش المشترك في ظل التعددية والتنوع، وهذا ما ينطبق على المعنى المعاصر المقصود من المواطنة والهوية الوطنية الجامعة

ويضاف إلى هذه الوثيقة التعاقدية بين مكونات المجتمع أنّ المستفاد من ظاهر جملة الآيات القرآنية ومن السنة النبوية الشريفة وسيرتها أنّ بناء المجتمعات والأوطان يعتمد على الأمور التي تشترك فيها جميع المكونات في المجتمع والوطن، وهي التي تكون منشأ لحقوق الأفراد والجماعات المتواجدة فيه، وهذا ما ينسجم مع اعتماد الهوية الوطنية التي يحملها الفرد بصفته مواطناً يشترك معه غيره من الأفراد والجماعات في الصّفة، وهذه الأمور تكون منشأً لثبوت الواجبات عليه وعليهم تجاه المجتمع والوطن.

وليس في الإسلام ما يتنافى مع اعتماد المواطنة قاعدة في نظام الحكم والإدارة وتوزيع الحقوق والواجبات بعدالة ومساواة بين المواطنين مع اختلاف هوياتهم الدينية والثقافية، بل يعدّ اعتماد هذا الأمر موافقاً لقاعدة العدل والإنصاف المستفادة من آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

بينهم، وقد نظرت هذه الوثيقة إلى الجميع على أنهم متساوون بما في ذلك اليهود، وقد تضمنت وثيقة العهد الجديد عقدًا اجتماعيًا أرسى قواعد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وحافظ على العيش المشترك بين المسلمين واليهود وغيرهم من العرب الذين لم يؤمنوا بالرسالة بعد، وأعطتهم الوثيقة المساواة مع المسلمين في المصالح العامة وكفلت لهم حقوقهم على قاعدة التعايش مع الشريك في الوطن المستفادة من قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُوا فِي الْإِيمَانِ وَلَمْ يَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعدد الديني والانقسام القبلي بالوثيقة مناهًا للوحدة والانسجام، وكان التحدي الأكبر أمام تكوين المجتمع يتمثل في تحقيق هذه الوحدة التي تشكل الأساس لقيام المجتمع واستمراره، وقد عبر القرآن الكريم عن النجاح في ذا التحدي بأنه نعمة الله التي يجب أن يذكروها وأن يبقوا متمسكين بها، كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبالعدالة في المجتمع زرعت المحبة والألفة بين أبنائه، وهذا ما يعزز الوحدة الوطنية التي

ولا شك بأن العدالة المأمور بها في الآيات القرآنية منبثقة عن المساواة التي ينظر إليها القرآن الكريم على أنها موجودة بين جميع بني البشر الذين كرمهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد عبر عن المساواة فيما بينهم بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ رِبْكَمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]. ويبدو أيضًا أن هذه المساواة في منشأ الخلق كانت مصدرًا للمساواة في الحقوق الإنسانية التي ارتكزت عليها أحكام العدالة.

وإذا كانت المواطنة تعني المساواة بين المواطنين في اكتساب الهوية الوطنية التي كانت مصدرًا للحقوق الوطنية، فهي تقع موردًا لتطبيق الآيات عليها، وهذا ما قامت عليه وثيقة المدينة المنورة التي تقدمت الإشارة إليها، وقد كانت المدينة موطنًا للأوس والخزرج واليهود والمهاجرين والأنصار، وقد كانت الهوية الدينية مختلفة بين هؤلاء، ولكن عقد المواطنة جعل الوحدة الوطنية هي الجامع المشترك فيما

لغيرك ما تحب لنفسك، واکره لغيرك ما تکره لنفسك».

ولذلك يمكن القول بأنّ وثيقة المدينة المنورة كانت عقدًا اجتماعيًا نظرًا إلى الذين يعيشون معًا على أنهم متساوون في المواطنة ومستلزماتهما، بعيدًا عن خصائص الدين والمعتقد، ويؤيد هذا المعنى الذي تقدّم من المساواة ما ورد في السنة النبوية الشريفة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام: «الناس سواسية كأسنان المشط»، و«الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»، و«لا فضل على أحمر على أصفر ولا لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». فإنّ المواطنين قد يختلفون في أصول أعراقهم وأديانهم وانتماءاتهم، لكنّ المشترك بينهم في الوطن الواحد هي المواطنة، وهم فيها على حد سواء.

وبعبارة أخرى: إنّ النصوص وأمثالها مع شمولها لإزالة الفوارق بين شعب وآخر لا يعيشان معًا، وبين أمة وأخرى بعيدة عنها ولا توجد بينهما علاقات فكيف بالشعب الواحد والأمة الواحدة التي يعيش أبنائها بعضهم مع البعض الآخر في وطن واحد؟ فإنّ اعتماد

تقوم على المحبة والأخوة، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي صنع الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وصنع المحبة بين المسلمين وغيرهم من خلال العدالة، قال الشاعر:

هو الحب بين الناس يجمع بينهم

وتزدهر الدنيا به وتقوم

فما بُنيت إلا على الحب أمة

ولا عزّ إلا بالحنان زعيم

وما بعد نعماء المحبة جنة

وما بعد شحناء النفوس جحيم

فأنت عندما تقول (الإنسان الآخر) أو (غيري)، فهذا يعني وجود المختلف عنك، وهو ليس بالضرورة المختلف معك، وإن اختلفت الآراء والأفكار والمعتقدات، فأحدكما يساويه الآخر في الإنسانية التي كانت مصدرًا للمساواة في الحقوق وقاعدة للعدالة كما تقدّم ذلك من الآيات السابقة الذكر.

وعندما تقول أعيش مع غيري أو غيري يعيش معي فهذا يعني وجود شريك لك في العيش والوطن وفيما يستتبعه ذلك من حقوق وواجبات، وعندئذ يخاطبك الحديث: «أحب

-المواطنين-، وهذا يعني أن الحقوق المنبثقة عن الشراكة في العيش والوطن لا يتم توزيعها على أساس ديني وطائفي، وإنما على أساس من الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، وعلى أساس من الشراكة الوطنية التي جعلت منهم رعية واحدة يستحقون الرعاية والحماية بلا تفاوت، وهذا ما نغنيه ونقصده بالمواطنة التي يقوم عليها النظام السياسي الذي يساوي في تشريعاته وأحكامه وقوانينه بين المواطنين مع حق احتفاظ كل فرد أو جماعة بالخصوصيات الدينية والسياسية التي لا تتنافى مع العقد الاجتماعي الذي قامت عليه قواعد النظام، وهذا ما تضمنه ميثاق العمل الوطني الذي قدّمه جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة للإصلاح، فهو يشتمل على المبادئ الداعية لترسيخ الوحدة الوطنية انطلاقاً من العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ما يجمعهم في هذه الحالة يكون هو الأولي بالاعتماد والاتباع في نظام الحياة معاً والعلاقات المشتركة.

والمواطنون هم المعبر عنهم في الفقه السياسي بالرعية كما جاء في جملة من النصوص الدينية منها: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته...»، و«كل سائس إمام..»، وما يكشف عن إطلاق كلمة الرعية على المواطنين على حد سواء وإن اختلفت انتماءاتهم الدينية ما ورد في كتاب الإمام علي إلى مالك الأشتر عندما ولاه على أهل مصر وفيهم المسيحيون الأقباط من غير المسلمين: «أشعر قلبك المحبة للرعية، واللطف بهم والعطف عليهم، ولا تكونن سبباً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان -أي الرعية المواطنون- إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

ولا شك بأن العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات الوطنية هي الأجمع لرضى الرعية



عقد المواطنة الأول

وَبَقِيَ الْمَدِينَةُ

عَقْدُ الْمَوَاطِنَةِ الْأَوَّلِ

أ.د. محمد عبدالغفار

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على نبينا محمد، وعلى آله الطاهرين وصحابه الغر الميامين، وعلينا جميعاً.

وصحبه وسلم إلى المدينة المنورة، بدأ بكتابة العقد، وقد سُمّي عقداً وكتاباً وصحيفة، واختلف متى كتبه عليه الصلاة والسلام.. هل في بداية قدومه، أو بعد معركة بدر، وقال شيخ المؤرخين ابن إسحاق: «أراد النبي ﷺ بداية قدومه إلى المدينة المنورة...»، ومن خلال هذه الوثيقة الكريمة أن يحدد العلاقة بين الدولة والمواطن والفرد.. وهذه هي المواطنة؛ فالمواطنة في مفهومها المعاصر هي تحديد العلاقة بين الدولة من جهة وبين المواطن من جهة أخرى.

وتعتبر وثيقة المدينة أول دستور، وأول قانون خاص.. قانون جنائي وقانون مدني خاص بين المواطنين وبين القيادة المتمثلة في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وقانون عام أيضاً في العلاقات الدولية في الحرب في كيفية علاقة المسلمين بغيرهم من الناس، هذه الوثيقة خير علاقة للمسلمين بعضهم ببعض، فالمهاجرون والأنصار بعضهم ببعض، حيث كانت الأنصار قبل قدوم نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المدينة متحاربين ومتفرقين مع أنهم كانوا بني عم.. كانوا من أب وأم واحدة، لكن استطاع اليهود أن يفرقوا بينهم وأن يكونوا اليد العليا في المدينة المنورة، لذا بيّنت وثيقة المدينة أن علاقة المسلمين هي علاقة ترابط وتآلف، كما

الإمام الماوردي رحمه الله الشافعي قاضي القضاة في زمانه له كتاب بديع في الاجتماع اسمه (أدب الدنيا والدين)، وكان سابقاً في تأسيس هذا عن ابن خلدون، وإن كان ابن خلدون وسّع ونظّم أكثر منه، يقول في كتابه: «إذا أراد الإنسان أن يحصل على رغبة من الخبز احتاج إلى آلات وأيدٍ كثيرة للحصول على الخبز»، فبداية يحتاج إلى البذور والحبوب، وهذه الحبوب تحتاج إلى حرّاث وأدوات إلى الحرث وإلى الزارع الذي يزرع هذه الحبوب وأدوات للسقي وللحصد، ثم بعد ذلك تؤخذ هذه الحبوب إلى المخازن، ثم إلى المطحنة لتطحن وتتحول إلى دقيق، ثم يأخذ العاجن هذا الدقيق ليحوّله إلى عجّين، ثم يأخذه الخابز ليحوّله إلى خبز، وإذا أراد أن يحصل عليه الإنسان يحتاج إلى نقود ليشتره ويستعمله.

هذا يدل على أن الإنسان اجتماعي بطبعه لا يستطيع أن يستقل عن غيره، ولذلك بيّن لنا رب العزة والجلال في كتابه العزيز: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالتعارف ينتج عنه تعاون وترابط، فبيّن الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه لا يقوم مجتمع إلا على التعاون والترابط والتآلف والتكاتف، ولذا عندما جاء رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله

السلطات، حتى قبل ذلك في زمن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بدأ فصل السلطات، فلم تنحصر السلطات كلها بيد رجل واحد، لذلك أبو بكر أول ما قام ووُلي قال: «يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، القوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له، إذا أحسنت فأعينوني، وإذا أسأت فقوموني»، فقام إليه سلمان رضي الله عنه وقال: «يا أبا بكر لو أسأت لقومناك بسيوفنا هذه»، فقال سلمان: «جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله ذلك الظن بكم، هذا هو ما أظن بكم أنكم لا تقروني على الخطأ».

ثم بين رسول الله ﷺ في هذه الوثيقة أن الناس آمنون على دمائهم وأعراضهم ومعتقداتهم، فللمسلمين ومواليهم دينهم ولليهود ومواليهم دينهم.

السيرة العملية أثبتت أن النبي ﷺ لم يتدخل في قضاياهم الشخصية في الأحوال الشخصية وفيما بينهم إنما ترك ذلك لهم إلا إذا أتوه يتحاكمون إليه، كما تحاكموا إليه في أمر الرجل والمرأة اليهوديين اللذين زنيا فقالوا: إيتوا إلى هذا النبي الذي جاء بالتخفيف لعل أن نجد عنده غير ما نجد في كتبنا؛ لأن في كتبهم إذا زنا المتزوجان يجرمان، فقال لهم رسول الله ﷺ: إيتوا بكتابكم فاقرأوه، فلما أتوا بالكتاب وقرأ كبيرهم وضع يده على الآية التي فيها الرجم، فقال له رسول الله

نظمت علاقة المسلمين بغيرهم من الديانات الأخرى، حيث كانت النسبة العظمى المقصودة في الوثيقة من غير المسلمين هم اليهود إلى جانب بعض الوثنيين في المدينة أيضاً من بقايا الأنصار الذين لم يؤمنوا، وكان هناك أناس من المسلمين الذين ليست لهم قبائل أو من العرب الذين أسلموا ودخلوا في حلف مع القبيلتين الكبيرتين.

ولعل أول ما يمكننا الإشارة إليه في تنظيم العلاقات، أن الوثيقة أوضحت بأن المسلمين أمة واحدة ومن معهم من مواليهم، وأن اليهود أمة واحدة ومن معهم من مواليهم، لكن هذه العلاقة ابتداءً تقف على المسؤولية الفردية، فكل مواطن وكل فرد في هذه الدولة مسؤول عن تصرفاته، فلا يجني أحد على أحد، لا على قبيلته ولا على أهله بعكس ما كان معروفاً بين العرب من قبل، عندما كان رجل من قبيلة واحدة يقتل أحداً فيأتي العربي الجاهلي يقتل أي فرد من قبيلة هذا الإنسان ليأخذ بثأره وبدمه، هذه القضية انتهت، فهنا بينت الوثيقة كما في المواطنة، هناك مسؤول في الدولة.. الدولة هي من تتحمل هذه المسؤولية، إذا اختلف المسلمون أو المسلمون واليهود فالأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهو نبي يوحى إليه، ومن جانب آخر يمثل السلطة السياسية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية، ولكن بعد ذلك لما تكونت الدولة في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه فصلت

بعمرو بن العاص وابنه، فلما جاء سأل ابن عمرو بن العاص هل ما قاله القبطي صحيح؟ قال: نعم، قال: خذ درقي واضرب بها ابن الأكرمين، فضربه، ثم قال: اضرب بها عمرو بن العاص على صلته، فوالله لولا أنه كان يعلم أنه يستند إلى أبيه لما فعل ذلك، فقال أيضًا -انظر إلى إنصاف هذا القبطي- يا أمير المؤمنين قد أخذت حقي ممن ضربني -أي: فإن أباه ليس له علاقة بالأمر، لم يكن موجودًا في السباق ولا هو حرّضه ولا حماه، فلذلك أنا أرى أنني انتصفت ممن ضربني -.

حقوق المواطنة أيضًا واجبات للمواطنة، كل مواطن خفير -أي: حارس- على أخلاق البلد، خفير على أمن البلد، خفير على مكتسبات البلد، يجب أن يشارك في ميزانية الدولة إذا احتاجت الدولة، سواء يشارك في الضرائب التي تسمى بالنسبة للمسلمين الزكاة وتسمى لغير المسلمين جزية، وقد تكون الجزية أخف من الزكاة؛ لأنها كانت في أكثر حالاتها لا تؤخذ من النساء بينما الزكاة تؤخذ من النساء المسلمات، وإذا لم يقيم الإنسان بحقوقه ومسؤولياته لم تقم المجتمعات، وإذا لم تقم الدولة بالعدل فإنها تزرع الحقد في قلوب المواطنين، وإذا لم تقم على المساواة بين المواطنين أيضًا شعر بعضهم بانتقاص، ولذلك عندما ترفع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى القاضي شريح مع يهودي -وكان اليهودي قد اشتكى على أمير

عليه السلام: ارفع يدك عن الآية، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقال: هذا حكم الله فيكم.

لم تكن دولة الإسلام ثيوقراطية؛ فالدولة الثيوقراطية هي التي يكون فيها الحاكم معصومًا، بينما في الدولة الإسلامية هي أقرب ما تكون في الوضع الحالي دستوريًا إلى الدولة المدنية، الحاكم ينتخب فيها بإرادة الشعب ويحاسبه الشعب إن أخطأ، وحاله كحال أي إنسان من الشعب إلا أنه ينفذ القانون على الجميع بما فيهم الحاكم نفسه.

عندما تسابق ابن عمرو بن العاص وكان واليًا على مصر، تسابق معه قبطي فسبقه القبطي فغضب ابن عمرو بن العاص، قال: كيف تسبقني وأنا ابن الأكرمين، أنا من قريش وأبي الوالي، وضرب القبطي -انظر كيف هذا القبطي عنده كرامه ويعرف حقوق المواطنة، يعرف أنه ليس لهذا المسلم وليس لهذا العربي وليس لهذا القرشي وليس لابن الزعيم الحق في أن يضربه- فركب القبطي ناقته من مصر إلى المدينة المنورة، وجد عمر أعرابيًا ليس على بابه لا حارس ولا جنود، قال: يا أمير المؤمنين ذمّي دينكم يطلب الإنصاف -قد تكون هناك مصطلحات لكن المواطنة هي المواطنة، لك حق الحياة، لك حق الحرية، لك حق الاعتقاد، لك حق الترافع إلى القضاء، لا يمنعك أحد، ولا يقف أمامك أحد- قال: ما بالك؟ فذكر له قصته، فقال للبريد: إيتوني

اليوم الذين يريدون أن يقيموا دولة الخلافة يتعاملون مع الناس بميزان أعوج، الجانب الراجح لهم والجانب المرجوح للناس الآخرين حتى لو كانوا مسلمين، ولذلك لم يسلم من أذاهم مسلم وغير مسلم، الجميع قد اكتتوا بنار هؤلاء؛ لأنهم بنوا دولتهم المزعومة على الجهل وعلى الكراهية.

العلم ينير طريق أصحابه، والإنصاف يقيم العدل بين الناس، ودولة بلا إنصاف ولا علم ولا إيمان دولة خاسرة.

نسأل الله عز وجل أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين، وأن يجعلهم كلهم بخير وسلام، وأن يعم السلام في الأرض كلها، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤمنين - فخاطبهما شريح فقال لليهودي: قف يا فلان، وقال لأmir المؤمنين: قف يا أبا الحسن، فقال له أبو الحسن: ما أنصفت، قال: وما ذاك؟ ما حكمت!، قال: لأنك خاطبت خصمي باسمه وخاطبتني بكنتي. وصل العدل إلى هذه الدرجة، حتى أنه لم يقل له: يا أمير المؤمنين، وكان أمير المؤمنين في ذلك الوقت، ولم يقل له: اجلس، قال له: قف بجانب خصمك يا أبا الحسن، حتى يشعر المواطن سواء كان مسلمًا أو يهوديًا أو نصرانيًا أو لا دينيًا بأنه مواطن في دولة تقيم العدل وتعامل بالمساواة، ولذلك استطعنا في فترة وجيزة أن ننشر الدين في أرجاء العالم ونقيم العدل لكن عندما تخلىنا عن دين العدل والمساواة وعن دين الإنسانية كان ما كان.



ماذا نقصد بالمواطن الصالح؟

وَيَقْعِدُ الْمَدِينَةَ

عَقْدُ الْمَوْطِنِ الْأَوَّلِ

فضيلة الشيخ عدنان بن عبدالله القطان
رئيس الدائرة الشرعية بمحكمة التمييز
خطيب جامع الفاتح الإسلامي

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإنَّ المحبة للأوطان، والانتماء للأمة والبلدان، أمر غريزي، وطبيعة طبع الله تعالى النفوس عليها، وحين يولد الإنسان في أرض وينشأ فيها فيشرب ماءها، ويتنفس هواءها، ويحيا بين أهلها، فإنَّ فطرته تربطه بها فيحبها ويواليها.

إِنَّ حُبَّ الوطن بهذا المفهوم الطبيعي أمرٌ غير مستغرب، فإنَّ الولاء له، والسعادة في ملازمته والعيش فيه، والحزن والكآبة لفراقه والبعد عنه، مشاعر إنسانية لا غبار عليها ولا اعتراض، ولا يجوز أن تكون الوطنية مفهوماً مشوهًا يعارض به الولاء للدين؛ فالإسلام لا يغيّر انتماء الناس إلى أرضهم ووطنهم ولا شعوبهم ولا قبائلهم؛ فقد بقي بلال بن رباح حبشيًا، وصهيب بن سنان روميًا، وسلمان بن روزبه فارسيًا، ولم يتضارب ذلك مع انتمائهم العظيم للإسلام، وعليه فإنَّ المواطن في مقاصد الشريعة: هو كل إنسان ينتسب إلى وطن، قدَّر الله له أن ينشأ فيه، وينتمي إلى قومه، ويعيش معهم، فهو ملكهم وحماهم وموطن أمنهم واستقرارهم وحقهم في الحياة، يتحمّلون جميعاً أمام الله تعالى مسؤولية أمانة عهد الاستخلاف فيه، وعليهم جميعاً واجب الحفاظ والدود عن سيادته وأمنه واستقراره ووحدته أراضييه، ومن يخالف ذلك وينتهكه، إنّما هو مخالف ومتنّك لعهد وميثاق المواطنة، ومخالف لأمانة الحفاظ على مصالح وسيادة

وفي كتاب الله تعالى قَرَنَ الله حُبَّ الوطن، والولاء والإخلاص له، بِنَفْسِ الإنسان، في حِفَاظِهِ عليه وعلى أمنه واستقراره، وَتَمَسُّكِ بِهِ، وَالدُّودِ عنه وعن سيادته، ولو تطلب ذلك بذلَّ المهج والأرواح، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنَبُّيًّا﴾ [النساء: ٦٦]. ولهذا جعل الموت في سبيل الدفاع عن الدين والوطن شهادة.

ولمّا كان الخروج من الوطن قاسياً على النفس فقد كان من فضائل المهاجرين أنّهم ضحوا بأوطانهم هجرةً في سبيل الله عزَّ وجلَّ.. فها هو رسول الله ﷺ يهاجر ويودّع وطنه الأول مكّة بتلك الكلمات، التي تقطر رقةً وحبًّا وحنينًا وإيمانًا، فيقول: (والله إنّني أعلم أنّك خير أرض الله وأحبّها إلى الله، ولولا أنّ أهلك أخرجوني

المواطن الصالح المحب لوطنه هو الذي يحافظ على البلاد وممتلكاتها الخاصة والعامة، ويحترم الأنظمة والقوانين، ويحب الآخرين، ويؤلف بين القلوب، ويدعو إلى توحيد الصفوف، ويحرص على وحدة الوطن بجميع أطيافه وشرائحه، وينبذ العصبية والعرقية والطائفية، ويكره الخلاف والشقاق والنزاع، ويدعو إلى المحبة والمودة والوئام والسلام بين الناس.

إنَّ المواطن الصالح المحب لوطنه هو الذي ينشأ أسرة مستقرة صالحة واعية، تعرف حقوقها وواجباتها ويربّيها ويغرس في قلوب أفرادها حبّ دينهم وحب الانتماء والولاء لوطنهم، وطاعة ولاة أمورهم في المعروف والخير، ويحذرهم من توجهات التشدد والغلو والتطرف والإرهاب وسلوك طريقه.

إنَّ المواطن الصالح المحب لوطنه هو الموظّف والمسؤول الذي يساعد جميع المراجعين، ولا يمارس الانتقائية والتّصنيف في ذلك، ويحافظ على المال العام، ولا يستغل الوظيفة فيما يغضب الله عزّ وجلّ، فلا يسرق ولا يختلس ولا يرتشي ولا يزور.

المواطن الصالح المحب لوطنه هو المعلّم الذي يقف في الفصل المدرسي ويؤدّي عمله في بناء الجيل بكلّ همّة وإخلاص ويراقب الله تعالى

الوطن والمستخلفين معه في الوطن الواحد.

والمواطن الصالح: هو الذي يراعي حقوق دينه ووطنه ونفسه ومجتمعه وولاية أمره ومعرفة واجبه تجاه كل واحد منهم.

والمواطنة الصالحة: هي الشعور بالانتماء للوطن والتّفاني والحب والإخلاص والولاء وبذل الغالي والتّفيس من أجله، قولاً وعملاً وليس زعماً وادعاءً.

أيّها الإخوة الأحبة: إنّ المواطن الصالح المحب لوطنه، هو الذي يلتزم بتعاليم دينه، ويدود عن حمى وطنه بالغالي والتّفيس، وهو الذي يسمع ويطيع ولاة أمره في غير معصية الله، ويحترم النظام، ويحافظ على مكتسبات هذا الوطن ومقدّراته، ويحافظ على أمنه بالتعاون مع الجهات الأمنية، وأن يتكاتف ويتعايش مع أفراد وطنه بكل أطيافه ومكوناته، ويتصدّى لكل من يريد شقّ الصفوف، وإثارة الفتن والفوضى، والإخلال بالأمن والاستقرار، وهذه هي الأمانة العظيمة التي يجب علينا أن نؤديها بإخلاص.

إنَّ المواطن الصالح المحب لوطنه، هو الذي يزرع التفاهل في محيطه، ويزرع البهجة والابتسامة على شفاه قلوب الناس، وينشر الأمل أينما ذهب، ويجدد الثقة بوطنه الطيّب وقيادته وأهله ومجتمعه.

في ذلك، ولا ينتظر شكراً من أحد.

والمواطن الصالح المحب لوطنه هو ذاك العالم والخطيب والداعية والواعظ، الذي يتحرّى الحقائق، وينقل الكلمة الصادقة، وينشر الفضائل، ويحذّر من الفواحش والردائل، ويدعو للتحمّل بالقيم والأخلاق، ويحرص على وحدة الوطن وأمنه واستقراره، وينبذ العصبية والطائفية، ولا يُحرّض ولا يشوّش ولا يُثير الفتن في المجتمع.

وهو ذاك الكاتب والصحفي والمراسل والإعلامي والحقوقي الذي يتحرّى الحقيقة، وينقل الحدث بصدق وتجرد، ولا يدّلس ولا يكذب ولا يسيء إلى وطنه لدى الدول والمنظمات الخارجية ولا يستقوي بالخارج ليضرب الداخل، بل يحرص على سلامة بلاده من أي تدخّل خارجي.. وقس على ذلك في جميع الأمور.

إنّ علينا أيّها الإخوة الأحبة ومن منطلق

الإيمان بالله تعالى، ثمّ من منطلق حب هذا الوطن المبارك، أن نجدّ في النصّح له، وفي القيام بواجباتنا تجاهه، وليعلم كل واحد منّا أنّه حارس للمجتمع، ومرابط على ثغر من ثغور الأمة، فلا يؤتسب الإسلام من قبله، وإنّها لأمانة ورعاية استرعانا الله إيّاها، وقد صحّح عن النبي صلى عليه وآله وسلم أنّه قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [رواه البخاري].

نسأل الله عزّ وجلّ أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين في كل مكان، من كل سوء ومكروه، وأن يديم علينا نعمة الأمن والأمان، والتّمسك بدين الإسلام، وأن يؤلّف بين قلوبنا رعاة ورعية، وأن يحفظ ويوفق قادتنا وولاة أمورنا وشعوبنا إلى كل خير، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.



الوحدة الوطنية
وثيقة المدينة (نموذجاً)

وَبَقِيَ الْمَدِينَةُ

عَقْدُ الْمَوَاطِنَةِ الْأَوَّلِ

سماحة الشيخ محمد حسن عبد المهدي

مما لا شك فيه أن الوحدة الوطنية هي القاعدة الكبرى في استقرار الدول ونمائها وعلى أساسها يقوم البناء الصحيح والقوي للوطن ومن خلالها تتشكل الأهداف التنموية والسياسية لهذا الوطن، وضعف الوحدة الوطنية ينبى عن ضعف في الوطن وتمزق وشتات بين أفرادها ومصالحه، لذا لابد من التأكيد على أهمية الوحدة الوطنية جملة وتفصيلاً.

ويراها آخر أنها وجود نوع من الاتفاق والوفاق على ثقافة وطنية مشتركة وإطار من التفاعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبين النظام السياسي وأعضاء الجماعة الوطنية من جانب، وبين الجماعات الإثنية المختلفة من جانب آخر بغض النظر عن انتماءاتهم الإثنية المختلفة أو خلفياتهم الثقافية السياسية الفرعية أو انتماءاتهم الإقليمية أو القبلية.

ومنهم من يرى أن الوحدة الوطنية هي قيام رابطة قوية بين مواطني دولة معينة تقوم على عناصر واضحة يحس بها الجميع ويؤمنون بها ويستعدون للتضحية في الدفاع عنها.

ويراها آخر أنها تجمع كل المواطنين تحت راية واحدة من أجل تحقيق هدف سام هو فوق أي خلاف أو تحزب في ظل ولاء أسمى يدين به كل فرد من أفراد المجتمع ، ويحكم انتماءه للوطن، بحيث يجب هذا الانتماء أي انتماء طائفي أو مذهبي.

وهناك الكثير من التعريفات التي ذكرها

فالوحدة الوطنية مفهوم يتألف من عنصرين هما: الوحدة، والوطنية، ومجموع هذين العنصرين يكون مفهوم الوحدة الوطنية، فلا بد لنا من أن نعرف كل عنصر منهما:

فالوحدة يقصد بها تجميع الأشياء المتفرقة في كل واحد مطرد.

وقد اختلف الباحثون في تحديد مفهوم الوطنية تبعاً لثقافتهم وتوجهاتهم ومعتقداتهم فمنهم من يرى أنها انتماء الإنسان إلى دولة معينة، يحمل جنسيتها ويدين لها بالولاء، وبعضهم يراها حب الوطن بسبب طول الانتماء إليه وبعضهم أشار إلى أن الوطنية هي العاطفة التي تميز ولاء الإنسان لبلده أو قبيلته أو شعبه، إلى غير ذلك من التعريفات والآراء.

لذا نجد أيضاً الاختلاف عندهم في تحديد مفهوم الوحدة الوطنية، تبعاً لثقافتهم ومرجعياتهم الفكرية والإيديولوجية ، فمنهم من يراها اتحاداً اختيارياً بين المجموعات التي تدرك أن هذه الوحدة تزيدها نمواً وتطوراً، وآخر يشابه بينها وبين القومية .

الشرعية الدفاع عن الوطن ورد الأعداء عنه، كما في آيات الجهاد وفي السيرة المتبعة من النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه حيث قدموا الغالي والنفيس من أجل الذود عن ديارهم، وفيما تضمنته صحيفة المدينة من بنود الدفاع والقتال ضد العدو كفاية للتدليل على عمق تأصيل العلاقة القائمة بين الفرد ووطنه الذي يقيم عليه وينتمي له.

ولأهمية الوطن الذي كتبت فيه هذه الصحيفة جعله صلى الله عليه وآله حراماً آمناً، (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة).

ولاشك أن قوام الوحدة بين المجتمع هو شعور المجتمع بالأمن والاستقرار وأن حقوقهم مصادرة لا يظلمون ولا يظلمون؛ لذا أكدت الصحيفة على أن مصدر الحكم والقضاء وفصل المنازعات إنما هو حق خاص له صلى الله عليه وآله يحكم بينهم بحكم الله تبارك وتعالى، (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وحيث إن الإسلام الكريم هو دين الوحدة والتسامح والألفة والخير والوسطية فقد أولى موضوع الوحدة والوطن أهمية بالغة من خلال

المفكرون والعلماء لمفهوم الوحدة الوطنية إلا أنها تتفق على وجود الترابط والتوحد تحت راية ما، بعيداً عن التحيزات والانتماءات التي تصنف أفرادها في حالات تفرقها وتشتهتها سواء كانت حزبية أو طائفية أو عرقية. مع عدم إلغاء خصوصية كل جماعة ومبادئها وأفكارها بل التعايش مع الجميع وحفظ الحقوق والخصوصيات وعدم تقديمها على المصلحة العليا للوطن والمواطن.

ويلاحظ على هذه التعريفات أنها تشير في مجموعها إلى طرفين هما: المواطن، ومن له السيادة والحكم. والجامع المشترك بينهما هو التراب الذي يعيشان عليه ويستوطنانها وهو الوطن، وبذلك يتساوى المواطن الأصل والمواطن بالإقامة في ذلك، وأن الوحدة الوطنية في أي بلد هي من أهم مقومات ذلك الوطن ومصدر قوته وازدهاره ونموه.

ونقول: إن الإسلام هو أول من أصل لمفهوم الوطن والمواطنة بالمفهوم الإسلامي الواسع الشامل لجميع مناحي الحياة، فقد ورد أن (حب الوطن من الإيمان)، و(عمرت البلدان بحب الأوطان)، ويتضح حب الوطن في أجلى صورته في قوله صلى الله عليه وآله وهو يفارق مكة (ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)، وأوجب

والعمل الصالح.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[سورة آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

وقد أمرنا أن ندعو للخير وكل ما يمثله من مبادئ خيرة من الألفة والمحبة والوحدة والصلاح والتعاون وإصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليستقيم حال المجتمع، ونتحسس من خلال ذلك سلبياتنا وإيجابياتنا، ونصلح بعضنا بعضاً ونسد خلتنا، ونهانا عن التفرق والتشتت؛ لأن في ذلك ضعفنا وشقوتنا وقتلنا وذهاب كلمتنا واختلافنا الذي يؤدي إلى زوال وجودنا وسيطرة عدونا علينا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

ويتجلى لنا من خلال هذه الآية المباركة كيف يصف الله تبارك وتعالى حالة التلاحم بين القيادة الربانية وبين المؤمنين وهم يمثلون الوحدة في

الكثير من الآيات المباركة والسنة المطهرة ونظم حياة المجتمع بكل فئاته وطبقاته وأجناسه، لا فرق بين أبيض ولا أسود ولا غني ولا فقير ولا ضعيف ولا قوي، فكلهم عباد الله، وكلهم من آدم وآدم من تراب، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

فهذه دعوة بيّنة واضحة المعالم للاعتصام والتوحد والالتفاف حول كتاب الله العاصم من الضلال، والمنقذ من الحيرة، فهو كتاب يجمعنا على الهدى ويخرجنا من الردى، وليس الاعتصام بحبل الله إلا العمل بما يتطلبه الاعتصام والسير على النهج القويم أخذاً بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله واجتناباً عما نهى عنه صلى الله عليه وآله، فقد أمرنا بالطاعة لله ولرسوله، وعبادة الله وحده، وأخرجنا من عبادة العباد، وأمرنا بعبادة رب العباد، وهو مظهر من مظاهر وحدتنا، حيث إننا نعبد إلهاً واحداً أحداً صمداً حياً قيوماً، له حق الطاعة، ونحن عنده سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بيننا إلا التقوى

مَنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿سورة الأنعام: ١٥٩﴾.

وكما شددت الآيات المباركة على أهمية الوحدة والتوحد على الخير ومبادئ الصلاح ونبذ الخلاف والفرقة والغلو والتطرف والاستعلاء ومنازمة الناس ونشر الفتن وإشاعة الفساد في الأرض ومخالفة النظم الإنساني والطأفة والتمييز العرقي والمذهبي والحزبي والمكاثرة والمغالبة بين المسلمين والمؤمنين أنفسهم، كذلك شددت على التعايش السلمي والانفتاح على الآخر ومراعاة حق الجوار والذمة بينهم وبين من يعيش معهم في الوسط الاجتماعي الواحد من غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم في ضوء الضوابط والقواعد الشرعية المرعية، فقال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].

وهي قاعدة دينية ربانية في التعامل مع غير المسلم في الوسط المسلم حيث التعامل بالبر والإحسان والعدل والإنصاف وكف الأذى عنهم ما داموا غير محاربين ولا مخالفين لما يجب عليهم الالتزام به من المبادئ والقيم الحقّة. وفي ذلك كله وصول إلى رضوان الله ومحبته وهي

تكانتهم مع القيادة وموقف القيادة الداعم لهم والمبشر لهم بما يملأ قلوبهم إيماناً وثباتاً في ساعة العسرة والشدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٩].

وتؤكد الآية الكريمة أهمية الطاعة التامة والانقياد والتسليم والرجوع إلى القيادة العليا في حالة الرضا وعند التنازع والإذعان للحكم الصادر منها وعدم المخالفة لأمر القيادة الربانية؛ لأنها تمثل الضمانة لاستقرار البلاد والعباد فهي ضمانة العدالة والنزاهة في التعامل مع أفراد المجتمع وفق المنهج الذي لا ظلم فيه ولا تمييز، فالناس سواسية.

أما أولئك الذين فرّقوا دينهم وتشعبت كلمتهم وأخذوا بعض الكتاب وتركوا بعضه واتبعوا ما تشابه منه، فإن مصيرهم الشتات والضياع، ويجرفهم الغلو والتطرف والانحراف شيئاً فشيئاً حتى يخرجوا من دائرة المجتمع المعتدل الوسطي المبادئ الذي يدعو إلى الخير، فيصف حالهم تبارك وتعالى فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ

غاية الغايات وهو أمر أيضًا نصّت عليه الصحيفة المباركة حيث نصّت على الأمن والبرّ والعدل والإنصاف وحسن الجوار.

ونرى النبي صلى الله عليه وآله إذ يقوم بتلك الخطوات المرسومة بوحى السماء ليشيّد مجتمعاً كان يعيش الشتات والتفرق والحروب فيحوّله صلى الله عليه وآله إلى مجتمع متماسك كالبنيان المرصوص ليضرب لنا أروع الأمثلة في التآلف والتحابّ والمواساة وبذل الغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن الدين والعقيدة والوطن، فيبدأ النبي صلى الله عليه وآله بأخذ البيعة، بيعة الرضوان الأولى والثانية بمضامينهما العالية، ثم يهاجر إليهم ويترك وطنه الذي ولد فيه وترعرع في ظلاله وهو يتحسر على فراقه متوجّهاً إلى بلد لم تطأ قدماه فيبني أول مسجد أسس على التقوى، وتنطلق الدعوة المباركة من المسجد إيذاناً بأهميته وسمو مكانته في هذه الدولة الفتية؛ ليجمعهم تحت سقفه، وهو إمام لهم في الصلوات التي توحد المؤمنين معنى ومبنى، ثم يقوم بأمر حيرّ فيه العقول وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليضربوا لنا أروع المثل في التكاتف والتآزر، ثم يكتب الصحيفة المباركة التي جمعت شتات المجتمع المدني بكل أطرافه وطبقاته، المسلمين وأحلافهم من غير المسلمين واليهود

وقبائلهم وبطونهم وأحلافهم تفصيلاً وإجمالاً. ومن خلال نظرنا الفاحصة للصحيفة النبوية المباركة يتجلى بوضوح هذا المعنى فقد أكد صلى الله عليه وآله ذلك:

١- هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس، فهو صلى الله عليه وآله جعلهم أمة واحدة متضامنة ذمتها واحدة، أمانها واحد، إجماعتها واحدة أو جوارها واحد، يفكون أسيرهم بدون إجحاف بأحدهم بل بالمعروف فيما بينهم، ويتعاقلون كل في محلته، فإن عجزوا فيكون ذلك بين المؤمنين جميعاً بالمعروف في الفداء والعقل. ودعا إلى حفظ الجوار، ولكل جار حقه وحرمة، لا فرق بين مسلم وغير مسلم.

وعلى رغم أن المجتمع مكوّن من أقسام متعددة فقد ضمن لكل قبيل أو قسم حقه وجعله آمناً على نفسه وماله ودمه سواء بقي في المدينة أو خرج منها وعاد إليها فهو آمن في كل حالاته إلا من تعدّى وظلم فيستحق العقوبة.

وتتجسّد هذه الوحدة الوطنية بأمور منها:

أولاً: الترابط والتكاتف بين المواطنين

والجمعيات العامة لخلق جو من الثقافة الوطنية بين أفراد المجتمع.

● تفعيل دور المسجد وأماكن العبادة في تأصيل الثقافة التعددية القائمة على تعاليم الشريعة بعيداً عن الغلو والتطرف ونبد الشحنة والطائفية والكراهية، وإبعاد الخطاب الديني عن المهاترات وإثارة الخلافات التي تشتت المجتمع.

● التركيز على ترسيخ الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام من خلال آيات الكتاب المجيد والسنة المطهرة، (إذ ينبغي أن تقوم هذه العلاقة بين الفرد والمجتمع على مبادئ أخلاقية من شأنها أن تمنع الاستغلال والتسخير من أحد الطرفين للآخر، ومن شأنها أن تؤدي إلى التنسيق بين المتطلبات الاجتماعية والفردية، وتؤدي في الوقت نفسه إلى حياة مستقرة آمنة).

● تنشئة الأسرة تنشئة طيبة تحمل روح التعاون وحب الوطن والألفة والتسامح والعطاء والصلة والبر.

● تفعيل دور التعليم ومراكز المعرفة من خلال إعداد المناهج التعليمية وفق متطلبات الوحدة والوطنية، وتقوية جانب الانتماء للوطن، والحرص على تغليب مصلحة الوطن على مصلحة الذات.

تكتافاً وتربطاً تعاونياً اجتماعياً بعيداً عن الطائفية والعنصرية والقبلية والعرقية.

ثانياً: التكتاف والتربط بين المواطنين والدولة أو القيادة الوطنية أمنياً وسياسياً واقتصادياً تحقيقاً للمصلحة العليا للوطن؛ لدحض الخطر الداهم داخلياً وخارجياً.

آليات تحقيق الوحدة الوطنية:

هناك الكثير من الوسائل التي تتحقق الوحدة الوطنية من خلالها، ومنها :

● حرص الدولة على تأكيد الوحدة الوطنية من خلال القوانين الدستورية التي تدعو المواطنين إلى تفعيلها وتجريم من يخالف الثوابت فيها، مضافاً لتقوية الجانب الوطني والحس بالمسؤولية عند المواطن بما يسند إليه من مسؤوليات ينفذها بحيث يبرز فيها وجوده كمواطن له حقوقه كاملة غير منقوصة وعليه واجبات يؤديها بأكمل وجه، والتأكيد على معايير النزاهة والمساواة بين المواطنين.

● تثقيف المجتمع وتنشئته على المفاهيم الصحيحة التي غرسها الشريعة الإسلامية بين أفراد المجتمع المسلم بطبقاته المختلفة أو فئاته المختلفة.

● توظيف مؤسسات المجتمع المدني

● الأحزاب والجماعات الفتوية المتناحرة والتي تسعى للسيطرة والاستعلاء على الآخر وتمير سياساتها الخاصة على المجتمع .

● الجهل بتعاليم الشريعة وتوجيهها وفق اديولوجية خاصة تخدم مصالح فئات مشبوهة لا تريد من الدين إلا وسيلة للوصول إلى مقاصدها فتشير الفتن من خلال الفهم المغلوط لتعاليم الدين وتسخير ذلك لمصالحها الضيقة.

● الاصطفاف السياسي المجانب لمصلحة الوطن العليا.

● الإعلام المضلل والأقلام المأجورة التي تنخر في جسد الوطن من خلال ما تبثه من سموم مفرقة للألفة والتسامح والمحبة.

● ضعف الوازع الديني، لذا نجد النبي صلى الله عليه وآله ربط الصحيفة وتطبيقها بالإيمان بالله واليوم الآخر، (ولا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد)، وقال: (إن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره).

● قيام الدولة ومؤسساتها الرسمية من خلال الإعلام الرسمي والصحافة ووسائل التواصل المعرفي بجهود تعريفية للمواطنين والمقيمين بحقوقهم وواجباتهم وقطع الطريق على المغرضين ومثيري الشكوك بين المجتمع؛ ليكون المواطن على معرفة تامة بمسؤولياته وواجباته وحقوقه وطريق حصوله عليها.

● توضيح الآثار السلبية المترتبة على انعدام الوحدة الوطنية على المجتمع قياماً وبنياً وعلى الدولة كياناً ووجوداً.

التحديات التي تعوق الوحدة الوطنية:

هناك كثير من الأمور تعيق أو تضعف الوحدة الوطنية، ووجودها يمثل تحدياً لذلك، منها:

● الاستعمار أو التدخلات الخارجية بما تمثله من إملاءات على أطراف المجتمع الواحد.

● إثارة النعرات الطائفية أو العنصرية والعرقية والمذهبية بما يذكي الخلافات والعداوات التي خمدت ومضى زمانها.

● ما يقوم به أصحاب الدعوات الضالّة والتوجهات المنحرفة عن الدين وسماحته ووسطيته غلوّاً وتكفيراً وإرهاباً.

كل رجل مكاناً، فأخذ رجل منهم الفأس فنقر مكانه، فقالوا: ما تصنع؟ قال: مكاني اصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يديه نجوا ونجا، وإن تركوه غرقوا وغرق، فخذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا).

وأن الاختلاف الفكري وتعدد المذاهب ظاهرة صحيحة في الوسط المسلم بشرط أن يتبعد أصحابها عن الغلو والتطرف والتكفير وعدم احترام الرأي الآخر، فاختلف الأمة رحمة، وفي الحق سعة، والوسطية والاعتدال هو منهج السماء، وبذا جاءت الشريعة السمحاء.

وعلى جميع الأطراف السعي في مسيرة الإصلاح والتطوير بما يؤدي إلى تعميق الإحساس بالانتماء وتعزيز الوحدة الوطنية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ختامًا: يتجلى لنا بوضوح أن الوحدة الوطنية هي ضمانه الاستقرار والازدهار .

وهي مبدأ أصيل في الشريعة الإسلامية إذ إن ديننا الحنيف يدعو إلى الوحدة والألفة والتسامح والمعاملة الحسنة وكف الأذى ونبد العنف وصفاء القلب وتوافق الظاهر والباطن والسر والعلانية والصدق في القول والعمل، وحفظ الحقوق وصيانتها، وإعطاء كل ذي حق حقه، والمساواة واحترام الآخرين، والحب في الله والبغض في الله، بل ربط كل حركة الإنسان في قوله وعمله بالله وطلب رضوانه، ووحدة الصف والاعتصام بحبل الله ونبد الخلاف والتفرقة، فكلنا في سفينة الوطن تبخر بنا فلا بد من الوصول بها إلى شاطئ الأمان بصيانتها وحفظها من كل ما يضر بها مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله: (إن قوماً ركبوا البحر في سفينة فاقسموا فأصاب



ميثاق العمل الوطني..
ارتباط بالأصل واتصال بالعصر

وَبَيْعًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

عَقْدًا لِلْمَوْطِنِ الْأَوَّلِ

د. مال الله الحمّادي

ميثاق العمل الوطني.. هو نمط حياة جديد لمملكة البحرين وشعبها.. هو خطوة غير مسبقة تنم عن رغبة جادة من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة عاهل البلاد المفدى - حفظه الله ورعاه - نحو الانتقال بالبحرين إلى مصاف الدول الديمقراطية العريقة، والحرص على مشاركة الشعب في إدارة شؤون البلاد المختلفة وفق أفضل الممارسات الديمقراطية.

المختلفة في المدينة رغم تعدد دياناتهم ونمط حياتهم كانوا يتمتعون بحرية ثقافية وحقوقية ودينية كاملة، ولهم كامل الحرية في التعبير عن آرائهم في ظل القانون والثقافة التي تحكم مجتمع المدينة في ذلك الوقت. وهذا إقرار بمبدأ التعددية بكل تجلياتها والقبول بالآخر المختلف دينياً وعرقياً وثقافياً.

وما يقابل هذا في نص ميثاق العمل الوطني هو البند الثالث من الفصل الأول (المقومات الأساسية للمجتمع): «تكفل الدولة حرية العقيدة وتكون حرية الضمير مطلقة، وتضمن الدولة حرمة دور العبادة وتضمن حرية إقامة الشعائر الدينية وفق العادات السائدة في البلاد».

العدل والمساواة بين أفراد الشعب:

فبموجب وثيقة المدينة فإن العدل والمساواة من الأسس العظيمة التي تركز عليها، لأنهما أحد لأبرز مقومات الاستقرار في المجتمعات، فقد ورد في الوثيقة:

(وإن النصر للمظلوم)، ولفظ المظلوم هنا تتجلى فيه أكبر معاني حقوق الإنسان، فسواء كان

إنه عقد وطني بين الملك وشعبه، يكرّس أسس الوحدة الوطنية؛ نتيجة قيامه على قواعد صلبة من الود والمحبة والتلاحم والوفاء والرغبة المشتركة في تطوير نمط الحياة وتوفير سبل العيش الكريم من خلال الحفاظ على المكتسبات كافة.. وهذا كله يشكل مرحلة متميزة من مراحل تاريخ البحرين الحديث.

وقد اشتمل ميثاق العمل الوطني على العديد من المبادئ والقيم الإسلامية، وعلى الأخص ما ورد منها في وثيقة المدينة، ومن ذلك على سبيل المثال:

حرية العقيدة والتعايش مع الآخرين وإتاحة الفرصة للجميع للمشاركة في تنمية الوطن:

يقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقد نصّت وثيقة المدينة على أن: (للمسلمين ديناً، ولليهود ديناً)؛ ما يدل على أن القبائل

المظلوم مسلماً أو يهودياً أو غير ذلك، فإن له النصرة على ظالمه.

وإنه على كل طرف أن يتحمل مسؤولية ما يقوم به من أعمال: (وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه)، فالمخطئ يتحمل وحده وزر خطأه وليس حلفاؤه الذين لم يشاركوه الخطأ، بغض النظر عن ديانتهم وانتمائهم.

(وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم)، فوثيقة المدينة ليست ملاذاً للظالمين والآثمين الذين يحتمون به من المظلومين وأصحاب الحقوق؛ بل على العكس من ذلك فإن هذه الوثيقة ترد الحقوق إلى أصحابها بغض النظر عن دياناتهم.

وما يقابل ذلك في ميثاق العمل الوطني الآتي:

البند (الأول) من الفصل الأول (المقومات الأساسية للمجتمع): «العدل أساس الحكم، والمساواة وسيادة القانون والحرية والأمن والطمأنينة والعلم والتضامن الاجتماعي وتكافؤ الفرص بين المواطنين دعائم للمجتمع تكفلها الدولة».

البند (الثاني) من ذات الفصل، تحت عنوان (كفالة الحريات الشخصية والمساواة): «الحريات الشخصية مكفولة، والمساواة بين المواطنين والعدالة وتكافؤ الفرص دعائم أساسية للمجتمع، ويقع على الدولة عبء

كفالتها للمواطنين جميعاً بلا تفرقة»، ويأتي ذلك ضمن مبدأ أعم وأشمل، هو مبدأ المساواة بين الناس في الكرامة الإنسانية، ذلك المبدأ الذي كرّسه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وقد أكد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على أن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.

سيادة القانون:

جاء في وثيقة المدينة: «لا يحل لمؤمن أقرّ بهذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً - أي مرتكباً لجريمة - أو يؤويه»، وتوعد الصحيفة من يفعل ذلك بغضب الله عليه يوم القيامة ولا يؤخذ منه عدل - أي فداء -، ولا صرف - أي توبة -.

كما تقرر الصحيفة مبدأ قضائياً عدلياً حكيماً، هو أن المسؤولية الجنائية فردية وشخصية، وبالتالي فإن العقوبة عليها لا بد أن تكون شخصية خاصة بمن ارتكب الجريمة، فجاء ما نصّه: «إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ لأبي: يهلك - إلا نفسه وأهل بيته، وإنه من فتك بنفسه فتك بأهل بيته».

وما يقابل ذلك من ميثاق العمل الوطني ما ورد في الفقرة (١، ٥) من البند الثاني من الفصل الأول:

وطنية ولأهداف مشروعة وبوسائل سلمية وفقاً للشروط والأوضاع التي يبينها القانون».

الشعب هو مصدر السلطات جميعاً: «نظام الحكم في دولة البحرين ديمقراطي، السيادة فيه للشعب مصدر السلطات جميعاً، وتكون ممارسة السيادة على الوجه المبين في الدستور».

مبدأ الفصل بين السلطات: «يعتمد نظام الحكم، تكريساً للمبدأ الديمقراطي المستقر، على الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية، مع التعاون بين هذه السلطات وفق أحكام الدستور، ويأتي صاحب السمو أمير البلاد على رأس السلطات الثلاث».

سيادة القانون واستقلال القضاء: «سيادة القانون أساس الحكم في الدولة، واستقلال القضاء وحصانه ضمانتان أساسيتان لحماية الحقوق والحريات. وتعمل الدولة على استكمال الهيئات القضائية المنصوص عليها في الدستور وتعيين الجهة القضائية التي تختص بالمنازعات المتعلقة بدستورية القوانين واللوائح والنيابة العامة».

حق الشعب في المشاركة في الشؤون العامة: «يتمتع المواطنون - رجالاً ونساءً - بحق المشاركة في الشؤون العامة والتمتع بالحقوق السياسية في البلاد بدءاً بحق الانتخاب والترشيح طبقاً لأحكام القانون».

(١) المواطنون متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات، لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة.

(٥) العقوبة شخصية، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته بموجب محاكمة عادلة تتوافر له فيها كافة الضمانات التي تكفل له حق الدفاع في جميع مراحل التحقيق والمحاكمة طبقاً للقانون. ويجب أن يكون لكل متهم في جناية محام يتولى الدفاع عنه بموافقته، وحق التقاضي مكفول وفقاً للقانون.

ولو اتسع المقام لاستطردت في الحديث عن بقية العناصر المشتركة، مثل: الحرية الاقتصادية، حماية الملكية الخاصة، والدفاع المشترك عن الوطن.

كما تجلت في ميثاق العمل الوطني أيضاً مفاهيم ومبادئ الديمقراطيات الحديثة، فمن ذلك على سبيل المثال :

حرية التعبير والنشر: «لكل مواطن حق التعبير عن رأيه بالقول أو بالكتابة أو بأي طريقة أخرى من طرق التعبير عن الرأي أو الإبداع الشخصي»، وبمقتضى هذا المبدأ فإن حرية البحث العلمي وحرية النشر والصحافة والطباعة مكفولة في الحدود التي يبينها القانون.

تكوين مؤسسات المجتمع المدني المختلفة: «تكفل الدولة حرية تكوين الجمعيات الأهلية والعلمية والثقافية والمهنية والنقابات على أسس

من أجل السلام الاجتماعي والوحدة الوطنية.

إنّ حكمة حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة -أيده الله- ورؤيته الثاقبة، وحرصه الشديد على مشاركة شعبه في إدارة شؤون البلاد أسوة بالديمقراطيات العريقة، والرقي بمملكة البحرين وشعبها الوفي، وتوفير كافة الأسس الحديثة للعيش الكريم والكرامة الإنسانية، هو ما دفع جلالته لتدشين هذا الميثاق الوطني الحضاري الراقي، حيث حفظ أصالة المواثيق والعهود كوثيقة المدينة.. العقد الأول للمواطنة الذي أرسى دعائمه النبي صلى الله عليه وسلم، وراعى ولبّى مستجدات ومتطلبات هذا العصر، ليكون بذلك ميثاقاً مرتبطاً بالأصل ومتصلاً بالعصر.

ولقد توافق شعب مملكة البحرين على هذا المشروع الوطني الحضاري الرائد بنسبة ٩٨,٤ ٪، ما يعكس طبيعة العلاقة الحميمة والترابط والوفاء والإخلاص بين شعب البحرين وقيادته، والرغبة الأكيدة والصادقة لدى الطرفين في زيادة اللحمة الوطنية والتقارب والانسجام والتوافق على كل ما من شأنه رقي المواطن البحريني وتحقيق تقدمه ورفاهيته في ظل سيادة القانون والعدل والمساواة بين كافة أطياف المجتمع البحريني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثنائية السلطة التشريعية: «من أجل مزيد من المشاركة الشعبية في الشؤون العامة، واستلهاماً لمبدأ الشورى، بوصفه أحد المبادئ الإسلامية الأصلية التي يقوم عليها نظام الحكم في دولة البحرين، وإيماناً بحق الشعب جميعه، وبواجبه أيضاً، في مباشرة حقوقه السياسية الدستورية، وأسوة بالديمقراطيات العريقة، بات من صالح دولة البحرين أن تتكون السلطة التشريعية من مجلسين، مجلس منتخب انتخاباً حرّاً مباشراً يتولى المهام التشريعية إلى جانب مجلس معين يضم أصحاب الخبرة والاختصاص للاستعانة بأرائهم فيما تتطلبه الشورى من علم وتجربة.

ويتميز هذا التكوين الثنائي المتوازن للسلطة التشريعية بأنه يقدم في آن واحد مجموعة من المزايا تتضافر مع بعضها البعض؛ فهو يسمح بالمشاركة الشعبية في الشؤون التشريعية، ويسمح بتفاعل كافة الآراء والاتجاهات في إطار مجلس تشريعي واحد.

وهكذا فإن هذا التشكيل المقترح للمجلس التشريعي، الذي سوف يتطلب تعديلاً دستورياً، سوف يتيح له أن يستمد الحكمة والدراية من جانب، وكافة التوجهات للناخب البحريني من جانب آخر. ولا شك أن هذا التعديل يؤدي إلى فتح آفاق أرحب لديمقراطية تعمل من أجل البناء والتنمية والاستقرار والرخاء، ديمقراطية تعمل

«هذه ترجمتي»
إبراهيم بن عبداللطيف آل السعد.. رحمه الله تعالى



د. محمد رفيق الحسيني

اهتمَّ المسلمون بعلم التاريخ والتَّراجم اهتماماً بالغاً وكبيراً، وبدأ هذا الاهتمام وهذه العناية مبكراً منذ القرن الأوَّل، وتفنَّن علماء المسلمين في ذلك تفنُّناً عجيباً لا أظنُّه يوجد لدى غير المسلمين، وما يهْمُّنا هنا هو علم التراجم: وهو ذلك العلم الدَّقِيق الَّذِي يبحث في أحوال أناسٍ تركوا أثراً في المجتمع، من الولادة إلى الوفاة، مع العناية بذكر شيوخهم وتلاميذهم ومؤلفاتهم، وإنجازاتهم، إلى آخر ذلك .

أبي أصيبعة، وغيرها.

ومنهم من خصَّ تراجم الأعيان في عصرٍ من العصور: كالدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، والضَّوء اللَّامع لأهل القرن التَّاسع للسَّخاوي، والبدر الطَّالع بمحاسن من بعد القرن السَّابع للشُّوكاني، والنُّور السَّافر عن أخبار القرن العاشر للعيدرُوس، والكواكب السَّائرة بأعيان المئة العاشرة للغزِّي، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمُجَبِّي، وفوائد الارتحال ونتائج السَّفر في أخبار القرن الحادي عشر لمصطفى الحموي، وسلك الدُّرر في أعيان القرن الثَّاني عشر للمُرادي، وحلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر للبيطار، والمبتدأ والخبر لعلماء القرن الرَّابع عشر لإبراهيم بن محمَّد ناصر السَّيف.

ومنهم وضع مصنِّفاً كاملاً لترجمة إمام معيَّن: كمناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمَّد بن الحسن للذهبي، والخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النُّعمان لابن حجر الهيتمي الشَّافعي، وإرشاد السَّالك إلى مناقب مالك لابن المبرِّد

وكتب التَّراجم قد تفنَّن أهل العلم في تقسيمها وتنويعها، فمنهم من ترجم على الوفِّيات: كوفِّيات المشاهير والأعلام للذهبي، والوافي بالوفِّيات للصفدي، أو على البلدان والمدن: كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، أو على مذهب إمام معيَّن: ككتاب الطبقات السَّنيَّة في تراجم الحنفيَّة للتَّقِي الغزِّي، وترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، وطبقات الفقهاء للشَّيرازي، وطبقات الشَّافعيَّة للشُّبكي، وطبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى، وذيلها لابن رجب.

ومنهم من ألَّف تراجم العلماء على فنٍّ من الفنون: كطبقات الحفاظ للذهبي والسَّيوطي، ومعرفة القراء الكبار للذهبي، وغاية النُّهاية في طبقات القراء لابن الجزري، وطبقات فحول الشُّعراء لابن سَلَام الجمحي، وطبقات المفسِّرين للسَّيوطي والدَّاوودي، وبُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة للسَّيوطي، والفتح المبين في طبقات الأصوليِّين لعبد الله بن مصطفى المراغي، وكتاب القُضاة لأبي عمر الكِندي، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن

خلدون في كتابه: تاريخ العبر، وابن الجزري في كتابه: غاية النهاية في طبقات القراء، وابن حجر العسقلاني في كتابه: الدرر الكامنة، وكتابه رفع الإصر عن قضاة مصر، والسخاوي في كتابه: الضوء اللامع، وجلال الدين السيوطي في كتابه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، بل أفرد لترجمته كتاباً سمّاه: التحدث بنعمة الله، والشوكاني في كتابه: البدر الطالع، وصديق حسن خان في كتابه: أبجد العلوم، ورفاعة الطهطاوي في كتابه: تليخيص الإبريز في تلخيص باريز، وأحمد فارس السدياق في كتابه: الساق على الساق فيما هو الفاريق، وطه حسين في كتابه: الأيام، والعقاد في عدة كتب، والسيد محمد رشيد رضا، والبيطار، وعبد الحى الكنوي، ومحمد الحنجوي الثعالبي في كتابه: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، والسيد عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه: سبيل التوفيق، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن جبرين، وغيرهم، وهو كثير يصعب حصرهم والإحاطة بهم، وهو ما يُعرف في وقتنا بالسير الذاتية أو المذكرات التي يصدرها شخص ما عن نفسه.

وممن ترجم لنفسه شيخنا سماحة القاضي إبراهيم بن عبد اللطيف السعد المالكي رحمه الله تعالى، وكان رحمه الله يودّني ويقرّبني، وكنت إذا حضرت مجلسه أسأله في كل مرة عن جانب

الحنبلي، ومناقب سيّدنا الإمام مالك للزّواوي، وتزيين الممالك بمناقب الإمام مالك للسيوطي، ومناقب الإمام الشافعي لابن أبي حاتم والبيهقي، وتوالي التّائيس بمعالي ابن إدريس لابن حجر، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، إلى غير ذلك من أنواع كتب التراجم، والكتب في ذلك كثيرة متناثرة، والمخطوط منها أكثر من المطبوع.

ومن هذا القسم الأخير أيضاً - الترجمة لإمام معين - أن يترجم الشخص لنفسه، وهذا فنٌّ من الفنون في كتابة التراجم، ولا شك بأنّ ترجمة الإنسان لنفسه تكون أصدق التراجم وأضبطها وأوثقها، وهي المرجع الأساسي لمعرفة سيرته وجوانب حياته، لأنّ الإنسان أعرف من غيره بنفسه، وأضبط لجوانب حياته من غيره، فتراجم الآخرين في الغالب قد يعثر فيها نقص وخطأ، أو خفاء ووهم، أو ربما مبالغة في جانب من الجوانب، ولذا يقول الدكتور جونسون الأديب الإنجليزي: «إنّ حياة الرّجل حين يكتبها بقلمه هي أصدق ما يكتب عنه».

فمن العلماء من ترجم لنفسه، إمّا في ضمن كتاب أو بمصنّف مستقلّ، فممن ترجم لنفسه: الإمام عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه: لفتة الكبد، والعماد الأصفهاني في كتابه: البرق الشّامي، وأبو شامة المقدسي في كتابه: ذيل كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، والذهبي في كتابه: معجم المختص بالمحدثين، وابن

[النشأة والمسيرة العلمية :]



الشيخ القاضي عبد اللطيف السَّعد

ولما بلغ سنَّ التَّمييز ألحقه والده بمعلِّم القرآن الكريم المطوَّع عثمان بن أحمد، فختم عنده القرآن قراءةً، ثُمَّ أُدخل المدرسة الشَّرقيَّة الابتدائية، فتعلَّم فيها مبادئ الكتابة، والقراءة، والحساب، واللُّغة الإنجليزيَّة، والعلوم المختلفة، وكان يدرس على يد والده كتاب «العِزَّة» في الفقه المالكي، وكان يدرس معه في هذه المدرسة الإخوة مصطفى فقيهي، وغازي عبدالرحمن القصيبي، الذي توفي في رمضان ١٤٣١ هجري، وعبدالقادر وإسحاق (توفاه الله) أبناء الشيخ قاسم عبد الجبَّار خنجي، وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية، التحق بالمدرسة الثانويَّة بالقُضييَّة، وكان المدرِّسون من جمهورية مصر العربيَّة، وترك الدِّراسة في هذه المدرسة سنة ١٩٥٧ م، بعد حصوله على شهادة الثاني الثانوي.

من حياته وسيرته، فأدوَّن على نحو ما أسمع، ثُمَّ إِنَّ الشَّيخ رحمه الله تعالى أعطاني ترجمته مكتوبة في ثلاث أوراق، بخط يده، ومع مرور الوقت كان واجباً عليَّ أن أوثِّق هذه التَّرجمة بنشرها، ولعلَّ من المناسب أن تنشر هذه التَّرجمة وهذه الوثيقة في هذه المجلة المباركة، لكي لا تصبح طيَّ النِّسيان، أو عرضة للضياع والإهمال.

وعلمي في هذه المقالة وضع صور الوثيقة، مع كتابتها ليسهل على القارئ، مع عنوان بعض الفقرات، ووضع صور لبعض الشَّخصيات، مع ترجمة بسيطة لكلٍّ من: القاضي عبد اللطيف السَّعد المالكي، والقاضي عمر القاضي الشَّافعي، والقاضي يوسف الصِّديقي الشَّافعي، والقاضي عبدالله الفضالة المالكي، والقاضي إبراهيم آل محمود الشَّافعي -رحمهم الله تعالى-، وذلك في آخر المقالة، قال رحمه الله تعالى:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلَاة والسَّلَام على أشرف المرسلين، سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[الاسم وتاريخ الولادة:]

ولد الشَّيخ إبراهيم بن الشَّيخ عبد اللطيف بن محمَّد آل سعد في فريق الفاضل، بمدينة المنامة، سنة ١٣٥٦ هجري، الموافق ١٩٣٨ م.

[أسعد أيام العمر:]

وكانت المواد التي تدرّس في معهد البعوث الإسلامية كثيرة ومتنوّعة ، منها على سبيل المثال: مادة الأدب ، والبلاغة ، والمنطق ، والفقه ، والحديث ، والتفسير ، وقواعد اللغة العربيّة ، وبعد إتمام الدراسة الثّانويّة في المعهد المذكور التحقت بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف سنة ١٩٦٠م ، وكان يسكن معي الشيخ عبد اللطيف بن محمود المحمود الذي التحق بالأزهر الشريف سنة ١٩٦٠م ، في شقّة بميدان الأزهر ، ثمّ سكن معنا الشّيخان الشّيخ عبدالله عبدالرحمن الشّنو (رحمه الله) ، والشيخ أحمد محمود المحمود ، وكانت تلك الأيام من أسعد أيام العمر ، لقد عشنا معاً في صفاء ومحبة ، وتعاون على البرّ والتقوى .

[التخرج من الأزهر:]

وكنت أستاذك دروسي في مسجد الحسين أثناء السّنة الدّراسيّة ، وآخر السّنة في جامع الأزهر استعداداً للامتحان في جميع المواد الأزهرية ، وأيضاً للشّفهي في جزء ونصف من القرآن الكريم المقرّر حفظه على كلّ طالب أزهري .

وكانت مدّة دراستي في معهد البعوث الإسلامية سبع سنوات ، وفي كلية الشريعة والقانون أربع سنوات ، وحصلت على ثلاث

[مرحلة التدريس والرحلة إلى]

[الأحساء:]

وقد عُيّن مُدرّساً في مدرسة الرّفاع الغربي الابتدائية ، وكان من تلاميذه جلالة الملك حمد [ابن عيسى آل خليفة]، ثمّ ذهب إلى الأحساء ودرس على يد الشّيخ مبارك بن عبد اللطيف المبارك (رحمه الله) (توفي سنة ١٤٠٤هـ) «أقرب المسالك» في فقه مذهب الإمام مالك ، وقواعد اللغة العربيّة ، مدّة شهر واحد .

[السفر إلى الأزهر:]

وفي صيف سنة ١٩٥٨م ذهب مع زميله السيّد علي السيّد عبدالرحمن الهاشمي إلى القاهرة مبتعثين من قبل إدارة الأوقاف السّنيّة في السّنة الأولى ، وبقية السّنوات من قبل وزارة التّربية والتّعليم ، والتحقا بمعهد البعوث الإسلامية بالقاهرة ، وقد سكنا معاً في شقّة بشارع بورسعيد الذي كان يسمّى بـ «شارع جامع البنات» ، مع الأخوين الشّيخ محمّد آل سعد (رحمه الله) ، والشيخ إبراهيم محمّد المحمود (رحمه الله) .

وفي السّنة المذكورة تخرّج من الأزهر الشريف الشّيخ يوسف بن أحمد الصّديقي الذي توفّي في رمضان ١٤٣١هـجري ، والشيخ أحمد ابن إبراهيم المطوّع ، والشيخ عبدالله بن ناصر الفضالة ، والشيخ راشد بن علي البوعينين - رحم الله تعالى الثلاثة ، وتغمّد الله برحمته الشّيخ يوسف ..



جلالة الملك -أيده الله- خلال زيارته لفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف آل سعد

١٩٩٩م نقلت إلى محكمة الاستئناف العليا الشرعية، وعُيِّنَ رئيساً فيها في عهد المغفور له بإذن الله الأمير عيسى [بن سلمان] آل خليفة، وعضواً في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وإلى الآن، وعضواً في المجلس الأعلى للقضاء في عهد الملك حمد [بن عيسى آل خليفة]، إلى غاية شهر سبتمبر ٢٠١٠م حيث تمّ تعيين الشيخ عدنان عبدالله القطان بدلاً مني .

بقلم / إبراهيم بن عبد اللطيف بن محمد آل سعد.

شهادات : ابتدائية، والثانوية، والشهادة العالية التي تعادل الليسانس .

[التدريس في المعهد الديني :]

وبعد التخرج سنة ١٩٦٩م عُيِّنَ مدرّساً في المعهد الديني بالبحورة، وكنت أدرّس لطلبة الإعدادي اللغة العربية، ولطلبة الثانوي الفقه على مذهب الإمام مالك، وكان من طلبتي النجباء : الشيخ أحمد مطلق الذواوي، والشيخ ثاني علي عيد، وعيسى أحمد المرزوقي.

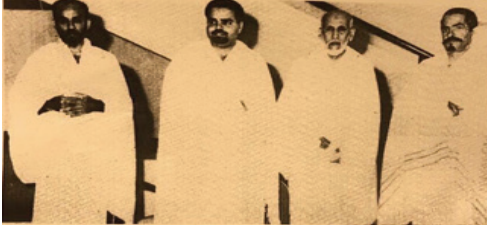
[تولي القضاء :]

تمّ تحريره في رمضان ١٤٣٢ هجري الموافق أكتوبر ٢٠١١م.

انتهى ما كتبه الشيخ رحمه الله تعالى، ونضيف نقطتين لتكتمل ترجمة الشيخ وهما :

وفي ١٢ مارس ١٩٧٢م عُيِّنَ قاضياً شرعياً في المحكمة الشرعية، وكان معي الشيخان الشيخ عبدالله [الفضالة]، والشيخ عمر القاضي، ثمّ عُيِّنَ رئيساً بالمحكمة المذكورة، وفي ١ مارس

المالكي : وكان والده عالمًا شافعيًا، رحل لطلب العلم إلى عدّة مدن كالإحساء والحجاز، تولّى القضاء سنة ١٣٤٥ هـ واعتزل سنة ١٣٨٤ هـ، توفي يوم الجمعة ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م).



سعد الشيخ محمد بن سلمان آل خليفة الثاني من اليسار - كما وقف على يساره فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل سعد رحمه الله القاضي بالمحكمة الشرعية سابقاً - ثم الشيخ محمد بن علي بن أحمد آل خليفة خال سعد الشيخ محمد - كما وقف على يمينه سعد فضيلة الشيخ يوسف بن أحمد المحمدي رئيس محكمة الاستئناف العليا - والقاضي بالمحكمة الشرعية سابقاً - والشيخ هادي مبرورين وراءه فضيلة الشيخ عامر ١٩٦٤ م.

ثانياً : الشيخ القاضي عبدالله بن ناصر الفضالة المالكي : تلقى تعليمه الديني في البحرين على يد الشيخ القاضي عبداللطيف بن علي الجودر المالكي، وعلى الشيخ محمد بن أبي بكر الملا بالإحساء، التحق بالأزهر وحصل على الإجازة العالمية سنة ١٩٥٨ م، وبعد رجوعه عمل مدرّساً، ثم عُيّن قاضياً شرعياً، تولّى الخطابة بجامع الشيخ حمد بالبحرق، ثم بجامع مدينة عيسى الجنوبي، توفي يوم الجمعة الموافق ٧ سبتمبر ١٩٩٠ م^(٢).

ثالثاً : الشيخ القاضي عمر عبد الوهاب القاضي بن عبد الرّحيم بن عبدالله الشافعي، المعروف بـ «الشيخ عمر القاضي» : ولد بفارس،

الإمامة والخطابة :

الشيخ رحمه الله لم يذكر شيئاً عن توليه الإمامة والخطابة : فقد تولّى الإمامة بمسجد السيّد عبدالجليل الطّباطبائي قبل ذهابه للدراسة بالأزهر، وبعد عودته تولّى إمامة مسجد الأمير سعد بن عامر، وكان ينوب في الإمامة والخطابة في جامع الفاضل عن أخيه الشيخ، ثمّ استمر وحده.

الوفاة :

توفي الشيخ إبراهيم رحمه الله تعالى يوم الاثنين ١٦ جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ الموافق ١٣ فبراير ٢٠١٧ م، ودفن بعد صلاة الطّهر بمقبرة المنامة، وكانت جنازته مهيبة مشهودة، حضرها القضاة والعلماء وطُلاب العلم والمسؤولون والوجهاء^(١).

ترجمة القضاة الواردة أسماؤهم في الترجمة

رأيت من المناسب ونحن نتكلّم عن شيخنا المرمي القاضي إبراهيم السّعد أن أترجم للقضاة الواردة أسماؤهم في التّرجمة، وقد رتّبهم حسب تاريخ الوفاة :

أولاً : الشيخ الفرضي القاضي عبداللطيف بن الشيخ محمد بن سعد بن علي بن حمود البقيشي

(١) يُنظر مقالة: رحيل سليل العلم وقاضي قضاة البحرين الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف آل سعد، إعداد الباحث: بدر بن شاهين الدوادي، جريدة الأيام اليومية، العدد (١٠١٧٦)، الجمعة ١٧ فبراير ٢٠١٧ م.

(٢) مقالة : ربع قرن على رحيل الشيخ القاضي عبدالله بن ناصر الفضالة، بقلم : أحمد الشيخ الفضالة.

جنوب مدينة الحدّ بالبحرين، درس أولاً على مشايخ البحرين، ثمّ رحل إلى الأحساء فأخذ عن الشيخ محمّد بن أبي بكر الملاّ الحنفي، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل عمير الشافعي، والشيخ عبدالعزيز آل عبيد الله الشافعي، ثمّ التحق بالأزهر الشريف ومكث بها خمس سنوات حتّى حصل على الإجازة العالية، وبعد رجوعه عُيّن إماماً وخطيباً ثمّ قاضياً، وكان آيةً في العلم والأدب والوقار، توفي في ١٥ / ٨ / ٢٠١٠ م^(٢).

خامساً: الشيخ القاضي إبراهيم بن الشيخ القاضي محمّد بن الشيخ القاضي محمود آل محمود: ولد في مدينة الحدّ في ١٦ شعبان عام ١٣٥٠ هـ، الموافق ٢٥ ديسمبر ١٩٣١ م، نشأ في بيت فضل وعلم، تعلّم في المدارس الحكومية، ثمّ انتقل إلى المعهد الديني، وفي سنة ١٩٥٠ م سافر إلى مكّة المكرمة فالتحق بمدرسة الفلاح، وبعدها إلى المعهد العلمي السعودي سنة ١٩٥٣ م، حصل على الإجازة العالية من الأزهر سنة ١٩٥٥ م، بعد رجوعه عُيّن مدرّساً بالمدارس الثانويّة الحكوميّة، وفي سنة ١٩٦٥ م انتقل إلى المعهد الديني مديراً له إلى سنة ١٩٨٦ م، وبعدها انتقل من المعهد إلى المحاكم الشرعيّة قاضياً، تولّى الخطابة بالمسجد الجامع بالحدّ نيابة عن والده، توفي يوم الأحد ٢١ رجب ١٤٣٦ هـ الموافق ١٠ مايو ٢٠١٥ م^(٣).

ودرس الابتدائيّة والثانويّة بفارس وفي العراق (البصرة)، ثمّ أتمّ دراسته بجامعة الأزهر، فحصل على الشّهادة العالية من كليّة الشريعة سنة ١٣٧٥ هـ الموافق ١٩٥٦ م، وحاز الشّهادة العالية مع الإجازة في القضاء سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٨ م، كما حصل على الشّهادة العالميّة مع الإجازة في التدريس سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ١٩٦٠ م، وبعدها حصل على الشّهادة العالميّة بدرجة أستاذ (الدكتوراه) في الأزهر أيضاً، عُيّن قاضياً بالبحرين، توفي سنة ٢٠٠٤ م^(١).



صورة نادرة لأصحاب الفضيلة من اليمين الشيخ عبد الله آل المبارك المعروف بالميمز والشيخ عمر القاضي والشيخ محمد بن عبد اللطيف السعد والشيخ خليفة السعد.

رابعاً: شيخنا العلامة القاضي الأديب يوسف ابن أحمد بن محمّد بن أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الرحمن الصديقي الشافعي: ولد سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ١٩١٩ م في قرية أمّ الشجر

(١) مقدمة كتابه: المصباح الوهاج).

(٢) مقالة: ورحل عالم البحرين وقاضيه: بقلم).

(٣) مقالة: رحيل سليل العلماء القاضي بن القاضي آل محمود: بقلم).



كيف ننشر السنة النبوية على وسائل التواصل الاجتماعي؟

د. سعد الله المحمدي

أهمية البحث:

وسائل التواصل الاجتماعي أو ما يسمّى بالإنجليزية (Social Media)، هي «تلك الوسائط الإلكترونية ذات الطابع التواصلي»^(١) التي يستخدمها عامة الناس الكبار والصغار والرجال والنساء على السواء، للتواصل والتفاعل، ونقل الأفكار والمعلومات فيما بينهم، وتعتبر من أهم منجزات الثورة الإلكترونية في القرن الحادي والعشرين، ومن أكثر الوسائل استخداماً من قبل الإنسان المعاصر.

النهاية للمطبوعات الورقية من الكتب والجرائد والمجلات فتُصبح جزءاً من الماضي.

وقد جعلت شبكات ووسائل التواصل الاجتماعي من العالم قرية صغيرة جداً لا تباعد بين أقطارها، يتواصل فيها البشر بعضهم مع البعض، في كل مجالات التواصل البشري من التعليم والتسويق وتبادل المعلومات والخبرات ومعرفة الأسعار ومتابعة الأسفار، والأحداث والأخبار أولاً بأول، وتكوين مجموعات ونقابات واتحادات، وعمل دعايات وحملات قوية مؤثرة في العصر الحديث.

ولاشك أن هناك مساحات واسعة.. وفرصاً كبيرة بهذه المواقع يمكن الاستفادة منها في خدمة السنة النبوية التي هي الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي، وهو الوحي الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

وسُمّيت هذه الوسائل بـ (الاجتماعية) لما تتيحه من إمكانية «بناء مجتمعات» لذوي الاهتمامات المشتركة للتواصل فيما بينهم على مدار الساعة.. دون تكاليف تذكر، أو حدود تمنع، أو حواجز تحدّد الإبداع، وتعيّق الإنتاج، فالكلّ يشارك حسب رؤيته، ووجهة نظره، ويغرّد من منطلق فهمه وعقله، ويتفاعل مع الآخرين ويشاركهم المحتوى الرقمي متخطياً المسافات والحدود الجغرافية.

وحسب التقارير الصادرة من جهات الاختصاص فإن وسائل التواصل الاجتماعي، أو الوسائط الرقمية (Digital) صعدت منصة التواصل بين الناس خصوصاً في دول مجلس التعاون الخليجي، كما أنها أضعفت كثيراً من أشكال التواصل التقليدية، حيث خلفت وراءها الجرائد، وتقدّمت على الإذاعة، وتخطت التلفزيون والمحطات الإخبارية في التغطية وسرعة نقل الحدث، وكادت أن تضع نقطة

(١) لورا كوين، وسائل التواصل الاجتماعي والمؤسسات الخيرية، منشور بشكل ملخص من قبل المركز الدولي للأبحاث والدراسات، مداد، السعودية، العدد ١ رمضان ١٤٣٦ هـ يونيو ٢٠١٥ م ص: ٣.

ويستيقظون على هذه التقنية فيعيشون في عالم التواصل الاجتماعي مع الصداقات الافتراضية والوهمية، فيفرون ويسرون، ويستأنسون ويفتخرون بالإعجابات والتعليقات وكثرة المتابعين دون مراعاة لمنهج خاص أو وقت محدد أو تنظيم لاستخدامها^(٢)، هذا من جانب.

٢. ومن جانب آخر فإننا نلاحظ سهولة الوصول إلى هذه الوسائل في أي وقت ومن أي مكان، كما يلاحظ انتشار مواقع وحسابات معادية للسنة النبوية أو التشكيك فيها من قبل المارقين والمتحليين وغيرهم، مما يوجب على أهل العلم التعرف إلى هذه التقنية وآليات استخدامها في مجالات خدمة السنة النبوية والدفاع عنها والوقوف في وجه مناورتيها وأعدائها.

٣. لاحظنا قلة الدراسات المتخصصة في مجال استخدام هذه الوسائل لخدمة السنة النبوية وكيفية استثمارها والاستفادة من عالمها الرقمي، فكانت دراستي هذه بمثابة شمعة تضيء الطريق أمام الراغبين في خدمة السنة النبوية عبر وسائل التواصل الاجتماعي بوضع خطة نظرية وتطبيقية شاملة للتعامل

كما أن السنة هي ميراث النبي ﷺ.. والتطبيق العملي لما جاء به القرآن الكريم، وعلمها أشرف العلوم بعد كتاب الله، ويظهر مدى اهتمام الأمة بالسنة النبوية منذ بزوغ شمس الإسلام من خلال حرص الصحابة والتابعين رضي الله عنهم على تلقي السنة بالقبول والطاعة والحب والإيمان.. وسعيهم الحثيث في أخذها.. ورحلاتهم الطويلة في سبيلها.. واهتمامهم البالغ على تطبيقها في حياتهم والعمل بها.. وملازمتهم المستمرة لمجالس الحديث الشريف.

ومن هنا كان هذا الموضوع في غاية الأهمية لعلاقته المباشرة بأشرف العلوم بعد كتاب الله وهو الحديث الشريف تعلماً وتعليماً.. وضبطاً وحفظاً.. وطلباً ونشراً.. وقولاً وعملاً، ونشرها على الفضاء التفاعلي لوسائل التواصل الاجتماعي^(١).

مُشْكِلَةُ الْبَحْثِ:

١. مما لا يختلف فيه اثنان أن ثورة الاتصالات الحديثة أثرت على جوانب كثيرة من الحياة اليومية فأصبحت وسائل التواصل الاجتماعي جزءاً من روتين الحياة لعدد كبير من البشر لدرجة أن الكثيرين ينامون

(١) دور وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة السنة النبوية، مقال للباحث منشور بجريدة أخبار الخليج، عدد ١٤٠٩١ يوم الجمعة ٢٠ محرم ١٤٣٨هـ الموافق ٢١ أكتوبر ٢٠١٦م.

(٢) انظر مقال: ظاهرة سوء استخدام الهواتف الذكية، بقلم د. سعد الله المحمدي، جريدة أخبار الخليج، البحرين، العدد: ١٣١٢٩، بتاريخ ٤ مارس ٢٠١٤، ص: ٢٥.

هُوَ السُّنَّةُ، ولا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخِرِ» كما قَالَ الإمامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَرْهَارِيِّ (ت ٣٢٩هـ) فِي كِتَابِهِ شَرْحُ السُّنَّةِ ^(١).

مع أهمّ مواقع التواصل الاجتماعي، والوصول إلى أبرز النتائج التي سيكون لها أثر في هذا المجال بإذن الله تعالى.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث بعون الله تعالى وتوفيقه إلى تحقيق الأهداف الآتية:

أ- خِدْمَةُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بِوَضْعِ تَصَوُّرَاتٍ شَامِلَةٍ وَأَلْيَاتٍ وَاضِحَةٍ لِنَشْرِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَخِدْمَتِهَا عِبْرَ شَبَكَاتِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِإِتْقَانٍ وَإِبْدَاعٍ وَتَمَيُّزٍ وَابْتِكَارٍ.

ب- اسْتِغْلَالُ التَّقْنِيَةِ الْحَدِيثَةِ وَالْفَضَاءِ الْإِلِكْتُرُونِيِّ فِي تَحْيِيْبِ سُنَّةِ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ، بِاسْتِهْدَافِ مُخْتَلَفِ شَرَائِحِ الْمَجْتَمَعِ وَتَقْرِيْبِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِيصَالِهَا لَهُمْ فِي مَكَاتِبِهِمْ وَأَمَاكِنِ عَمَلِهِمْ وَحُلَّتِهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ وَحَتَّى فِي غُرَفِ نَوْمِهِمْ وَضَمَنِ أَلْعَابِ أَطْفَالِهِمْ بِأَسْلُوبِ مَدْرُوسٍ وَمَيَّسَرٍ وَمَحْبُوبٍ، مِنْ بَابِ «التَّوْظِيفِ الصَّحِيحِ لِلتَّكْنُولُوجِيَا فِي الْمَجَالِ الصَّحِيحِ».

ج- إِبْرَازَ مَعَالِمِ الرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَمَعَانِي الرَّأْفَةِ وَالرَّفْقِ وَاللِّينِ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ خِلَالِ نَشْرِ السُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ عَلَى مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، «لَأَنَّ السُّنَّةَ هِيَ الْإِسْلَامُ وَالْإِسْلَامُ

د- التَّعَرُّفُ إِلَى أَوْجِهٍ وَطُرُقٍ وَأَلْيَاتٍ اسْتِخْدَامِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي خِدْمَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى الْإِيجَابِيَّاتِ وَالسَّلْبِيَّاتِ لِهَذِهِ التَّقْنِيَةِ، وَوَضْعِ تَصَوُّرٍ لِلْغَلْبَةِ عَلَى سَلْبِيَّاتِ الْاسْتِخْدَامِ الرَّقْمِيِّ فِي مَجَالِ خِدْمَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

هـ- وَضْعُ خُطَّةٍ عَمَلِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ لِنَشْرِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ بِهَذِهِ الْوَسَائِلِ مِنْ مَرَحَلَةِ الْاِنْتِقَاءِ وَالتَّصْمِيمِ وَالْإِشْرَافِ، حَتَّى النُّشْرِ وَالْمَتَابَعَةِ وَالتَّقْيِيمِ وَالتَّنَاجُجِ، وَهِيَ مَا تَسْمَى بِالْمَحْتَوَى، وَإِدَارَةِ الْمَحْتَوَى، وَعَرْضِ الْمَحْتَوَى فِي الْإِلْعَامِ الْإِلِكْتُرُونِيِّ.

و- الْوَصُولُ إِلَى تَوْصِيَّاتٍ وَنَتَائِجٍ مِيْدَانِيَّةٍ تُمْكِّنُ الْبَاحِثِينَ مِنْ خِدْمَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ عِبْرَ التَّقْنِيَةِ الْحَدِيثَةِ بِشَكْلِ مَنْظَمٍ وَبِجَهْدٍ أَقْلٍ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، مُوََاكِبَةً لِلتَّحَوُّلِ الرَّقْمِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَجَهُّ نَحْوَهُ الْعَالَمُ بِخُطُوطٍ سَرِيعَةٍ، فَحَسَبَ الدِّرَاسَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةَ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيُّ نَشَاطٍ غَيْرِ رَقْمِيٍّ، مِنْ الْكُتُبِ وَالصَّحُفِ وَغَيْرِهَا، وَأَنَّ ٨٠٪ مِنَ الْجَامِعَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةِ لَنْ تَكُونَ بِهَا دُرُوسٌ تَقْلِيدِيَّةٌ بِحُلُولِ ٢٠٢٠م مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْنَا الْعَنَاءَ بِالتَّحَوُّلِ التَّقْنِيِّ ^(٢).

(١) شرح السنة، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البرهاري، تحقيق خالد بن قاسم الرادادي، الطبعة السادسة ١٤٢٦هـ ٢٠١٥م، الناشر: دار الصميعي للنشر، الرياض، ص: ٥٩.

(٢) من الكلمة الافتتاحية، للدكتور طلال أبوغزالة، المؤسس والرئيس لمجموعة طلال أبوغزالة، في مؤتمر ومعرض الإبداع التقني

كما يقول الكاتب الكولومبي (الفارو موتيس)^(١)

ويشترط في خطة النشر أو التسويق الإلكتروني^(٢) أن تكون مرنة قابلة للتعديل والتحسين والتطوير، وأن تكون الرؤية والرسالة واضحة لكل فريق العمل حيث إن ذلك من أساسيات النجاح في الوصول إلى الأهداف المرسومة بإذن الله تعالى، كما يشترط فيها أن تكون شاملة لحصر كل القنوات التسويقية وتصنيفها على حسب الأولوية في المنطقة التي ينطلق منها المشروع.

ثانياً: الإدراك والوعي (التنظيم):

وهي مرحلة جذب انتباه الناس، وربطهم بالمشروع عبر مختلف المنابر العلمية والقنوات الإعلامية، ببيان أن الحديث الشريف هو الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام، والتركيز على حجّيته، وبيان شرف أصحابه وفضلهم، ووجوب التمسك بالسنة النبوية والعص عليها بالنواجذ، وأن الله تعالى أنزل مع القرآن وحياً غير متلو، وهو السنة أوحاه الله إلى نبيه ﷺ لإكمال الرسالة وتمام البلاغ، وبما أن الصورة

الخطة العملية لنشر السنة النبوية على وسائل التواصل الاجتماعي:

أولاً: الأهداف والمستهدفات (التهدف)

إذا أردنا وضع خطة عملية لنشر السنة النبوية على فضاء وسائل التواصل الاجتماعي فلا بد لنا أولاً من تحديد هدفنا من وراء ذلك بدقة عالية.. حتى تسير الرحلة بوضوح تام.. فمثلاً ماذا يمكن أن يكون هدفنا من نشر السنة على وسائل التواصل الاجتماعي؟ هل هو هدف دعوي أم تعليمي؟ ومن هم الفئات المستهدفة والجمهور؟ وما مدى نفع هذه الوسائل وأهميتها؟ وما هي الأدوات المناسبة لتحقيق أهدافنا؟ وغير ذلك من الأمور التي هي من مقومات نجاح الخطة، ويعني ذلك تحديد الهدف بوضوح.. والتركيز وتسلط الأضواء عليه.. وربطه بزمن محدد.. والتعرف إلى الطرق والأدوات الموصلة إليه.. من خلال وضع إستراتيجية خاصة.. مع التنبيه للعوائق والمشاكل المحتملة.. لأن الهدف الذي نسعى إليه دون تقدير للعقبات، ودون خوف من المخاطر، هو هدف لا يمكن الوصول إليه مطلقاً

في العمل الخيري، بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠١٦ بفندق آرت روتانا، جزر أمواج، مملكة البحرين.

(١) انظر مقال: تحديد الهدف خطوة نحو النجاح، بقلم د. سعد الله المحمدي، جريدة أخبار الخليج، البحرين، العدد: ١٣٧٦٩، بتاريخ ٤ ديسمبر ٢٠١٥، ص: ١٣.

(٢) التسويق الإلكتروني هو عملية تطبيق المبادئ العامة لعلم التسويق من خلال استخدام الوسائط الإلكترونية وبشكل أكثر خصوصية وأكثر استهدافاً. ويعرف بأنه «استخدام تكنولوجيا المعلومات للربط الفاعل بين الوظائف التي يوفرها البائعون والمشترون» انظر: التسويق، مفاهيم معاصرة، د. نظام موسى سويدان، ود. شفيق إبراهيم حداد، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص: ٣٧٣.

٥. عمل دعايات تلفزيونية، وعلى وسائل الإعلام المقروءة حول إحياء السنن المهجورة، بشكل يثير الاهتمام ويلفت الانتباه.
٦. استخدام شاشات المساجد، والشاشات المتحركة في المواقع الحيوية، وشاشات الإعلانات في أماكن الانتظار بالمراكز الصحية، وشاشات النقل العام لنشر السنن والأخلاق النبوية، والتنوع في اختيار المادة، ومحاولة ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية.
٧. عمل برامج ولقاءات على إذاعة وقناة القرآن الكريم، وترتيب لقاءات للجنة التنفيذية للمشروع ضمن البرامج التلفزيونية للتحديث عن المشروع.
٨. عمل مكتبة متنقلة في سيارة تشمل على مادة منتقاة تلائم مستوى وذوق مختلف فئات المجتمع من الشباب والأطفال وكبار السن، ووضع خطة لنقل وإرسال هذه المكتبة إلى الحدائق العامة، والمجمعات التجارية الكبيرة، والأسواق التراثية والمعارض وغيرها.
٩. يراعي في عملية الإدراك أو الوعي أو التنظيم استخدام كافة أساليب الإقناع من وضوح الأهداف ونتائجها، ودعم الرسائل الإقناعية بتقديم أدلة وشواهد ومعلومات واقعية، والاستخدام الأمثل لوسائل
- الذهنية لا تكتمل مرة واحدة، لذا تشتد الحاجة في هذه المرحلة إلى الخطوات الآتية:
١. توعية الناس بمكانة السنة في الإسلام وحجيتها وضرورة الالتزام بها من خلال خطب الجمعة، وإلقاء الكلمات في المجالس العامة، والمعاهد الشرعية، والمدارس التابعة لوزارة التربية، والمدارس الخاصة، ونوادي الشباب، والأندية الثقافية وغيرها بأسلوب مؤثر.
٢. إقامة حملات ترويجية في الأسواق الكبيرة، والمجمعات التجارية، وصلات الاستقبال والمغادرين بالمطارات للتعريف بالسنة النبوية وسهولتها ويسرها وعنايتها على اليسر والبشر، والوفاء بالعهد، وحسن التعامل، وحماية المظلوم، واحترام الكبير وذي الشبهة والعدل في الأحكام والرحمة على الخلق.
٣. تصميم مواقع على الشبكة الدولية، وتطبيقات خاصة على الأجهزة الذكية، لإحياء السنة بين الناس، وربط مواقع التواصل الاجتماعي بالموقع الرئيسي.
٤. جذب الناس إلى السنة بتطبيقها شخصيا في الحياة اليومية من خلال حسن التعامل والجوار ولطف الكلمة واللين والرفق وبشاشة الوجه والسهولة في البيع والشراء.

الاتصال الجماهيرية^(١).

الجار، فضل صلاة الجماعة وغيرها، ومن صفات المحتوى الناجح في العمل الإعلامي: الموضوعية، المصداقية، العمق.

٣. يراعي في اختيار الأحاديث ملاءمتها للوضع والوقت، فمثلاً في شهر رمضان المبارك يكون التركيز على أحاديث: فضل القرآن الكريم، أحكام الصيام، قيام الليل، العشر الأواخر، زكاة الفطر، أحكام العيد، وكذلك في عشر ذي الحجة والمواسم الإسلامية.

٤. يتم اختيار عنوان مختصر خاص لكل حديث، أو اختيار عنوان عام وتصميم موحد لكل مرحلة، مثلاً: من نور السنة، من هدي السنة، من أنوار الحديث، ضياء السنة، ويكتب العنوان بشكل هاشتاك #من_نور_السنة حتى يمكن الرجوع لبقية الأحاديث عند البحث عن الهاشتاق، ومن أهم شروط إدارة المحتوى هي: التصنيف، التحرير، التدقيق اللغوي، المراجعة العلمية، مراعاة الذوق الفني.

٥. يشترط في العنوان الرئيسي أن يكون متقناً بعناية خاصة لجذب الانتباه والاهتمام، ويفضل أن يكون العنوان الرئيسي مدروساً لمخاطبة الجمهور المستهدف بالذات،

١٠. العناية بعمل قواعد بيانات خاصة بالمشروع تشمل على بيانات المحدثين، وكتب الحديث، الأحاديث المنشورة، وغيرها يمكن الرجوع إليها عند الحاجة.

١١. إعداد القصص الواقعية Story Think لحفظ الحديث، وطلابه، ومشاركة تجاربهم مع الآخرين، فربما أثرت قصة في تغيير حياة شخص وجعلته من المهتمين بهذا العلم الشريف.

ثالثاً: المحتوى وإدارة المحتوى (التنفيذ):

١. اختيار فريق عمل رسمي (مشرف شرعي، إداري، مصمم، متخصص في الشبكة) إضافة إلى المتطوعين، والعمل بروح فريق عمل واحد، وعدم الاكتفاء بالمتطوعين والعمل الفردي فقط في مثل هذا المشروع الذي يكبر من أن يقوم به شخص بجهد فردي الذي يتعرض للتوقف والامتناع.

٢. انتقاء مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة في أبواب خاصة مثل: الصدقة، الصدق، العدل، الإحسان إلى الآخرين، صلة الرحم، المؤاخاة، الإيثار، حقوق

(١) الاتصال ونظرياته المعاصرة، د. حسن عماد مكاي، ود. ليلي حسين السيد، الطبعة الثانية ٢٠٠١م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص: ١٩٣-١٩٨.

نهاية العمل الفني ويشتمل على معلومات التواصل مع المشروع، مع كلمات مختصرة لاتخاذ القرار مثل #شاركنا_في_نشر_السنة.

١٠. يفضل مراعاة اللمسة البصرية في كل الأعمال من ناحية توحيد الخط، وحجمه، ونوعيته، ومدى وضوحه، وملاءمته للبصر حتى تكون بمثابة علامة تجارية خاصة بالمشروع.

رابعاً: النشر والمتابعة. (التسويق والتقييم).

١. يجب أن يكون نشر الحديث الشريف بطرق ابتكارية منضبطة، ويتطلب ذلك معرفة البيئة الجغرافية، وقدرات التعلم لدى الفئة المستهدفة، وتقديم المادة المناسبة بطريقة مشوقة لإقبال الناس عليها؛ إذ يرون فيها حلاً لمشاكلهم إضافة إلى العناية بالجوانب الفنية للمادة من تحرير وفن وتصميم وإخراج^(١).

٢. النشر الإلكتروني ليس مجرد تغريدات على الشبكات الاجتماعية فقط، بل لابد من وضع سياسة للنشر حيث تساعد ذلك على تجنب الأخطاء.

٣. يتم اختيار أوقات مناسبة للنشر، وهي أوقات الذروة، فكل موسم له أوقاته،

ومتصفاً بالسهولة والابتكار، ويمكن أن يكون بصيغة سؤال مثلاً:

هل تريد أن تحصل على أجر الصيام مرتين؟
(كعنوان لحديث حول فضل إفطار الصائم).

هل ترغب في مرافقة المصطفى ﷺ في الجنة؟
(كعنوان لحديث حول فضل كفالة اليتيم).

٦. يحذف الأسانيد الطويلة من الحديث ويكتفي بـ قال رسول الله ﷺ فقط، أو سئل رسول الله ﷺ، وغيرها من العبارات التي تناسب المقام.

٧. يكون الاهتمام والتركيز بنشر الأحاديث الصحيحة والمختصرة حتى تكون أدعى للحفظ والنشر، ويكتفى في نهاية الحديث بالمصدر: اسم الكتاب ورقم الصفحة فقط، ويكتب اسم الكتاب في هاشتاك مثل #صحیح البخاري لربط الناس بكتب الأحاديث الشريفة.

٨. يتم تصميم العمل الفني بخلفية مناسبة لمحتوى الحديث، ويمكن أن تكون هناك خلفية خاصة لكل موسم أو كل شهر أو كل حملة مثلاً.

٩. يفضل وضع الشريط الختامي أو السفلي في

(١) الترويج والإعلان التجاري، أسس، نظريات، تطبيقات، د. بشير عباس العلاق، وأ. علي محمد ربابعة، الناشر: دار اليازوري للنشر والتوزيع، الطبعة العربية ٢٠١٠م، عمان، الأردن، ص: ٢٨٤-٢٨٦.

٦. يفضل نشر العمل الفني للحديث الشريف على كل وسائل التواصل الاجتماعي مثل: التويتر، الفيس بوك، الانستغرام، التليغرام، جوجل بلس، والواتساب، واليوتيوب، وعبر منتديات ومجموعات خاصة، ويمكن الربط بين مجموعة من هذه الوسائل بعضها ببعض بحيث لو تم نشر المادة على وسيلة من هذه الوسائل تنشر آلياً على المجموعات الأخرى عند المشاركة.

٧. يلزم تخصيص ميزانية للمشروع، وتعيين مشرف شرعي أو لجنة علمية لاختيار وانتقاء المادة، وتوظيف مصمم صاحب ذوق وخبرة في التصميم، وشخص محترف في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، لاختيار أنسب الأوقات للنشر، واختيار هاشتاقات مناسبة، وتحديد البيئة المستهدفة وغيرها من الأمور المهمة في خطة النشر.

٨. يفضل نشر بعض الأحاديث بشكل إعلانات مدفوعة على وسائل التواصل الاجتماعي «اليوتيوب، الانستغرام، الفيس بوك» بحيث يصل إلى المستخدمين في بيئة جغرافية محددة، وذلك تعريفاً بالمشروع،

فأوقات الذروة في رمضان مثلاً: قبل الإفطار، وقبل السحور، ويزداد عدد مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي في بعض الدول العربية ومنها مملكة البحرين بنسبة ٣٠٪ من عامة الأوقات وهذا حسب الدراسات الميدانية.

٤. يتم استخدام وسيلة نشر مناسبة لكل بيئة جغرافية، فمثلاً المملكة العربية السعودية مقدمة على غيرها من الدول في مجال المستخدمين النشطين على موقع (التويتر) عالمياً،^(١) بينما جمهورية مصر العربية أكثر استخداماً للفيس بوك من بين الدول العربية^(٢).

٥. يتم اختيار البيئة الجغرافية المستهدفة فمثلاً إذا كانت هناك أحاديث مترجمة إلى اللغة الأسبانية، فهذه الأحاديث نختار لها عند النشر هاشتاق يناسب الناطقين بالإسبانية أو هاشتاق يصل إلى الترندينغ ما لم يكن مخالفاً للإسلام مثل أسماء المدن، أو أهم الألعاب وغيرها: Spain# Spanish# Madrid# .

(١) هناك دراسة أجراها قسم الإحصائيات في موقع «بيزنس إنسايدر» بشأن أكثر الدول استخداماً للتويتر من بين مستخدمي الإنترنت، فجاءت السعودية في المرتبة الأولى حيث حصلت على نسبة ٤١٪ وتوقت على الولايات المتحدة حيث بلغت نسبة مستخدمي تويتر فيها ٢٣٪ من مستخدمي الإنترنت، والصين التي بلغت النسبة فيها نحو ١٩٪ فقط. انظر: الجزيرة.نت. <http://www.aljazeera.net>

(٢) موقع اليوم السابع مصر: <http://www.youm7.com>

على توحيد اللمسة البصرية للأعمال الفنية.

١٣. إنشاء مواقع خاصة بالسنة النبوية على الفيسبوك، والتويتر، والانستغرام، واليوتيوب مع مراعاة (توحيد اسم المستخدم) أو الاسم الموحد، يمكن من خلالها نشر سنة المصطفى ﷺ بشكل مقاطع فيديو، وصور، وتغريدات، حيث تكون هناك مساحات للتعليق والمشاركة وإبداء الرأي بمختلف اللغات.

١٤. عمل مجموعات لنشر السنة على الفيس بوك والتويتر والواتساب والتليغرام، والانضمام إلى مجموعات خاصة ومهتمة بنشر الحديث والتعاون الداخلي بين المجموعات لنشر السنة.

١٥. إعداد مقاطع مؤثرة ومختصرة ومركزة لبعض أهل العلم وتحميلها على موقع اليوتيوب ونشرها عبر الرابط في التويتر وغيره.

١٦. إعداد مقاطع صوتية للنشر عبر إذاعة القرآن الكريم، وإعداد بعض الكتب الحديثية بشكل الكتاب المسموع حتى يسهل الاستماع إليه في السيارة والعمل والبيت، ويراعى في ذلك الاهتمام بجانب التشويق وجذب الانتباه المطلوب، من خلال إضافة المؤثرات الصوتية المميزة، أو غير ذلك مما يجعل المستمع مركزاً على المادة.

وإيضاً لرسالة الحديث الشريف إلى أكبر عدد ممكن من المتابعين والجماهير، وبهذا الشكل يصل الحديث الشريف إلى أكبر عدد من المستخدمين بشكل يومي وبتكلفة أقل، كما يزداد عدد المتابعين مع هذه الحركة بشكل كبير.

٩. إنشاء حسابات مساعدة، تقوم بإعادة تغريدة في التويتر أو الريتويت Retweet أو إعادة نشر صورة في انستغرام أو الريبوست Repost أو إعادة نشر مادة في التليغرام أو Regram حتى تصل المادة إلى أكبر عدد من المستهدفين.

١٠. عمل حسابات مستقلة للصغار من البنين والبنات باختيار مادة تناسب أعمارهم ومستواهم العلمي والمعرفي مع اختيار تصاميم تلائم ذوقهم، تحبباً للسنة إليهم، ونشر بعض الآداب المستنبطة من السنة النبوية في أوساط الأطفال عن طريق هذه الحسابات بشكل سهل وأسلوب مشوق.

١١. الاستفادة من خاصية البث المباشر في الدروس العلمية الحديثية، ونشر الرابط في المنتديات ومجموعات الواتساب وغير ذلك.

١٢. عمل تطبيقات تفاعلية خاصة في السنة النبوية لأجهزة أبل وسامسونج، مصممة عن طريق شركات احترافية، مع الاحتفاظ

٢١. عدم نشر الفيديوهات الدعوية الطويلة على هذه الشبكات ما عدى اليوتيوب فإنها غير مجدية، وتسبب تقليل التفاعل أو التحويلات^(٢) conversions مع الحساب.

أهم نتائج وتوصيات البحث:

أولاً: النتائج:

١. شبكات التواصل الاجتماعي شبكات عالمية مفتوحة تخطت الإعلام التقليدي ومتوفرة للجميع، أصبح المستخدم فيها من مستقبل إلى مشارك ومتج ومحلل، لذا تجدر العناية والاهتمام بها واستخدامها في مجال السنة النبوية.
٢. ضرورة توعية المسلمين بأهمية السنة النبوية من خلال لقاءات ودروس ومحاضرات وعمل برامج تلفزيونية وإذاعية، وحملات على وسائل الإعلام التقليدية والجديدة.
٣. ترشيد الطاقات الحديثة والجهود الشبابية لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة السنة ونشرها والتصدي للأحاديث الموضوعة والمنتشرة على الشبكة بعلم وبحث ودراية.

١٧. التركيز على التسويق التأثيري (Influence Marketing) في النشر، حيث يتم التنسيق مع الأفراد المؤثرين في مواقع التواصل الاجتماعي الذين يستطيعون تحريك الجمهور بشكل كبير، وتوجيه الرسائل الناجحة عن طريقهم إلى الجمهور المستهدف. «وتشير بعض الدراسات على أن أكثر من ٦٠٪ من الشركات التي رصدت ميزانيات للتسويق الرقمي خصصتها للتسويق عن طريق المؤثرين في مواقع التواصل الاجتماعي»^(١).

١٨. وضع أيقونات مشاركة المادة مع الأصدقاء عبر مختلف وسائل التواصل الاجتماعي. (الواتساب، التليغرام، التويتر، الفيس بوك).

١٩. الاعتناء بتعديل شكل الموقع الإلكتروني الرئيسي ومنصات التواصل الاجتماعي من ناحية التصميم واستخدام الألوان والخيارات بعد كل فترة لأن ذلك أدعى للقبول وزيادة التفاعل.

٢٠. عمل حملات تسويقية احترافية على هذه الشبكات ودراسة الإحصائيات لكل حملة بعد الانتهاء منها واستخلاص القرارات التسويقية منها للاستفادة منها في الحملات القادمة.

(١) التسويق التأثيري باستخدام قنوات التواصل الاجتماعي (١-٢) (مقال) حاتم كاملي، على موقع: <http://www.arageek.com>

(٢) التحويلات مصطلح يطلق الأعمال التي ترغب أن يقوم بها الشخص من تطبيقك، مثل: الشراء، الاشتراك، تحميل الملف، تعبئة نموذج، المشاركة في استفتاء وغيرها (الباحث).

٤. تضررت اللغة العربية الفصحى من استخدام هذه الوسائل حيث طغت المصطلحات الخاصة بهذه الوسائل وهي باللغة الإنجليزية على اللغة العربية وكان المفروض أن تقوم مجامع اللغة العربية بترجمة هذه المصطلحات الجديدة إلى اللغة العربية وتدعو الناس إلى الالتزام بها.
٥. العناية بتكوين مجتمع إلكتروني مهتم بالحديث الشريف، ووضع استمارات التطوع لهذا الغرض على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).
٦. لابد من تفعيل عنصر التحديث والمتابعة لمواقع التواصل الاجتماعي ومواكبة الحدث، ونشر القصص الخاصة بحفظ الحديث، والرد على أسئلة المتابعين واستفساراتهم، والتعامل الراقي معهم في الرد، والعناية بنشر المقاطع المؤثرة، والتصاميم الفنية الخاصة بالمشروع.
٧. تدريب فريق عمل احترافي لنشر السنة، وعدم الاكتفاء بالخبرة الذاتية في مجال استخدام هذه الوسائل، ووضع خطة إعلامية لسنة كاملة مع الميزانية واعتمادها من جهات الاختصاص، والسير بمقتضاها، والتعديل في الخطة إذا دعت الحاجة، وتعيين عدد من المشرفين والمتطوعين للإشراف على المشروع.
٨. تقييم العمل بواسطة لجنة علمية إشرافية وبواسطة مواقع خاصة بالتقييم عبر الإنترنت التي تقيم العمل على عدة أسس منها: التفاعلات والردود من قبل المتابعين.
٩. استخدام الأدوات الإعلامية التفاعلية المتعددة الوسائط، في خدمة السنة ونشرها بمختلف الأشكال، بما فيها الألعاب الرقمية للأطفال.
١٠. تضررت أخلاق كثير من المسلمين من وراء استخدام شبكات التواصل الاجتماعي التي تعتبر الأخلاق مسألة فردية فقط.
١١. استخدام برامج قوية محصنة ضد القرصنة والهجمات الإلكترونية.
١٢. العناية على التوظيف المؤسسي لوسائل التواصل الاجتماعي في مجال السنة النبوية، من خلال العمل المنظم وفق الرؤية والرسالة والخطة الاستراتيجية.. وتحديد ساعات النشر.. وسياسته.. وإشراك المتابعين في وضع الخطة، وتحديد المصادر والموارد البشرية.
١٣. أهمية توظيف آليات البث المباشر من قبل المؤسسات المهمة بالحديث الشريف والاستفادة منها في بث الدروس والمحاضرات والخطب والفعاليات وجديد

٣. مراعاة أساليب الدعوة إلى الله تعالى المبنية على البصيرة والحكمة والموعظة الحسنة عند مناقشة الناس، وعدم تجريحهم أو الإساءة إليهم أو إصدار أحكام عامة على الناس، فطالب الحديث والمنتسب إليه يكون أرقى تعاملًا عند مخاطبة الناس وأكثر عدلاً وإنصافاً عند مناقشتهم.

٤. إدخال مبادئ التعامل مع الشبكات الاجتماعية وتقنياتها إلى المناهج الدراسية وتعريف الطلاب باستخدامها الصحيح فيما ينفعهم في الدين والدنيا.

٥. العناية على التوظيف الإيجابي لهذه الوسائل، وإبراز محاسن السنة النبوية المتمثلة في السماحة والرحمة والعدل والبر والتعاون والإيثار وغيرها عن طريق هذه الوسائل وتربية المجتمع على مكارم الأخلاق التي حث عليها نبينا الكريم محمد ﷺ في قوله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» وفي رواية «(صَالِحُ) الْأَخْلَاقِ»^(١).

٦. الاهتمام بالإبداع في النواحي الشبكية وعدم الاكتفاء بالأساليب التقليدية (وسائل التواصل الاجتماعي) بل البحث عن برامج أكثر تميزاً وإبداعاً في نشر السنة النبوية

معارض الكتب في مجال السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية.

١٤. ضرورة وضع خطة مرنة قابلة للتعديل والتطوير والتحسين لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي في مجال خدمة السنة النبوية، وإصدار دليل إجرائي (بشكل مكتوب) للخطة السنوية، حيث إنها من الأدوات التي تساعد على تجنب الأخطاء.

ثانياً: التّوصيات

١. تنظيم الوقت وتقنيته خلال استخدام هذه الوسائل في نشر السنة النبوية، وعدم الإفراط، وصرف كل الطاقات والأوقات دون تخطيط مسبق والجلوس أمام الشاشة، فلا يكون هناك إخلال بحقوق وواجبات أخرى مثل حقوق الوالدين والأسرة وتربية الأولاد وطلب العلم بحجة الانشغال على نشر السنة على وسائل التواصل الاجتماعي.

٢. مراعاة الأمانة عند استخدام هذه الوسائل، وعدم تسجيل صوت الشخص أو تصويره إلا بإذنه، وكذلك عزو الأقوال والآراء إلى قائلها ومواقع الإنترنت عند الاستفادة منها، لأن ديننا يعلمنا الأمانة والوضوح والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني رحمه الله: ٤٥، واعتمدت في النقل على موقع: الدرر السنية الحديثة. <http://www.dorar.net>

والعمل بها.

٧. إقامة ندوات افتراضية لخدمة الحديث الشريف على الإنترنت يشترك فيها علماء الحديث بالعالم الإسلامي لبحث ومناقشة مواضيع تهم السنة النبوية ووضع خطط واستراتيجيات لنشرها والعمل بها في أوساط المسلمين.

٨. عمل تطبيقات إلكترونية على التويتر للتغريد المباشر بالسنة، وتذكير الناس بسنن اليوم والليلة وأذكار الصباح والمساء، ويكون التغريد آلياً من التطبيق حسب الأوقات المحددة بعناية.

٩. دعوة علماء الحديث الشريف والمتخصصين فيه، ودعوة أقسام الحديث الشريف بالجامعات الإسلامية، لعمل حسابات شخصية لهم على مواقع التواصل الاجتماعي للتواصل مع الناس والرد على أسئلتهم واستفساراتهم توصيلاً لأمانة العلم للآخرين، وصداً لما يثار من الشبهات حول السنة من قبل المغرضين.

١٠. العناية بفئة الشباب حيث إنهم أكثر استخداماً لوسائل التواصل الاجتماعي، وترشيد طاقاتهم الإبداعية في إثراء التكنولوجيا الرقمية واستخدامها في نشر السنة.

١١. إنشاء مركز مستقل للحديث الشريف باسم

«مركز السنة للدراسات الحديثة» في مملكة البحرين على غرار مركز تفسير للدراسات القرآنية، لدراسة علوم الحديث الشريف، بشكل مؤسسي.

١٢. توعية الشباب بشكل خاص والمسلمين بشكل عام على مراعاة الأخلاق والآداب الإسلامية عند استخدامهم لهذه الوسائل من آداب السلام والاستئذان وحفظ أسرار الناس وعدم كشف الأستار.

١٣. العمل على إيجاد آلية للتواصل بين علماء الحديث وطلابه، وعمل مبادرات جماعية للقيام بخدمة الحديث ونشره.

١٤. إنشاء جائزة سنوية تمنح لأفضل موقع إلكتروني خاص بالسنة النبوية، أو أفضل حساب من حسابات التواصل الاجتماعي، (التويتر، الفيس بوك، الانستغرام، اليوتيوب) أو أفضل تطبيق للأجهزة الذكية، يهتم بخدمة السنة النبوية ونشرها بين الناس، مما سيخلق باب التنافس بين أصحاب هذه المواقع والحسابات.

١٥. التعاقد مع المؤسسات الإعلامية الرقمية المحترفة في مجال الإخراج الفني والنشر والمتابعة والاستفادة من خدماتها ومعرفتها بالسوق الإلكتروني في مجال خدمة السنة النبوية.

المحتوى والرسائل التسويقية وهو أساس لنجاح العمل بإذن الله تعالى.

٢٢. الاعتناء بمراعاة الآداب الإسلامية، مثل: آداب السلام، والاستئذان، وتناول الطعام، واحترام الناس، خلال عمل التطبيقات الخاصة بألعاب الأطفال، حيث إن ذلك يترسخ في قلوبهم وأذهانهم من الآن، وللأسف فإن الناس يحبون الألعاب في هذا العصر ويقبلون عليه بشراهة، فمثلاً لعبة (كاندي كرش) يقوم اللاعبون فيها يوميًا بعمل سحب بأصبعهم على اللعبة، لو تم جمعه وقياسه لكان أطول بـ ١٤٠,٠٠٠ مرة من برج خليفة حسب إحصائية ٢٠١٦م!!!^(١) ويقوم كل لاعب كل عام بعمل سحب بإصبعه على اللعبة لو تم جمعه وقياسه لكان أكثر من مسافة الذهاب للقمر والعودة ٥٤ مرة!!!^(١)

٢٣. إضافة شريط إخباري سفلي على موقع قناة القرآن الكريم بالبحرين، خاص بفعاليات السنة ودراساتها وأخبارها ومؤتمراتها ولقاءاتها وغير ذلك.

وصلّى الله وسلم على نبينا وحبينا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

١٦. إشراك الجماهير في إعداد المادة ومراجعتها وتخرجها وترجمتها ضمانًا لاستمرارية التفاعل وحرصًا على إشراك أناس كثيرين في الأجر.

١٧. يوصي الباحث بإنشاء وقف خاص بالسنة النبوية وعلومها بالبحرين، يستفاد منه في نشر السنة وخدمتها وكفالة المحدثين، وطلبة العلم الدارسين بكليات الحديث.

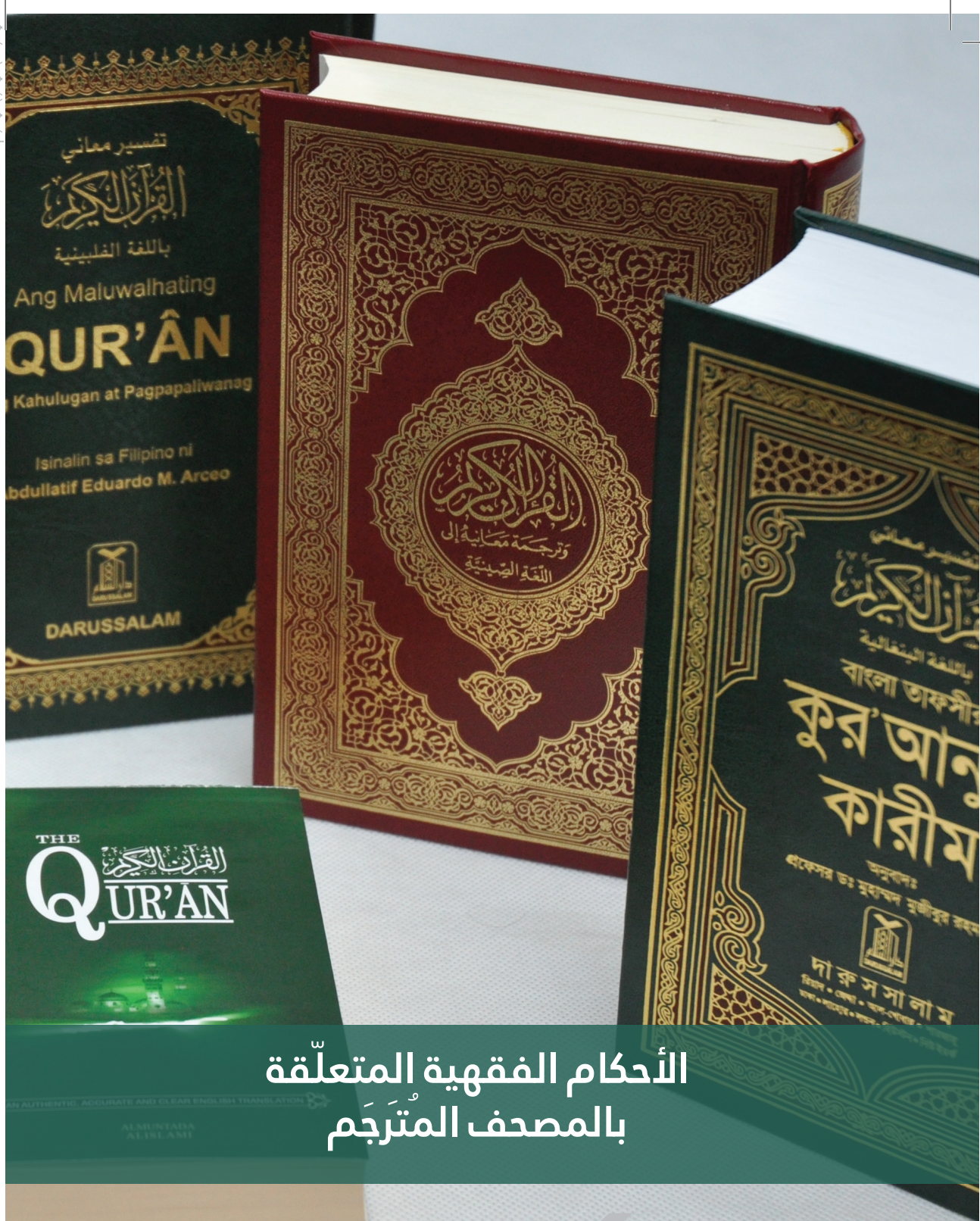
١٨. يوصي الباحث باستضافة مجموعة من شيوخ الحديث في العالم أصحاب الأسانيد المختصرة في الحديث، ليقراً عليهم طلبة الحديث، وبذلك ينالون من شرف الحديث وشرف السند المتصل بأصحاب كتب الحديث.

١٩. ضرورة تحديد ميزانية للنشر الإلكتروني أو الإعلام الرقمي وربطها بالأهداف السنوية للمشروع.

٢٠. ليس الهدف من النشر الرقمي الانتظار لإنشاء الفريق الإلكتروني، ولا يمنع أن يبدأ المشروع بعدة موظفين، فمعظم المشاريع الكبيرة بدأت بفريق صغير.

٢١. أهمية وضوح الرسالة والرؤية والأهداف لفريق العمل حيث إن ذلك ينعكس في

(١) مؤتمر الإبداع التقني في العمل الخيري، بالبحرين، وانظر حول إحصائيات كاندي كرش، موقع المحترف: <http://www.th3professional.com>



الأحكام الفقهية المتعلقة بالمصحف المترجم

د. حمزة عبد العزيز العاني

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .. وبعد:

فإن هذا البحث يهتم بدراسة مسائل من الفقه الإسلامي، والتي تنفع المسلمين الأعاجم، وهي كل ما يتعلق بالمصحف المُترجم إلى لغة غير العربية، فقد جاء في الفقه الإسلامي صفحات واسعة تبحث هذه القضايا التي تخص المسلمين الأعاجم، حيث تختلف لغتهم عن لغة العرب التي نزل بها القرآن، وطبيعي أن يبحث الفقه الإسلامي الأحكام التي تخص المسلمين من غير العرب، إذ إن اختلاف لغاتهم لا يتعارض مع كونهم مسلمين.

وتتنوع الأحكام في هذا البحث وقوفاً على أنواع الترجمة، كما يتعلق بالترجمة مسائل أخرى مثل: حكم قراءة القرآن المُترجم في الصلاة، وهل يترتب سجود التلاوة على قراءة آية السجدة بلغة غير عربية؟ وهل شُرّع بديل عن القراءة في الصلاة لمن عجز عنها باللغة العربية؟ وهل يجوز مس المصحف المُترجم؟

وعليه جاءت خطة البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالترجمة وبيان حكم ترجمة القرآن الكريم.

المبحث الثاني: حكم قراءة المصحف المُترجم في الصلاة.

المبحث الثالث: البديل الشرعي لمن عجز عن قراءة القرآن باللغة العربية في صلاته.

المبحث الرابع: حكم ترتب سجود التلاوة بعد قراءة آية السجدة مُترجمة.

المبحث الخامس: مس المصحف المُترجم من غير طهارة.

ولا أزعم أنني أوفيت البحث حقه؛ ولكنني بذلت الجهد الذي أستطيع، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه غير ذلك فمن نفسي، ولا كمال إلا لله وحده، وأدعو ربي جل وعلا أن يتمم علي فضله فينفعني به والمسلمين.

المبحث الأول

التعريف بالترجمة وبيان حكم ترجمة القرآن الكريم

المطلب الأول

تعريف الترجمة

أولاً: الترجمة لغة: تطلق الترجمة في اللغة على ثلاثة معان:

المعنى الأول: تفسير الكلام بلغته التي جاء بها.

قال أحمد الفيومي: (ترجم فلان كلامه إذا بينه وأوضحه)^(١)، ولهذا قال ابن مسعود في حق ابن عباس: (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس)^(٢)، فقد كان ابن عباس رضي الله عنهما مشهوراً بتفسير القرآن الكريم.

المعنى الثاني: تفسير الكلام بغير لغته.

جاء في مختار الصحاح: (ترجم كلامه، إذا فسر به بلسان آخر)^(٣).

ويضيف الزبيدي: (الترجمان: المفسر للسان، وقد ترجمه وترجم عنه، إذا فسر كلامه بلسان آخر)^(٤).

المعنى الثالث: نقل الكلام من لغة إلى أخرى.

قال ابن منظور: (الترجمان: هو الذي يترجم الكلام، أي: ينقله من لغة إلى أخرى، والجمع: التراجم)^(٥).

ثانياً: الترجمة اصطلاحاً: للترجمة تعريفات عديدة في الاصطلاح، وأهمها ما يأتي:

التعريف الأول: (تحويل نص أو جملة أو كلمة في لغة ما، إلى ما يناظرها في لغة أخرى)^(٦).

التعريف الثاني: عرف رومان جاكسون الترجمة بأنها: (استبدال رموز لغوية في لغة ما، برموز لغوية في لغة أخرى)^(٧).

ويلاحظ: إن تعريف رومان جاكسون أكثر شمولية وموضوعية من التعريف الأول؛ ذلك لأنه استعمل مصطلح (الرمز)، وهذا يتضمن

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ١ / ١٠١.

(٢) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٦ / ٣٨٣، رقم الأثر: (٣٢٢٢٠).

(٣) مختار الصحاح، ص: ٢٣٦.

(٤) تاج العروس، ٨ / ١١٣.

(٥) لسان العرب، ١٤ / ٣٣٢.

(٦) تعليم العربية لغير الناطقين بها في ضوء اللسانيات التطبيقية، ص: ٤٣.

(٧) تعليم العربية لغير الناطقين بها في ضوء اللسانيات التطبيقية، ص: ٤٣.

الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم^(٣).

ثانيًا: حكم ترجمة القرآن:

الحكم الفقهي للنوعين المذكورين في المطلب السابق، على ما يأتي:

١ - حكم الترجمة التفسيرية: إن الترجمة التفسيرية -على ما مر بيانه- هي عبارة عن: طريق لتبليغ رسالة القرآن وهدايته وشريعته لمن لا يعرف العربية، وهي بهذا تشمل الناطقين بغير اللغة العربية، من المسلمين وغيرهم.

أما المسلمون منهم، فيتعين ذلك؛ لما فيه من إعانتهم على فهم ما في كتاب الله، والتعرف على أحكامه، فإن المسلمين غير الناطقين بالعربية؛ وإن قرأوا القرآن في صلاتهم وتعبدوا وتقربوا إلى الله في تلاوته، إلا أن ذلك لا يغنيهم عن تدبر معانيه وتفقه أحكامه.

أما غير المسلمين من الناطقين بغير العربية؛ فإن الترجمة التفسيرية في حقهم تبليغ الرسالة الإسلامية والشريعة القرآنية في طريق دعوتهم إلى الله، والتي تعتبر بحد ذاتها واجبًا شرعيًا على

الرموز سواء كانت صوتية أو نحوية أو دلالية أو معجمية، (وهذه كلها تؤثر تأثيرًا كبيرًا في حيوية النص المترجم ومقبوليته)^(١).

ويبدو لي أن التعريف اللغوي الثاني أقرب إلى التعريف الاصطلاحي.

المطلب الثاني

حكم ترجمة القرآن الكريم

قبل معرفة حكم ترجمة القرآن الكريم؛ يلزمنا الوقوف على أنواع الترجمة أولاً، ثم نتبع ذلك بالوقوف على الحكم.

أولاً: أنواع ترجمة القرآن الكريم:

تتعدد أنواع ترجمة القرآن إلى نوعين:

النوع الأول: الترجمة التفسيرية: وقد سماها الدكتور محمد حسين الذهبي بـ(الترجمة التعريفية)، وهي: (شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه)^(٢).

النوع الثاني: الترجمة الحرفية: وهي: (نقل

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٣.

(٢) التفسير والمفسرون، ١/ ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٢٣.

العلماء، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب^(١).

ثم إنه تكمن في الترجمة التفسيرية فائدة أخرى، تكاد أن تكون أوجب من دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وهذه الفائدة: هي العمل في الرد على أباطيل المفترين من خصوم الإسلام وأعدائه، فلقد تعرض ديننا وقرآننا إلى محاولات عديدة للتحريف والتلفيق، ولا سيما من المبشرين منهم، وقد أوردوا الشبهات والطعون، وتشويه حقيقة القرآن في نفوس من حُجِبُوا عن الاطلاع على ما فيه، (فعملوا على نشر ترجمات كثيرة للقرآن، حرفوا فيها كثيراً من الكلم عن مواضعه، ودسوا فيها من الأباطيل والأضاليل ليظهروا الدين الإسلامي بمظهر مشوه مملوء بالخرافات والتناقضات)^(٢)، فكل هذا وغيره لا يمكن الرد عليه والتصدي له إلا من خلال الترجمة التفسيرية، لدحض تلك الافتراءات وإيضاح الحقيقة^(٣).

وجاءت نصوص الفقهاء لتؤيد هذا الذي ذهبنا إليه، فبهذا الصدد يقول ابن عابدين:

(... فإن كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز. قوله: ويكره إلخ، مخالف لما نقلناه عن الفتح أنفاً - أي: جواز الترجمة التفسيرية -، لكن رأيت بخط الشارح في هامش الخزائن عن حظر المجتبى: ويكره كتب التفسير بالفارسية في المصحف كما يعتاده البعض، ورخص فيه الهندواني، والظاهر أن الفارسية غير قيد)^(٤).

ونقل الشرواني القول (بجواز كتابة القرآن بالقلم الهندي، وقياسه: جوازه بنحو التركي أيضاً... وقوله: بالقلم الهندي إلخ، فيه تأمل، فإن المكتوب بالقلم الهندي ونحوه إنما هو ترجمة القرآن لا نفسه)^(٥).

وقال البهوتي: (وتحسن للحاجة ترجمته، أي: القرآن إذا احتاج إلى تفهّمه إياه بالترجمة، وتكون تلك الترجمة عبارة عن معنى القرآن وتفسيراً له بتلك اللغة، لا قرآناً ولا مُعْجِزاً كما تقدم، وعلى هذا فإنما حصل الإنذار بالقرآن، أي: المُعْجِز عن معناه بتلك اللغة دون تلك اللغة، كترجمة الشهادة، أي: كما لو ترجمت الشهادة للحاكم،

(١) وردت كثيرة من النصوص في الأمر بالدعوة إلى الله، ومنها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْيُسْرَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾، سورة النحل، من الآية: ١٢٥، وحديث النبي ﷺ: (بلغوا عني ولو آية)، صحيح البخاري، ٣/ ١٢٧٥، رقم الحديث: (٣٢٧٤)، وكذلك ما رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم لغة اليهود، ينظر: صحيح البخاري، ٦/ ٢٦٣١، باب ترجمة الحكام.

(٢) لغة القرآن الكريم، ص: ٤٧٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص: ٤٧٣.

(٤) حاشية ابن عابدين، ١/ ٤٨٦.

(٥) حاشية الشرواني، ٦/ ١٦٠.

الشرط الثاني: أن يكون المترجم على إحاطة تامة بأوضاع اللغة المترجم منها، واللغة التي ترجم إليها، وأن يكون مطلعاً على دلالاتها وأساليب تراكييبها؛ حتى يؤدي الترجمة بالمنهج الرصين.

الشرط الثالث: أن يكون المترجم محايداً، فلا يصح ممن عُرف بالهوى والميل إلى عقيدة أو فكرة تخالف ما جاءت به الشريعة، وهذا شرط مهم أن يكون متحققاً في كل من المفسر والمترجم، حتى لا يفسر الأول بهواه، ولا يترجم الثاني بهواه.

الشرط الرابع: يجب إيضاح أن هذه الترجمة ليست قرآناً، أو أنها اشتملت على كل ما في القرآن من بلاغة وأسرار، إذ إن ذلك مما يعجز عنه البشر^(٤).

ويضيف الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم شرطين آخرين يجب مراعاتهما في الترجمة التفسيرية، وهما:

أ- (أن يطبع المصحف وتُرَقِّم آياته بأرقام اللغة المترجم إليها تفسيره، ثم يكتب بجانبه تفسير كل آية مرقماً برقمها الذي رقت به،

فإن حكمه يقع بالشهادة لا بالترجمة)^(١).

وقال الرحيباني: (وتحسن ترجمة القرآن لحاجة تفهيم بها، وتكون تلك الترجمة عبارة عن معنى القرآن، وتفسيراً له بتلك اللغة لا قرآناً ولا معجزاً)^(٢).

وبناءً على ما سبق يتضح أن لا حرج في ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية، حيث لم يمنع ذلك أحد؛ على أن يكون ذلك مقيداً بالشروط المعتمدة لدى العلماء، (وكان القاضي أبو عاصم رحمه الله، يقول: إنما يجوز ترجمة القرآن، إذا كان مثله في اللفظ والمعنى كقوله، خيراً وشرّاً، ويركب ويسجد، فأما إذا كان يخالفه في اللفظ والمعنى، فلا)^(٣).

إلا أن المعاصرين منهم جعلوا لذلك شروطاً نبينها كما يأتي:

الشرط الأول: أن تكون الترجمة مُستَمَدّة من الأصول الصحيحة التي يُعتمد عليها في تفسير القرآن، وذلك وفق طرق التفسير التي سار عليها العلماء في الاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال كبار الصحابة وأئمتهم، وكذلك اللغة العربية وأصولها ومعانيها.

(١) كشف القناع، ١/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، ١/ ٤٣٣.

(٣) التعليقة للقاضي حسين، ٢/ ٧٢٥.

(٤) ينظر تفصيل هذه الشروط: لغة القرآن الكريم، ص: ٤٧٤ - ٤٧٥.

على النهج الرصين.

والأحظ: أن هذه الشروط التي ذكرها قريبة في معنى الشروط والضوابط التي حددها للترجمة التفسيرية^(١)، لذا فلا حاجة إلى إعادة ذكرها في هذا النوع من الترجمة.

إلا أن الأهم الذي نقدمه قبل بيان الحكم الشرعي للترجمة الحرفية للقرآن الكريم؛ هو ما ذكره الدكتور عبد الجليل، (عما ذكره العلماء من صعوبة ترجمة النصوص الأدبية ونقلها من لغة إلى أخرى، وإلى أي حد يمكن للمترجم الماهر أن يبلغه فيما هدف إليه من ترجمة هذه النصوص ترجمة حرفية أو معنوية، وهل من الممكن أن يتغلب على كل هذه الصعوبات التي تعترض طريق المترجم، في بحثهم عن دلالة الألفاظ وصعوبة تحديدها)^(٢).

وقد نقل ذلك عما تحدث به علماء اللغة، حيث تكمن الصعوبات فيما يأتي:

أولاً: صعوبة تحديد معاني ألفاظ القرآن الكريم، وفي ذلك يقول الدكتور محمود السّعران: (إن للكلمة في اللغة غير المعنى القاموسي العام، وغير المعنى الذي قد يفهم

ولابد من أن تكون طباعة المصحف وهذا التفسير بالخط العربي).

ب- أن يكتب تفسير باللغة التي ترجم إليها التفسير مرقماً بالأرقام التي رقت بها آيات المصحف بحيث يفهم القارئ غير العربي، أن ما يقرؤه هو ترجمة تفسير القرآن، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذي رقت به في المصحف وفي التفسير)^(٣).

وتعدّ هذه الشروط معتبرة عند الفقهاء، ولها قيمة احترازية في الثبوت من ترجمة القرآن، يقول النووي: (ترجمة القرآن ليست قرآناً؛ لأن القرآن هو هذا النّظم المعجز، وبالترجمة يزول الإعجاز، فلم يجز، وكما أن الشّعر يخرج ترجمته عن كونه شعراً، فكذا القرآن)^(٤).

٢- حكم الترجمة الحرفية: سبق أن وقفنا على تعريف الترجمة الحرفية، وعرفنا أنه من الصعوبة أن تحتوي الترجمة الحرفية على مراد القرآن الكريم؛ وذلك لأمرين سيأتي ذكرها لاحقاً.

ومقدمة على ذلك؛ فقد ذكر الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم شروطاً يجب أن تحصل عند الترجمة الحرفية للنصوص الأدبية ليكمل سيرها

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٧٤ - ٤٧٥.

(٢) المجموع، ٣/ ٣٨٠.

(٣) ينظر تفصيل هذه الشروط: المصدر نفسه، ص: ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٤) لغة القرآن الكريم، ص: ٢٩٤ - ٢٩٥.

لفظ آخر، ووفق الاضطراب المعنوي الذي ذكره بكثال؛ فإن ترجمة كلمة (الله) إن لم تكن حراماً؛ فإنها تترتب عليها شبهة شرعية.

ثانياً: اختلاف طبيعة النظام في تراكيب الجمل بين اللغات، فلكل من الفعل والفاعل والمفعول مكان خاص في سياق الجمل الكلامية، وعلى هذا سيضطّر المترجم إلى تغيير في الترتيب بين الكلمات تقديمًا وتأخيرًا، ليبدو سياق ترجمته صحيحًا، ولا ريب أن ذلك سيؤثر على النظم^(٣).

ثالثاً: اعتناء اللغة العربية بالإيقاع الموسيقي، وذلك خلافاً لبقية اللغات الأخرى، فقد تردّية لها من السياق من المعاني التي تضع وتذهب إذا ترجمت إلى لغة أخرى.

ثم إن في القرآن أيضاً من المجازات والتشبيهات والاستعارات والكنيات والأمثال وغيرها، مما يؤثر في ذهاب المعنى وتغيير بلاغته ورونقه عند ترجمته إلى لغة أخرى^(٤).

وعلى ما سبق يتضح عدم جواز ترجمة القرآن ترجمة حرفية، مع أنه لم يرد حكاية ذلك وتفصيله عن الفقهاء، سوى القليل الذي ذكره البعض منهم، يقول سليمان العجيلي: (سئل

من السياق، إحياءات وارتباطات نتجت عن الحياة المشتركة التي حييها أصحاب اللغة، فعندما تنقل من لغة إلى أخرى فكيف نوفق في اصطیاد كلمات تعطي إحياءات الحياة الأخرى وارتباطاتها؟)^(١)، ويضرب على ذلك مثلاً فيقول: (كنا ننظر في تفسير محمد مردموك بكثال للقرآن الكريم، ورأيناه ذهب مذهباً خاصاً في نقل كلمة (الله) عز وجل إلى الإنجليزية: فلفظ الجلالة يترجم عادة بـ (god)، ولكن بكثال لاحظ أن كلمة (god) لا تثير في ذهن القارئ الإنجليزي ما تثيره كلمة (الله) في ذهن القارئ العربي، فكلمة (god) في الإنجليزية تؤنث بـ (goddess)، وتجمع على (gods)، بينما الله واحد لا شريك له، كلمة لا تُثنى لها ولا جمع ولا مؤنث، فالتصور الذي تشير إليه تصور يقضي على الشرك، بينما كلمة (god) لا تقضي على هذا التصور، ولم يجد بكثال في الإنجليزية كلمة تقابل كلمة (الله) في العربية، فاحتفظ بكلمة (الله) في الإنجليزية كما هي)^(٢).

والأحظ: أن ما ذهب إليه بكثال هو عين الصواب؛ حيث إن أسماء الأعلام في قانون اللغات لا تترجم، ولفظ الجلالة (الله) أعرف المعارف، فليس ثمة داع لترجمتها ونقلها إلى

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٧٧، وقد نقله عن: علم اللغة، محمود السعران، ص: ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٧٧، وقد نقله عن علم اللغة، محمود السعران، ص: ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) ينظر: لغة القرآن الكريم، ص: ٤٧٨، وقد نقله عن دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص: ١٧١.

(٤) ينظر: لغة القرآن الكريم، ص: ٤٧٨-٤٧٩.

هذا القول إلى قول صاحبيه على ما سيأتي.

واستدل أبو حنيفة بما يأتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾^(٣).

وجه الاستدلال: إن القرآن جاء للعالمين جميعاً عرباً وعجماً، والعجم لا يعقلون الإنذار ويفهمون فحواه إلا بترجمته.

ويُجاب عليه: بأن الإنذار يحصل فيما لو نقل إليهم معناه، أما القراءة في الصلاة؛ فهي مما أمرنا بأدائه تعبدًا^(٤).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا يَفْهَمَ الَّذِينَ يَزُورُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٦).

وجه الاستدلال: إن الله يؤكد أن ما في القرآن هو ما كان في كتب الأولين وزبرهم، ولم يكن بهذا اللفظ قطعاً^(٧).

جاء في كنز الدقائق: (فصحف إبراهيم كانت

الشَّهاب الرَّملي: هل تحرم كتابة القرآن العزيز بالقلم الهندي أو غيره؟ فأجاب: بأنه لا يحرم؛ لأنها دالة على لفظه العزيز وليس فيها تغيير له، بخلاف ترجمته بغير العربية لأن فيها تغييراً.

وعبارة الإتقان للسيوطي: هل تجوز كتابته بقلم غير العربي؟ قال الزركشي: لم أر فيه كلاماً لأحد من العلماء، قال: ويحتمل الجواز؛ لأنه قد يحسنه من يقرؤه بالعربية، والأقرب المنع، انتهى، والمعتمد الأول^(٨).

المبحث الثاني

حكم القراءة من المصحف المترجم في الصلاة

اختلف الفقهاء في هذه المسألة إلى ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: تجوز القراءة من المصحف المترجم في الصلاة، سواء قدر على العربية أم لا، إلا أنها تكره بحق من يقدر على العربية، وبه قال أبو حنيفة في رأيه الأول^(٩)، وروي أنه رجع عن

(١) حاشية الجمل، ١/ ٧٦.

(٢) ينظر: البحر الرائق، ١/ ٣٢٤، المبسوط للسرخسي، ١/ ٣٧، تحفة الفقهاء، ١/ ١٢٠، بدائع الصنائع، ١/ ١١٢، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، ١/ ٩٢-٩٣، متن بداية المبتدي في فقه الإمام أبي حنيفة، ص: ١٤.

(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١٩.

(٤) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣١.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

(٦) سورة الأعلى، الآيات: ١٨-١٩.

(٧) ينظر: الهداية شرح البداية، ١/ ٤٧، المبسوط للسرخسي، ١/ ٣٧، بدائع الصنائع، ١/ ١١٢.

فاتحة الكتاب بالفارسية، فكانوا يقرأون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية^(٥).

ويمكنني الإجابة على ذلك بأنني بحثت عن هذه الرواية، أو أي شيء بهذا المعنى، فلم أجد لها أصلاً، فالرواية موضوعة لا يُحتج بها، وحتى لو كان لها أصل فإن النووي ذكر جواباً على ذلك: بأن سلمان كتب لهم تفسيرها، وليست حقيقة الفاتحة^(٦).

خامساً: قياساً على جواز إسلام الكافر بالعجمية.

ويجاب عليه: أن ذلك قياس مع الفارق، والفارق: أن الإسلام إخبار عن اعتقاد القلب، وهو يحصل بكل لغة، أما القراءة فقد أمرنا بأدائها تبعداً، ثم إن المراد من القرآن النظم المعجز والأحكام، ولا تتم القراءة إلا بهما^(٧).

وعموماً.. فقد روي عن أبي حنيفة أنه رجع عن قوله إلى قول صاحبيه.

بالسريانية، وصحف موسى بالعبرانية، فدل على كون ذلك قرأناً، وما تلياه لا ينفي كون غير العربية قرأناً؛ لأنه مسكوت عنه^(١).

ويُجاب عليه: بأن القرآن الذي أنزل على النبي ﷺ بهذا اللسان؛ لم ينزل على الأولين؛ وإنما نزل في زبر الأولين ذكره والإقرار به فقط، ولو أنزل على غير النبي ﷺ، لما كان فضيلة ومعجزة له عليه الصلاة والسلام^(٢).

ثالثاً: روي في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)^(٣).

ويجاب عليه: بأن المراد: اللغات الخاصة بالعرب وليست بغيرهم، ثم إن هذا دليل عليه وليس له؛ إذ إنه يستفاد منه: لا يجوز قراءة القرآن بلغة أخرى غير هذه اللغات السبعة، وعلى هذا فهو رد على من جوز قراءته بكل لسان^(٤).

رابعاً: روي أن قومًا من الفرس سألوا سلمان الفارسي أن يكتب لهم سورة الفاتحة، فكتب لهم

(١) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، ١/ ١١٠-١١١.

(٢) ينظر: المحلى، ٣/ ٢٥٤، المغني، ١/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) صحيح البخاري، ٢/ ٨٥١، رقم الحديث: (٢٢٨٧)، و ٣/ ١١٧٧، رقم الحديث: (٣٠٤٧)، صحيح مسلم، ١/ ٥٦٠، رقم الحديث: (٨١٨)، صحيح ابن حبان، ١/ ٢٧٥، رقم الحديث: (٧٤)، و ١/ ٢٧٦، رقم الحديث: (٧٥).

(٤) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣٠-٣٣١.

(٥) ينظر: المبسوط للسرخسي، ١/ ٣٧، ذكر السرخسي هذا الأثر، ويبحث عنه في مراجعي فلم أجد له أصلاً، ورغم ذلك فإن النووي ذكر جواباً عليه.

(٦) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣١، الفتاوى الفقهية الكبرى، ١/ ٣٧-٣٨، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرّة العين، ١/ ٦٨.

(٧) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣١.

وجه الاستدلال: إن المفهوم من القرآن في الآية: المعرف بـ(أل)؛ هو: المفهوم بالعربي في عرف الشرع، والقرآن العربي اسم للنظم المعجز والمعنى، فلا يتأدى الواجب إلا بهما^(٥).

وهذا الدليل يخص عدم جواز القراءة للقادر على العربية وهذا مُسلم له.

ثانيًا: أما الدليل على جواز القراءة بالأعجمية للعاجز؛ فقياسًا على العاجز عن الركوع والسجود، فإنه يصلي بالإيماء بدلًا عنها^(٦).

ويمكن الإجابة على ذلك: بأن هذا مخالف للنص الصريح، إذ إن البديل للعاجز هو التسييح، وليس الترجمة إلى غير العربية.

والنص: هو ما روي عن عبد الله بن أوفى أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا، فعلمني ما يجزيني منه، فقال: (قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)^(٧).

قال ابن نُجيم: (وكان أبو حنيفة يقول بالصحة... ثم رجع عن هذا القول ووافقهما - أي: وافق أبا يوسف ومحمدًا - في عدم الجواز، وهو الحق)^(١).

وقال ابن عابدين: (والأصح: رجوعه - أي: أبو حنيفة - إليهما - أي: أبو يوسف ومحمد - في عدم جواز الشروع والقراءة بالفارسية لغير العاجز عن العربية)^(٢).

وبهذا يتضح: أن أبا حنيفة قد رجع عن قوله إلى قول صاحبيه، فلا فرق بينه وبين المذهب الثاني، وسيأتي بيانه.

المذهب الثاني: لا تجوز القراءة من المصحف المُترجم إلا لمن عجز عن القراءة بالعربية، وبه قال الصحابان: أبو يوسف ومحمد^(٣).

واستدل أبو يوسف ومحمد بما يأتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٤).

(١) البحر الرائق، ١ / ٣٢٤.

(٢) حاشية ابن عابدين، ١ / ٤٨٥، شرح فتح القدير، ١ / ٢٨٦، الجوهرة النيرة، ١ / ٨١، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، ١ / ٩٢-٩٣.

(٣) ينظر: المبسوط للسرخسي، ١ / ٣٧، تحفة الفقهاء، ١ / ١٣٠، بدائع الصنائع، ١ / ١١٢، نور الإيضاح ونجاة الأرواح، ص: ٤٨، البحر الرائق، ١ / ٢١٢.

(٤) سورة المزمل، من الآية: ٢٠.

(٥) ينظر: الهداية شرح البداية، ١ / ٤٧، وينظر: البحر الرائق، ١ / ٣٢٤، وينظر: المبسوط للسرخسي، ١ / ٣٧.

(٦) ينظر: الهداية شرح البداية، ١ / ٤٧، وينظر: المبسوط للسرخسي، ١ / ٣٧.

(٧) سنن أبي داود، ١ / ٢٢٠، رقم الحديث: (٨٣٢)، وقد سكت عنه أبو داود، سنن الدارقطني، ١ / ٣١٤، رقم الحديث: (٣).

تخرجه عن كونه شعراً، فكذلك القرآن^(٩).

ثالثاً: ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم، فلبيته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال رسول الله ﷺ: (أرسله، اقرأ يا هشام)، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: (كذلك أنزلت)، ثم قال: (اقرأ يا عمر)، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: (كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما

المذهب الثالث: لا تجوز القراءة من المصحف المترجم في الصلاة مطلقاً، فإن عجز فله بديل عنها، وهو التسييح، وبه قال جمهور العلماء من: المالكية^(١)، والشافعية^(٢)، والحنابلة^(٣)، والظاهرية^(٤)، والزيدية^(٥)، والإباضية^(٦).

واستدلوا بما يأتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٧).

وجه الاستدلال: إن ترجمة القرآن إلى غير العربية تطرئ عليه التغيير والإحالة في رتبة القرآن بكونه نزل عربياً، وإحالة رتبة القرآن تحريف، فيدخل تحت عموم قول الله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(٨).

ثانياً: إننا مأمورون بأداء القرآن، وهو اسم للنظم والمعنى، وهذا ما عرف شرعاً، وغيره من ترجمة لا تعد قرآناً، إذ إنه لو تُرجم؛ فسيزول النظم المعجز فلم يجز، وكما أن ترجمة الشعر

وروي مثله في المستدرك على الصحيحين، ١/ ٣٦٧، رقم الحديث: (٨٨٠)، وقال عنه الذهبي: على شرط البخاري.

(١) ينظر: حاشية الدسوقي، ١/ ١٢٥.

(٢) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣٠، و ٢/ ١٨٨، و ٣/ ٣٣٢، و ٣/ ٢٧٢.

(٣) ينظر: الكافي في فقه ابن حنبل، ١/ ١٣١-١٣٢، الإنصاف للمرداوي، ٢/ ٥٣، كشف القناع، ١/ ٣٤٠، المغني، ١/ ٢٨٨.

(٤) ينظر: المحلى، ٣/ ٢٥٤، و ٤/ ١٥٩.

(٥) ينظر: التاج المذهب لأحكام المذهب، ١/ ٥٣.

(٦) ينظر: شرح النيل وشفاء العليل، ٢/ ١٤٥.

(٧) سورة يوسف من الآية: ٢.

(٨) سورة النساء، من الآية: ٤٦، سورة المائدة من الآية: ١٣.

(٩) ينظر: المجموع، ٣/ ٣٣١، الفروع، ١/ ٣٦٦، الكافي في فقه ابن حنبل، ١/ ١٣٢، كشف القناع، ١/ ٣٤٠-٣٤١.

تيسر منه^(١).

(قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله)، قال: يا رسول الله، هذا الله عز وجل فما لي؟ قال: (قل اللهم ارحمني وارزقني وعافني واهدني) فلما قام قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد ملاً يده من الخير)^(٤).

وجه الاستدلال: لو جازت القراءة من المصحف المترجم، لأنكر النبي ﷺ على عمر اعتراضه في شيء جائز^(٢).

الرأي الراجح:

وعلى ما سبق ذكره يتضح: أن أبا حنيفة رجع عن قوله، وأن صاحبيه استدلا بما وجد الجمهور ردًا عليهما، ولقوة أدلة الجمهور، وجوابهم على قول أبي حنيفة وصاحبيه؛ يبدو لي أن قولهم هو الراجح، والله أعلم.

المبحث الثالث

البديل الشرعي لمن عجز عن قراءة القرآن باللغة العربية في صلاته.

اتفق جمهور الفقهاء الذين قالوا بعدم جواز القراءة من المصحف المترجم في الصلاة على أن البديل هو الذكر^(٣)، واستدلوا بحديث أبي داود: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن أخذ من القرآن شيئاً فعلمني ما يجزئني منه، قال:

ولكن هذا الحديث الذي استدل به الفقهاء هو من رواية إبراهيم السكسكي، وهو ضعيف^(٥)، لذا وجدت ما يقويه من حديث رفاعه بن رافع، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد يوماً، قال رفاعه ونحن معه: إذ جاءه رجل كالبُدوي، فصلّى فأخفّ صلاته، ثم انصرف، فسلم على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «وعليك، فارجع فصلّ فإنك لم تصل»، فرجع فصلّى، ثم جاء فسلم عليه، فقال: «وعليك، فارجع فصلّ فإنك لم تصل»، ففعل ذلك مرّتين أو ثلاثاً، كل ذلك يأتي النبي ﷺ فيسلم على النبي ﷺ، فيقول النبي ﷺ: «وعليك، فارجع فصلّ فإنك لم تصل»، فخاف الناس وكبر عليهم أن يكون من أخفّ صلاته لم يصل، فقال الرجل في آخر ذلك: فأرني وعلمني، فإنما أنا بشرٌ أُصيب وأخطئ،

(١) صحيح البخاري، ٤/ ١٩٠٩، رقم الحديث: (٤٧٠٦)، صحيح مسلم، ١/ ٥٦٠، رقم الحديث: (٨١٨).

(٢) ينظر: المجموع، ٣/ ٣١٣.

(٣) ينظر: مغني المحتاج، ١/ ١٦٠، المجموع، ٣/ ٣٢٨-٣٢٩، المبدع، ١/ ٤٤١، الإيضاح للمرداوي، ٢/ ٥٢-٥٤، الكافي في فقه ابن حنبل، ١/ ١٣٢-١٣٣، كشاف القناع، ١/ ٣٤٠-٣٤٢، المغني، ١/ ٢٨٩-٢٩٠، المحلى، ٣/ ٢٥٤، و٤/ ١٥٩.

(٤) سنن أبي داود، ١/ ٢٢٠، رقم الحديث: (٨٣٢)، وقد سكت عنه أبو داود.

(٥) ينظر: تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، ١/ ٢٣٦، وروى مثله الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ١/ ٣٦٧، رقم الحديث: (٨٨٠)، وقال عنه الذهبي: على شرط البخاري.

هذا الحديث، وبه قال أبو علي الطبري^(٢).

واستدل بما ورد في الحديث هذه الأنواع الخمسة، وسكت عندها النبي ﷺ.

وقد ردوا عليه: بأن سكوت النبي ﷺ لا ينفي الزيادة عليها، فإن تأخير البيان إلى وقت الحاجة ممكن^(٣).

وألاحظ: إن عجز هذا الرجل في صلاته هو زمن الحاجة التي بين له النبي ﷺ عندها، فما من حاجة أخرى تستدعي البيان غير العجز الذي نحن بصدد، وهو عجز المصلي عن القراءة باللغة العربية.

الرأي الثاني: تعيين هذه الكلمات الواردة مع زيادة نوعين آخرين من الذكر^(٤).

وعللوا رأيهم: بأن ما ورد في الحديث خمسة أنواع من الذكر، وزيادة نوعين على هذه الأنواع الخمسة لتصير سبعة أذكار، تقوم مقام سورة الفاتحة سبع آيات^(٥).

ويمكن الإجابة على ذلك: بأن هذه الزيادة تكلف في غير محله، فالشارع الكريم هو الذي

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَلٌ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَتَوَضَّأَ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، ثُمَّ تَشَهَّدَ فَأَقِمَّ أَيُّضًا، فَإِنْ كَانَ مَعَكَ قُرْآنٌ فَاقْرَأْ، وَإِلَّا فَاحْمَدِ اللَّهَ وَكَبِّرْهُ وَهَلِّلْهُ، ثُمَّ ارْكَعْ فَاطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ اعْتَدِلْ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ فَاعْتَدِلْ سَاجِدًا، ثُمَّ اجْلِسْ فَاطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ قُمْ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُكَ، وَإِنْ انْتَقَصَتْ مِنْهَا شَيْئًا انْتَقَصَتْ مِنْ صَلَاتِكَ»^(١).

وجه الاستدلال: قول النبي ﷺ: (فإن كان معك قرآن فاقْرَأْ به، وإلا فاحمد الله وكبره وهللّه)، فإنه أرشد المصلي في صلاته أنه إن لم يكن معه قرآن فله البديل: وهو ذكر الله تعالى بالحمد والتكبير والتهليل، وكذلك من لا يُحسن قراءة القرآن بالعربية لا ينبغي له أن يقرأ قرآنًا مترجمًا؛ بل له أن يذكر الله تعالى.

غير أن بعض الفقهاء القائلين بأن البديل هو الذكر، قد اختلفوا في بعض الأمور المتعلقة بهذه المسألة، وبيان ذلك حسب المذهبين الآتين:

أولاً: مذهب الشافعية: اختلفوا في الذكر البديل إلى ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه يتعين عليه الذكر الوارد في

(١) ينظر: صحيح ابن خزيمة، ١/ ٢٧٤، رقم الحديث: (٥٤٥)، وقال المحقق: إسناده صحيح، سنن الترمذي، ٢/ ١٠٠-١٠٢، رقم الحديث: (٣٠٢)، وقال عنه: حديث حسن، سنن أبي داود، ١/ ٢٢٨، رقم الحديث: (٨٦١)، وسكت عنه أبو داود.

(٢) ينظر: مغني المحتاج، ١/ ١٦٠، وينظر: المجموع، ٣/ ٣٢٨.

(٣) ينظر: المصدران السابقان.

(٤) ينظر: المصدران السابقان.

(٥) ينظر: المصدران السابقان.

ما الفرق بين الذكر والقرآن؟ إذ جوزتم للرأي الأول خمس كلمات، ولم تجوزوا من القرآن للصلاة إلا سورة الفاتحة سبع آيات.

فأجاب: (إن القرآن بدل للفاتحة من جنسها، فاعتبر فيه قدرها، والذكر بخلافها فجاز أن يكون دونه)^(٥). وذلك قياس على التيمم، فإنه بدل عن الوضوء، وهو دونه وأقل منه^(٦).

ثانيًا: المذهب الحنبلي: ذكروا مسألة تخص البديل عن القراءة لم يذكرها غيرهم وهي: لو أحسن الأعجمي قراءة آية واحدة من القرآن، فماذا يفعل؟

اختلف فقهاء المذهب في هذه المسألة إلى رأيين:

الرأي الأول: له أن يكررها سبعا لتقوم مقام سورة الفاتحة^(٧).

وعللوا رأيهم: بأن الآية قرآن، وهي من

حدد هذه الأذكار، والزيادة في العبادات يعد إحداثًا في الدين، والمنهي عنه بحديث النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(١)، وقال أيضًا: (إياكم ومحدثات الأمور)^(٢).

الرأي الثالث: أنه لا يتعين شيء من الذكر؛ بل يجزيه جميع الأذكار من التهليل والتسبيح والتكبير وغيرها، فيجزيه من ذلك سبعة أنواع من الذكر^(٣).

ولم يذكروا أي دليل أو تعليل لما ذهبوا إليه، ولكن الاستدلال لهم واضح من حديث أبي داود وحديث رفاعه، أما حديث أبي داود فورد فيه خمسة أنواع، وأما حديث رفاعه فقد ورد فيه ثلاثة أنواع، ومن هذين الحديثين يتضح الآتي:

أ- مشروعية الذكر بدل القراءة.

ب- إباحة الذكر وعدم توقيفه.

ولعل النووي بذلك قد رجح الرأي الثالث^(٤).

وبين النووي أيضًا: أنه لو اعترض عليه:

(١) صحيح مسلم، ٣/ ١٣٤٣، رقم الحديث: (١٧١٨)، وأيضًا بلفظ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)، ٣/ ١٣٤٣.

(٢) صحيح ابن حبان، ١/ ١٧٩، رقم الحديث: (٥)، سنن الترمذي، ٥/ ٤٤، رقم الحديث: (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث صحيح، سنن أبي داود، ٤/ ٢٠٠، رقم الحديث: (٤٦٠٧)، وسكت عنه أبو داود، سنن ابن ماجه، ١/ ١٨، رقم الحديث: (٤٦)، مسند أحمد، ٤/ ١٢٦.

(٣) ينظر: مغني المحتاج، ١/ ١٦٠، وينظر: المجموع، ٣/ ٣٢٨.

(٤) ينظر: المصدران السابقان.

(٥) المجموع، ٣/ ٣٢٨.

(٦) ينظر: المصدر نفسه، ٣/ ٣٢٨.

(٧) ينظر: المبدع، ١/ ٤٤١، الإنصاف للمرداوي، ٢/ ٥٢-٥٤، الكافي في فقه ابن حنبل، ١/ ١٣٢، كشف القناع، ١/ ٣٤٠، المغني، ١/ ٢٨٩-٢٩٠.

المبحث الرابع

حكم ترتب سجود التلاوة بعد قراءة آية السجدة مُترجمة.

انفرد الحنفية بذكر هذه المسألة، واختلفوا فيها إلى رأيين:

الرأي الأول: إنها تجب مطلقاً على القارئ أو السامع، سواء فهم آية السجدة أم لم يفهمها، على أن يعرف أنها آية سجدة، وبه قال أبو حنيفة^(٨).

وعلى رأيه: بأن ذلك على أصل جواز القراءة بالفارسية، حتى (يتأذى بها - عنده - فرض القراءة في الصلاة، ولو قرأها بالعربية؛ وجبت السجدة على من سمعها لتقرر السبب، ويلزمه أداؤها إذا علم بذلك، فكذاك إذا قرأ بالفارسية)^(٩).

وقد ثبت أن أبا حنيفة قد رجع عن قوله هذا إلى قول صاحبيه: أبي يوسف ومحمد أيضاً، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

جنس الفاتحة، فهي أقرب شبهاً للفاتحة عن بقية الأذكار^(١).

الرأي الثاني: يقرأها مرة، ثم يعدل إلى بقية الأذكار بقدر بقية الفاتحة^(٢).

وعللوا رأيهم: بأنه إذا قرأها مرة فقد أسقط فرضها، وذلك قياساً على من يجد (بعض ما يكفيه - من الماء - لغسله، فإنه يستعمله ثم يتنقل إلى البديل الباقي)^(٣)، أي التيمم.

أما لو عجز المصلي عن جميع ذلك؛ فقد أجازوا له أن يقف زمناً بقدر سورة الفاتحة وجوباً على ما يقدره المصلي في ظنه، وبهذا قال فقهاء الشافعية^(٤)، والحنابلة^(٥)،

واستدلوا على ذلك: بأن المصلي يجب عليه القيام والقراءة، فإذا عجز عن أحدهما لزمه الآخر^(٦)، فهو تحت عموم قول النبي ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)^(٧).

(١) ينظر: المبدع، ١ / ٤٤١.

(٢) ينظر: المبدع، ١ / ١٤٤، المغني، ١ / ٢٨٩.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ينظر: مغني المحتاج، ١ / ١٦٠، نهاية الزين، ص: ٦٢، المجموع، ٣ / ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٥) ينظر: المبدع، ١ / ٤٤١، الكافي في فقه ابن حنبل، ١ / ١٣٣، كشف القناع، ١ / ٣٤١.

(٦) ينظر: كشف القناع، ١ / ٣٤١.

(٧) صحيح البخاري، ٦ / ٢٦٥٧، رقم الحديث: (٦٨٥٨)، صحيح مسلم، ٢ / ٩٧٥، رقم الحديث: (١٣٣٧).

(٨) ينظر: المبسوط للسرخسي، ٢ / ١٣٣.

(٩) ينظر: المصدر نفسه، ٢ / ١٣٣.

إذ نقله من شرح المجمع عن المحيط قائلًا:
(الصحيح أنها موجبة اتفاقًا) (٤).

فهذا التعارض الحاصل، لا حل لنزاعه
إلا بالتوفيق بينهما؛ بأن نحمل كلام صاحب
(المحيط) على عدم علمه برجوع أبي حنيفة إلى
قول صاحبيه، لاسيما وإنه قد انفرد بنقله هذا عن
بقية الفقهاء، وهذا ما أراه، والله تعالى أعلم.

المبحث الخامس

مس المصحف المُترجم من غير طهارة

اختلف الفقهاء في هذه المسألة إلى مذهبين:

المذهب الأول: وقد طرحوا هذه المسألة إلى
اتجاهين:

الاتجاه الأول: يجوز مس المصحف المترجم
من غير طهارة، وبه قال المالكية والحنابلة (٥).

وعَلَّلوا رأيهم: بأن ما نقل إلى غير العربية
لا يعدّ قرآنًا، ولا يُسمَّى به؛ بل هو تفسير لمعاني
القرآن، وعلى هذا فلا يأخذ المصحف المُترجم

الرأي الثاني: أن السجدة تجب على القارئ
والسامع إذا فهما آية السجدة، أما إذا لم يفهماها
فلا، وعلى هذا لو قرأ القارئ آية السجدة بلغة
أعجمية، وأخبر أنها آية سجدة، فلا تجب عليه ما
دام لم يفهماها، وبه قال أبو يوسف ومحمد (١).

وعلى أبو يوسف ومحمد ذلك: بأن القراءة
بالفارسية (ليست بقرآن على الإطلاق، ولهذا
لا يتأدَّى بها - عندهما - فرض القراءة في حق
من يعرف العربية، ويتأدَّى في حق من لا يعرف
العربية، فكذاك يجب بهذا السماع السجدة على
من يعرف ذلك) (٢).

فإذا عرفنا هذا فإننا الآن أمام مشكلة؛ هي أن
بعض الفقهاء ذكر: أن الإمام أبا حنيفة قد رجع
إلى قول أبي يوسف ومحمد، مؤكدين أن هذا
القول هو المعتمد، وقد ذكر هذا بعض فقهاء
المذهب في كتبهم (٣).

وبالمقابل نجد البعض يقول: إن الصحيح:
أنها موجبة اتفاقًا، وعليه فلا خلاف حاصل بين
أبي حنيفة وصاحبيه، وهذا ما أورده ملا خُسرُو،

(١) المبسوط للسرخسي، ٢/ ١٣٣، البحر الرائق، ٢/ ١٣٠، حاشية ابن عابدين، ٢/ ١٠٥، حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح، ١/ ٣١١، شرح فتح القدير، ٢/ ١٣، بدائع الصنائع، ١/ ١٨٠-١٨١، الجوهرة النيرة، ١/ ٨١، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، ١/ ١٥٦-١٥٧.

(٢) المبسوط للسرخسي، ٢/ ١٣٣.

(٣) ينظر: حاشية ابن عابدين، ٢/ ١٠٥، حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح، ١/ ٣١١، الجوهرة النيرة، ١/ ٨١.

(٤) درر الحكام شرح غرر الأحكام، ١/ ١٥٥-١٥٦.

(٥) مواهب الجليل، ١/ ٣٠٤، حاشية الدسوقي، ١/ ١٢٥، بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، ١/ ١٤٩-١٥١، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، ١/ ٤٣٣.

حكم القرآن^(١).

قال الدسوقي: (وأما لو كُتِبَ -أي المصحف- بالعجمي، لجاز للمحدث مسه؛ لأنه ليس بقرآن؛ بل هو تفسير للقرآن)^(٢).

الاتجاه الثاني: لا يجوز لغير الطاهر أن يمسّ المصحف المترجم إذا كانت الترجمة تحت سطور القرآن، وهو قول الجاوي من الشافعية^(٣).

قال الجاوي: (أما ترجمة المصحف المكتوبة تحت سطور، فلا تعطي حكم التفسير؛ بل تبقى للمصحف حرمة مسه وحمله، كما أفتى به السيد أحمد دحلان، حتى قال بعضهم: إن كتابة ترجمة المصحف حرام مطلقاً، سواء كانت تحته أم لا، فحينئذ ينبغي أن يُكتَبَ بعد المصحف تفسيره بالعربية، ثم يُكتَبَ ترجمة ذلك التفسير).

ولم يذكروا أي دليل أو تعليل لما ذهبوا إليه سوى بقاء حرمة المصحف، ويبدو لي من هذا النص أنه يجيز مس المصحف المترجم إذا كان خارج سطور القرآن، وإن بقاء الحرمة متعلق

بنص القرآن نفسه المكتوب بالعربية، وليس بالمترجم منه، فإذا كان كذلك فلا اختلاف بين الرأيين في جوهر المسألة؛ وإنما هما اتجاهاً في طريقة عرضها.

المذهب الثاني: لا يجوز مس المصحف المترجم من غير طهارة، وهو قول الحنفية^(٤).

وعلموا قولهم بأن القرآن له حرمة ولو كان مترجماً، حتى أن أبا حنيفة وصاحبيه أجازوا لمن عجز عن قراءة القرآن بالعربية، أن يقرأ به مترجماً في الصلاة، بل إن أبا حنيفة كان يقول بجواز القراءة به مطلقاً قبل الرجوع إلى قول صاحبيه^(٥).

قال ابن نجيم: (ولو كان القرآن مكتوباً بالفارسية؛ يحرم على الجنب والحائض مسه بالإجماع، وهو الصحيح، أما عند أبي حنيفة فظاهر، وكذلك عندهما؛ لأنه قرآن عندهما، حتى يتعلق به جواز الصلاة في حق من لا يحسن العربية)^(٦).

(١) ينظر: مواهب الجليل، ١/ ٣٠٤، حاشية الدسوقي، ١/ ١٢٥، بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، ١/ ١٤٩-١٥١.

(٢) ينظر: حاشية الدسوقي، ١/ ١٢٥.

(٣) ينظر: نهاية الزين، ص: ٣٣.

(٤) ينظر: النهر الفائق شرح كنز الدقائق، ١/ ١٣٤، الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ص: ٤٤، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ١/ ٢١٢، الدر المختار مع حاشية ابن عابدين، ١/ ٢٩٢، الفتاوى الهندية، ١/ ٣٩.

(٥) ينظر: النهر الفائق شرح كنز الدقائق، ١/ ١٣٤، الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ص: ٤٤، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ١/ ٢١٢، الدر المختار مع حاشية ابن عابدين، ١/ ٢٩٢.

(٦) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ١/ ٢١٢.

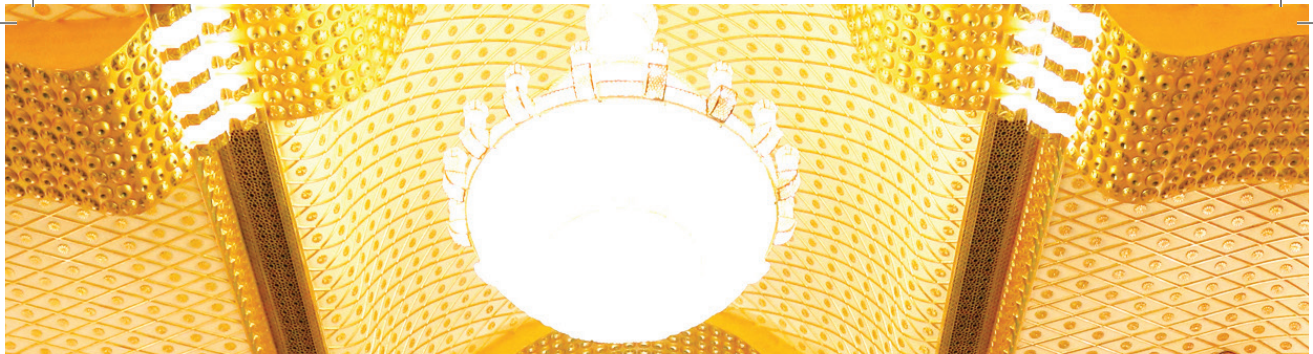
لا سيما وإن قول الله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١)، حملها بعض المفسرين على القرآن المكتوب، فعلى ضوء هذا القول قد حرّم الفقهاء أن يمسّ الكافر كتاب القرآن، فلو اعتبرنا المصحف المترجم قرآناً، فإننا سنعطّل جانب الدعوة إلى الله من خلال مطبوعات التفسير المترجمة، وهذا بعيد عن مقاصد الشريعة الإسلامية.. والله تعالى أعلم.

ويمكن الإجابة عليهم بما مضى بيانه: من أن المصحف المترجم من قبيل التفسير، وليس أبداً من القرآن، وكذلك مضى القول: إن ذكر الله هو البديل لمن عجز عن قراءة القرآن في صلاته باللغة العربية.

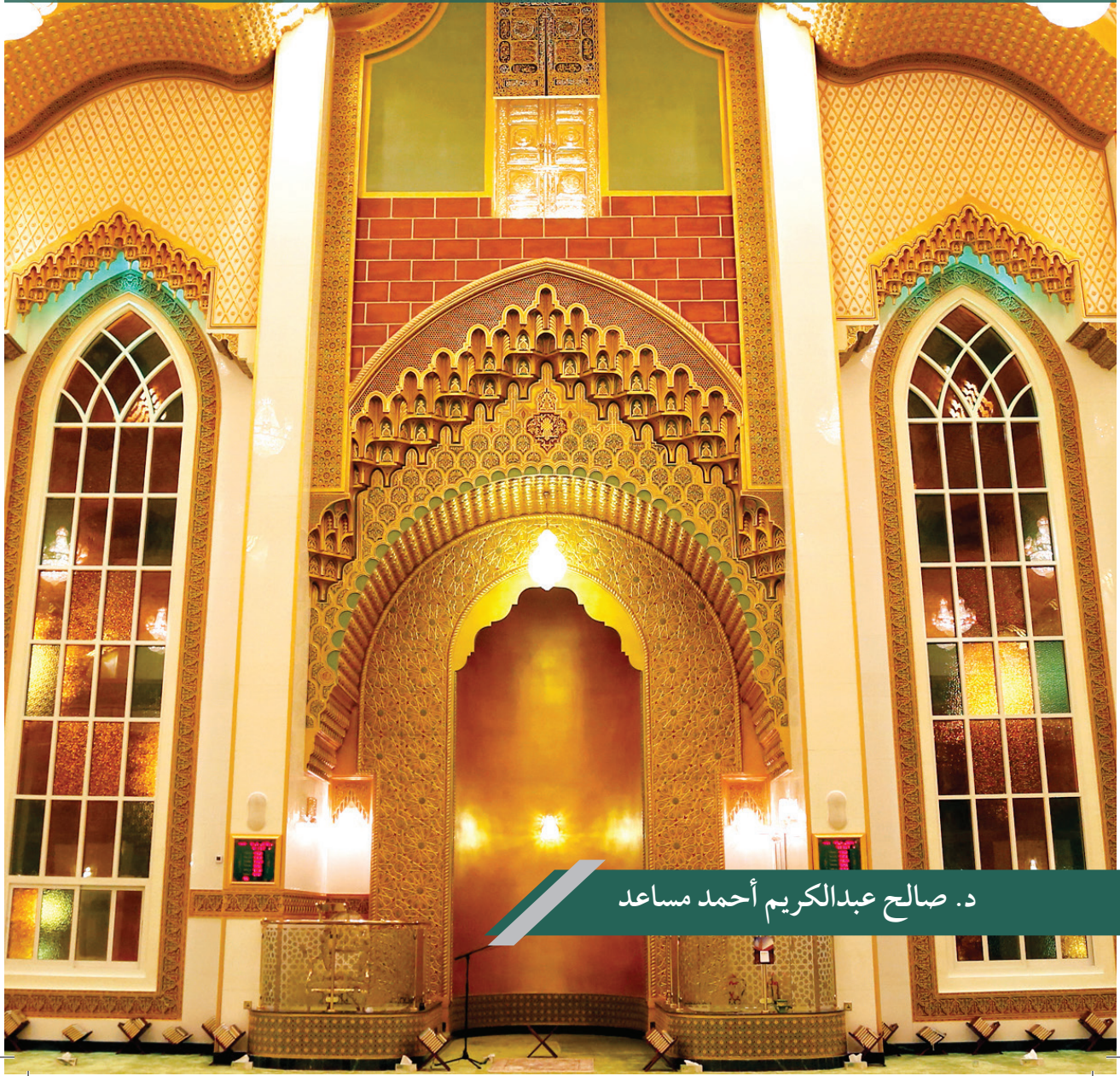
الرأي الرابع: مما سبق يبدو لي جواز مس المصحف المترجم من دون طهارة؛ لقوة الاتجاه الذي عدّ المصحف المترجم من قبيل التفسير، وليس من القرآن، كما وقد حكم جمهور الفقهاء في الرابع على جواز مس كتب التفسير للمحدث.



(١) ينظر: سورة الواقعة، الآية: ٧٩.



أثر النقد في العلوم الإسلامية في إبراز المنهج الوسطي



د. صالح عبدالكريم أحمد مساعد

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ومنّ علينا بأن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، وأصلي وأسلم على خير مبعوث بعث لخير أمة؛ نبي الهدى والرحمة صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه وأزواجه أجمعين.

أما بعد:

العظيمة مما كان له كبير الأثر في الواقع.

وقد جعلت البحث في الأقسام الآتية:

الأول: المفهوم العام للنقد ومقاصده.

الثاني: مفهوم المنهج الوسطي ومجالاته.

الثالث: مظاهر الوسطية في النقد.

الرابع: نماذج مشرقة في الوسطية.

الخامس: آثار المنهج الوسطي في نقد العلوم الإسلامية.

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل ما في هذه الورقات إضافة في باب المعرفة، ينفع الله تعالى بها في خضم هذا التهارج المعرفي بين أبناء الأمة الإسلامية.

القسم الأول:

المفهوم العام للنقد ومقاصده

والكلام في هذا القسم من جانبين:

أولاً: معنى النقد لغة واصطلاحاً:

معناه في اللغة: إبراز الشيء وإظهاره، قال ابن فارس: (النون والقاف والdal، أصل صحيح

فإن من مفاخر هذه الأمة تواضيها بالخير ونصح بعضها لبعض في جوانب شتى من جوانب الخير، ومن وجوه النصح والدلالة جانب المعرفة والعلم بشتى فنونه وأنواعه، وهو ما اصطلاح عليه العلماء بالنقد، ولا زالت الأمة من أجيال متعاقبة منذ أن بدأت عجلة التصنيف في العلوم الإسلامية تولي الاهتمام بذلك التراث من عناية وإبراز ونشر وتعقب واستدراك، فبرزت مصنفات وعلوم جراء الاستدراك والنقد لذلك التراث.

والناظر في هذه الدراسات والمصنفات التي كان المقصود منها تقييم التراث الإسلامي ونقده يجدها مناهج ومشارب تتفاوت بين الشدة واللين والاعتدال، من مقتصد على التراث لا يمسسه بشيء يرى قداسته وعصمته، وهذا مسلك أهل التقليد، وآخر ديدنه إسقاط علوم الآخرين.

وبين هذا وهذا ظهر لنا من بين هذه المصنفات نماذج راعت حق العلماء وأنصفتهم في مقالاتهم، وفرقت بين الخلاف السائغ وغيره، وراعت القواعد في مسائل الخلاف، فظهر من ذلك منهجٌ وسطي معتدل برز فيه من المجالات والمظاهر

يدلُّ على إبراز شيء وبروزه^(١).

وقد يطلق على المناقشة، كما قال ابن منظور: (ونقد الدراهم؛ أي: أخرج منها الزيف، وناقذت فلاناً، إذا ناقشته بالأمر)^(٢).

التناصح بين المسلمين، وبيان الخطأ لهم؛ لأن المسلم إذا سكت عن الأخطاء كثرت وانتشرت في المجتمع، والنصح يدل على الرحمة بالآخرين، والرغبة لهم في التطوير والرقى.

وأما معناه في الاصطلاح فهو: (موقف كلي متكامل يتبدأ بالقدرة على التمييز، ويعبر منه إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، كي يتخذ الناقد منهجاً واضحاً مؤصلاً على قواعد جزئية أو عامة)^(٣).

ثانياً: مقاصد النقد.

لابد للناقد من تحديد هدفه من النقد، وإلا كان عمله وجهده عبثاً لا قيمة له، ومن أبرز مقاصد النقد التي قررها العلماء والباحثون ما يلي:

بيان الحق: من مقاصد النقد بيان الحق والوقوف عليه، فهذا من المقاصد التي دعت إليها الشريعة، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ففي الآية حث من الله تعالى أن تنتدب طائفة من هذه الأمة للدعوة لبيان وجه الحق والخير والتحذير من الخطأ، بل إن الله عز وجل جعل الخيرية في هذه الأمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فيبرئ المسلم ذمته ويخرج من التبعة.

النصيحة: فمما قررته النصوص الشرعية في كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ مشروعية التواصل والتناصح بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وفي الحديث عنه ﷺ: (الدين النصيحة)^(٤). لذا كان من أهمية النقد ومقاصده تحقيق هذا المقصد الشرعي العظيم الذي هو

تعيين الخطأ: في استخدام النقد بأدواته الصحيحة واستكمال آتته في الناقد والباحث، يستطيع الناقد الوقوف على وجه الحق في المسألة، وبيان الوجه المرجوح، ومن نظر إلى التراث الإسلامي يجد ذلك جلياً، حيث ظهرت

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٢/ ٥٧٧).

(٢) لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٢٥٤).

(٣) بتصرف من كتاب تأريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس (٥).

(٤) صحيح مسلم (٢٠٥) باب: بَيَانُ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، من حديث تميم الداري.

والتفريط^(٢).

ومن هذا التعريف يتجلى بوضوح أنه لا تعارض بين النقد والوسطية، فالوسطية سبيل من سبل النقد البناء الذي يكون مقصده بيان الحق مع حفظ حق من توجه إليه النقد.

وسبب ذلك أن البعض لا يريد أن يسمع النقد أبداً، ويعتبره مخالفاً للوسطية وانتقاصاً للآخرين، ولا شك أن هذا يخالف الشرع والفطرة والواقع، وصاحب هذه المقالة منغمس في وحل التقليد.

ثانياً: مجالات الوسطية في النقد:

للووسطية في النقد مجالات كثيرة، منها:

الوسطية في نقد رواية الأحاديث.

المتقرر في كتب الجرح والتعديل أن أقوال النقاد للرواة تدور على ثلاث مدارس، الأولى: المتشددون في الجرح والتعديل كابن معين والجوزجاني وشعبة بن الحجاج وغيرهم، ومدرسة الاعتدال كالإمام مالك والإمام أحمد والبخاري، ومدرسة المتساهلين كابن شاهين والعجلي وغيرهما، ومن نظر في كتب المتأخرين التي جمعت ولخصت أقوال النقاد في الرواة

الكثير من الحقائق العلمية في شتى وجوه المعرفة في التفسير والحديث والفقه وغيرها من علوم الشريعة.

الدفاع عن أهل العلم: فقد يكون النقد أداة لإظهار صحة علوم الآخرين، وبيان وجهة نظرهم وسبب قولهم فيما انتقد عليهم، ولا يظهر هذا المقصد إلا من أهل الإنصاف والوسطية.

القسم الثاني:

مفهوم المنهج الوسطي ومجالاته.

والكلام في هذا القسم من جهتين:

أولاً: معنى الوسطية لغةً واصطلاحاً:

لغة: ترجع الوسطية في أصل وضعها اللغوي إلى مادة (وسط)، وتدل هذه المادة على جملة من المعاني المتقاربة في دلالتها، ومنها: العدل، والخيار، والتوسط بين الجيد الرديء^(١).

اصطلاحاً: للوسطية تعريفات كثيرة عند العلماء في الاصطلاح لا تخرج عن المعنى اللغوي، ومن أمثل هذه التعاريف للوسطية أنها: (سلوك محمود يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين متقابلين تتجاذبهما ذيلتا الإفراط

(١) تاج العروس، مرتضى الزبيدي (٢٠/١٦٧-١٨٢).

(٢) الوسطية مفهومًا ودلالة، د. محمد ويلالي، بحث منشور على موقع الألوكة.

المذهبية^(٢).

يرى أنهم يعتمدون على مدرسة الاعتدال في نقد وتقييم الرواة^(١).

الوسطية في نقد الجماعات العاملة في الساحة .

الوسطية في نقد العلماء.

ظهرت في الساحة الإسلامية كثير من الجماعات التي نذرت نفسها للدفاع عن القضايا الإسلامية حسب الظروف التي نشأت فيها، ولذا يجد الناظر الاختلاف في مناهجها وأدبياتها باختلاف الظروف التي نشأت فيها، وقد أثرت سلباً في الساحة لما حصل من الجمود عند المنتسبين لها وعدم قبول الآخر، وعدم الوسطية في النقد لها من خارجها، ولو أنصف الناقد لهم وفرق بين ذواتهم وجهودهم، وقيل العقلاء العاملون في هذه الجماعات النقد لحصل خير كثير في المجتمع.

الوسطية في التعامل مع أهل الولاية الشرعية.

أمر الإمامة والولاية عظيم، وتظهر الخطورة فيها بين من يقدم مصالحه الشخصية على المصلحة العامة، فيقع في المداينة والنفاق والتضليل، وبين فئة أخرى تسلك المنابذة والمصادمة والخروج على ولاة الأمر، فيقع الاضطراب والفوضى وسفك الدماء، والوسطية معهم هو النصح والبيان والتعاون مع ولاة الأمر على البر والتقوى.

جهود العلماء كثيرة في سائر العلوم الإسلامية في العقيدة والفقه والحديث والتفسير، والوسطية مع هؤلاء العلماء بيان وجه الخطأ فيما ذهبوا إليه مع حفظ قدرهم وحقهم.

الوسطية في التعامل مع الاختلافات الفقهية.

استقرت الأمة في الفقه العملي على ما قرره الأئمة الأربعة وما حرره المجتهدون من أتباعهم، ومع تطاول القرون وظهور بعض النوازل الفقهية خرجت مناهج تطالب بنبذ المذاهب والرجوع بالناس إلى كتب الحديث والأثر، وآخرون يرون البقاء على نصوص المذاهب وأنها مناسبة لكل زمان ومكان، والوسطية بين الفئتين؛ لأن كلام علماء المذاهب مطلوب فهمه، فهم الذين فهموا الشريعة وصورها، لكن لكل زمان أحكام، ولكل زمان فهم، والشريعة منوطة بالمقاصد وتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فلا بد من النظر في النصوص؛ لأن النصوص واسعة تسع الأزمنة، والأخذ بكلام العلماء مطلوب في فهم تلك النصوص، فالإسلام وسط في المذهبية ما بين معطلة المذاهب، وما بين الغلاة في

(١) ومن ذلك أحكام الإمام الذهبي، والحافظ ابن حجر العسقلاني.

(٢) بتصرف من كتاب الوسطية والاعتدال، صالح آل الشيخ (٣٢-٣٣).

القسم الثالث:

سَبِيلُ اللَّهِ ﷻ [ص: ٢٦].

مظاهر الوسطية في النقد .

من خلال تعريف النقد والوسطية وذكر مجالاته تظهر لنا معالم الوسطية من خلال المعالم والصفات الآتية التي يجب أن تتحلى في الناقد:

التجرد وصحة القصد:

والمقصود أن الناقد في العلوم الإسلامية يجب عليه أن يترفع عن حظوظ نفسه من العداوة والمحابة، وأن يكون مقصوده إظهار الحق وبيانه، فإن خالف هذا المقصد العظيم وقع في التحامل أو المحابة، وهذا مسلك نهت عنه نصوص الشريعة، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِأَلْقُسُطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

كل هذه النصوص تدل بجلاء على وجوب التخلص من العواطف القلبية والمواقف الشخصية مما قد تسبب الخطأ في النقد والتقويم وإهمال العدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قوله ولا فساد، إلا إذا كان ذلك بهدى من الله، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] ^(١).

وقال رحمه الله: (ثمَّ القائل في ذلك بعلم لا بد له من حسن النية، فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض أو الفساد كان بمنزلة الذي يقاتل حمية ورياء، وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين كان من المجاهدين في سبيل الله، من ورثة الأنبياء، خلفاء الرسل) ^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: (ولا يتمكن من الفصل بين المقالين إلا من تجرد لله مسافراً بعزمه وهمته إلى مطلع الوحي، منزلاً نفسه

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٤/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٣٥).

فكلما كان النقد علمياً مدلولاً بالحجج والبراهين والحث على التفكير كان أدعى للوقوف على الصواب؛ لأن النقد إذا كان عن جهل بالعلم الذي تصدئ لنقده أورث التعب والمشقة، وآل إلى الفرقة والخلاف، وأضاع الهدف والغاية التي هي من أعظم مقاصد النقد ألا وهي إظهار الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والإنسان لو أنه ينظر المشركين وأهل الكتاب لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه والباطل الذي معهم. فقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِلَاقِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] (٥).

وقال أيضاً -أي شيخ الإسلام-: (وليحذر العبد مسالك أهل الظلم والجهل الذين يرون أنهم يسلكون مسالك العلماء، تسمع من أحدهم جعجعة ولا ترى طحناً، فترى أحدهم أنه في أعلى درجات العلم وهو إنما يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، ولم يحم حول العلم الموروث عن سيد ولد آدم ﷺ، وقد تعدئ على الأعراض

منزلة من يتلقاه غضاً طرياً من في رسول الله ﷺ يعرض عليه آراء الرجال ولا يعرضه عليها، ويحاكمها إليه ولا يحاكمها إليها) (١).

لذا قرر الإمام الذهبي هذا الأصل العظيم بعبارة النفيسة: (والكلام في الرجال لا يجوز إلا لتام المعرفة تام الورع) (٢).

العلمية والتصور الصحيح لموارد النزاع:

من يدخل في غمار نقد الآخرين لا بد له من أمرين مهمين:

الأول: العلم في الفن الذي يقصد الكلام والتعقب فيه فيما يتعلق بكلياته وجزئياته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم) (٣).

وقال ابن القيم: (والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال كفقهاء في كليات الأحكام ضيع الحقوق) (٤).

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم (٤/ ٥١٤).

(٢) ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٩/ ٢٠٣).

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ١٠٤).

(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٤/ ١٨٦-١٨٧).

ارتفع النزاع^(٢).

وقد قرر رحمه الله هذا الأصل العظيم في تناوله للفتنة التي حصلت للإمام البخاري، وما وقع عليه من الظلم إنما هو من جنس الجهل بتصور المسألة ومورد النزاع فيها، فقال رحمه الله: (وليس الأمر كما قال هؤلاء، فإن أعلم الناس بأحمد وأخص الناس وأصدق الناس في النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه، ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق الذين هم أخص به، وأعظم ما وقع فتنة اللفظ بخراسان، وتُعَصَّبَ فيها على البخاري مع جلالته وإمامته، وإن كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة أجلاء، فالبخاري رضي الله عنه من أجل الناس)^(٣).

محاكمة العالم بأصوله ومراده لا بفهم الناقد وتخمينه.

من قواعد الوسطية في النقد أن لا ينسب الغلط إلى العالم إلا بعد تصور مراده من كلامه تصوراً تاماً، فيفهم مراد المتكلم من كلامه وتفسيره، ويحكم بأصوله ومقصوده، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتصحيح الكلام على أصول قائله، وحمله على أفضل الوجوه إن أمكن ذلك^(٤)، قال شيخ الإسلام

والأموال بكثرة القيل والقال، فأحدهم ظالم جاهل لم يسلك مسلكاً في كلامه مسلك أصاغر العلماء، بل يتكلم بما هو من جنس كلام العامة الضلال والقصاص والجهال، ليس في كلام أحدهم تصوير للصواب ولا تحرير للجواب كأهل العلم أولي الألباب، ولا عنده خوض العلماء أهل الاستدلال والاجتهاد، ولا يحسن التقليد الذي يعرفه متوسطة الفقهاء لعدم معرفته بأقوال الأئمة وما أخذهم^(١).

الثاني: التصور الصحيح لموارد النزاع، مما يقلص فجوة الخلاف في العلوم والمعارف معرفة الصورة المتنازع عليها، وتصورها تصوراً صحيحاً، فهذا يسهل على الباحث والناقد الوقوف على الخطأ أو المراد الذي يقصد التنبيه عليه، فإذا أخل الباحث بهذا الأصل خرج عن المقصود وجاوز العدل والإنصاف.

لذا يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأصل المهم بقوله: (إن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهم لا يتصورون موارد النزاع تصوراً بيناً، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين اللذين قالاهما، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بُيِّنَ فسادُه

(١) الرد على البكري، ابن تيمية (١/ ١٧٠-١٧١).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٢/ ٥٧).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٥٧).

(٤) بتصرف من كتاب أصول نقد المخالف، فتحي الموصلي (٩٢).

الإنسان ينجذب بطبعه إلى القول اللين، فيسهل انقياده إلى الحق بذلك، أمّا مع الجفاء والغلظة والشدة في العبارات فلا تجني معه إلا النفرة والفتور والانغلاق عن سماع الحق والهدى^(٣).

وقد نبه إلى ذلك الإمام ابن الوزير في مسالك المناظرات والمحاورات، وذكر منها فقال: (أمّا النوع الأول: وهو التأليف والترغيب، فهو الدعاء إلى الحق بالملاطفة، وضرب الأمثال، وحسن الخلق، ولين القول، وحسن التصرف في جذب القلوب، وتمييل النفوس)^(٤).

فأمّا الغلو في الإنكار في النقد، والمبالغة في الزجر، فتؤول إلى إثارة الأحقاد، وحدوث العداوة والبغضاء، والانتصار للمذاهب، فيضيع الحق، قال الإمام الشاطبي: (إن الطعن والتقيح في مساق الرد أو الترجيح ربما أدى إلى التغالي والانحراف في المذاهب، زائداً إلى ما تقدم؛ فيكون ذلك سبب إثارة الأحقاد الناشئة عن التقيح الصادر بين المختلفين في معارض الترجيح والمحااجة. قال الغزالي في بعض كتبه: (أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق أظهروا الحق، في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا

ابن تيمية: (ومن أعظم التقصير نسبة الغلط إلى المتكلم مع إمكانية تصحيح كلامه، وجريانه على أحسن أساليب الناس، ثم يعتبر أحد الموضعين المتعارضين بالغلط دون الآخر)^(١).

وتصحيح كلام المتكلم وحمله على الصواب متوقف على العلم بحال المتكلم وسيرته وقصوده، فإذا علم مقصود المتكلم آنذاك يحمل عليه ويحكم به، فإذا قصد معنى صحيحاً قبل، وإلا يرد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند كلامه على ضلال الاتحادية: (وليس لهذه المقالات وجه سائغ، ولو قُدِّرَ أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحاً فإنما يحمل عليه إذا لم يعرف مقصود صاحبها، وهؤلاء قد عرف مقصودهم، كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة، ولهم في ذلك كتب مصنفة، وأشعار مؤلفة، وكلام يفسر بعضه بعضاً)^(٢).

استخدام الأساليب الحسنة في النقد:

من مقاصد النقد النصيح للآخرين، وبيان الحق في المسألة، ولا يتم ذلك إلا بتأليف قلبه وعدم تنفيره، واستعمال القول اللين والعبارات الحسنة، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ يَذَّكَّرْ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وذلك لأن

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١٤/٣١).

(٢) المصدر السابق (٣٦٠/٢).

(٣) بتصرف من كتاب فقه الحوار مع المخالف، فتحي الموصلي (٩٣-٩٤).

(٤) العواصم من القواصم، ابن الوزير (٢٢٨/١).

هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ [الزمر: ١٨] (٢).

والناقد إذا تحلى بذلك فقد خالف حظ نفسه، وتحلى بالتواضع وعلو الهمة.

الاعتذار للعلماء:

ويحسن أن تختتم هذه الصفات وهذه المعالم بهذا المعلم العظيم من معالم الوسطية وهو الاعتذار للعلماء، فمن معالم المنهج الوسطي في النقد معرفة قدر العلماء وحفظ حقوقهم، مع حراسة مقاصد الشريعة وحفظها من التبديل والتحريف، وما وقع الخطأ في النقد إلا في الإخلال بهذا الأصل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (نعوذ بالله سبحانه مما يفضي إلى الوقعة في أعراض الأئمة، أو انتقاص بأحد منهم، أو عدم المعرفة بمقاديرهم وفضلهم، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحبهم ويواليهم ويعرف من حقوقهم وفضلهم ما لا يعرفه أكثر الأتباع، وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

لكن دين الإسلام إنما يتم بأمرين:

أحدهما: معرفة فضل الأئمة وحقوقهم ومقاديرهم، وترك كل ما يجر إلى ثلمهم.

إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء؛ فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التي نطقوا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة، ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرًا في قلب مجنون فضلاً عن قلب عاقل). هذا ما قال، وهو الحق الذي تشهد له العوائد الجارية (١).

الاستعداد لقبول النتائج:

الناقد الموفق هو الذي وطّن نفسه على قبول الحق والانقياد له، واستعد لقبول النتائج عند ظهورها، ويدور مع الحق حيث دار، فبعض من تصدى لنقد غيره إذا بحث في المسألة ووجد أنه على صواب، لا يقر له بذلك، ويستمّر في النيل منه، وهذا مما يخالف الوسطية في النقد، ويوقع صاحبه في الجور، قال الخطيب البغدادي: (فينبغي لمن لزمته الحجة ووضحت له الدلالة أن ينقاد لها، ويصير إلى موجباتها؛ لأن المقصود من النظر والجدل طلب الحق، واتباع تكاليف الشرع، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ﴾).

(١) الموافقات، الشاطبي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي (٢/ ١١٢).

هؤلاء الأعلام:

الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٦٩هـ)،
والليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي
(ت ١٧٥هـ)، فمن مفاخر صور النقد التي نقلت
عن علماء الأمة ما كان بين هذين الإمامين من
مودعة ووفاء وتواصل وتناصح جمعا فيه كمال
الحرص على إظهار مسائل الدين، وحفظ حقوق
العلماء وظهور المودة في الخلاف، حيث أنكر
الإمام مالك على الليث بن سعد بعض المسائل
التي خالف فيها عمل أهل المدينة في رسالة
عظيمة تحمل معاني الأخوة ومحبة النصح، فمما
جاء في رسالة الإمام مالك لليث بن سعد: (كتبت
إليك وأنا من قبلي من الولدان والأهل على ما
تحب، والله محمود، جاءني كتابك تذكر من
حالك ونعم الله عليك الذي أنا به مسرور، وأسأل
الله أن يستمر علينا وعليك صالح ما أنعم به علينا
وعليك، وأن يجعلنا له شاكرين...)، (وكان
حبيب إلي حفظك وقضاء حاجتك وأنت لذلك
أهل...)، ((واعلم - رحمك الله - أنه بلغني أنك
تفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا،
وبلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك،
ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك،
واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف
على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه)، إلى

والثاني: النصيحة لله سبحانه ولرسوله
ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإبانة ما أنزل الله
سبحانه من البينات والهدى.

ولا منافاة أن الله سبحانه بين القسمين لمن
شرح الله صدره، وإنما يضيق عن ذلك أحد
رجلين: رجل جاهل بمقاديرهم ومعاذيرهم، أو
رجل جاهل بالشريعة وأصول الأحكام^(١).

وقال ابن القيم: (ومن له علم بالشرع والواقع
يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام
قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله
بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور
بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا
يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب
المسلمين)^(٢).

القسم الرابع:

نماذج مشرقة في الوسطية في النقد

مما تقدم عرضه من معالم الوسطية نقلت
لنا كتب التراث الإسلامي صوراً مشرقة لعلماء
الأمة الذين كان لهم جهد كبير في إبراز المنهج
الوسطي في النقد، حيث حافظوا بذلك على
قدر العلماء وحقوقهم مع حراستهم لمقاصد
الشريعة وحفظها من التبديل والتحريف، ومن

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية (٦/ ٩٣-٩٤).

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم (٥/ ٢٣٥).

أن ختم رسالته بقوله: (واعلم أي أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك والظن بك، فأنزل كتابي منك منزله، فإنك إن تفعل تعلم أي لم ألك نصحاً، وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله) (١).

فيأتي الجواب من الإمام الليث بن سعد: (سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك وقد أتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً إلا لأنني لم أذكرك مثل هذا، وأنه بلغك أي أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنا يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن

الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له...)، ثم ذكر الإمام الليث بن سعد مناقشته للإمام مالك في عمل أهل المدينة واختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ما يبرر به مخالفته في الفتيا لبعض عمل أهل المدينة... إلى أن ختم الرسالة ببيان ما للإمام مالك من منزلة والمكانة عند الإمام الليث بن سعد رحمه الله بقوله: (هذا وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استثناسي بمكانك، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أسرُّ بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك ورحمة الله) (٢).

إن مثل هذه الدرر التي بين هذين الإمامين

(١) المعرفة والتاريخ، للفسوي (١/ ٦٨٧-٦٩٧).

(٢) المعرفة والتاريخ، للفسوي (١/ ٦٨٧-٦٩٥)، ونقلها عنه الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٦٩-٧٣).

حنيفة^(٢)، ورثاه بأبيات عظيمة قال فيها:

لقد زان البلادَ ومن عليها

إمامَ المسلمينَ أبُو حَنيفةَ

بأحكامٍ وآثارٍ وفقهِ

كآياتِ الزُّبورِ عَلَى الصَّحيفةِ

فما بالمشرقين له نظيرٌ

ولا بالمغربين ولا بكوفةِ

فَرَحْمَةُ رَبِّنا أبدأَ عَلَيْهِ

مَدَى الأَيَّامِ مَا قُرِئَتْ صَحيفةُ^(٣)

وهكذا مع الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقد كان شديد الشناء عليه وعلى كتابه الموطأ، فمن أقواله في الإمام مالك: (إذا ذكر العلماء فمالك النجم)^(٤)، ويقول في الموطأ: (ما أعلم كتاباً تحت أديم السماء أصح من الموطأ)^(٥)، ولا يلقب مالك إلا بالأستاذ، وكان يخالف مالكاً في بعض الأدلة منها عمل أهل المدينة وبعض صور القياس، ومع ذلك إجلالاً له لا يرد عليه، ولمّا سكن مصر وحصل ما حصل ورأى من بعض المتعصبة للإمام مالك ما استنكره عليهم، أخذ

لتبيين لنا بجلاء صورة الوسطية في النقد التي تحرص على بيان وتحري وجه الحق مع حفظ حقوق العلماء وبيان قدرهم في الأئمة.

الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) كان من أجل علماء هذه الأمة، وله صلة وثيقة بالإمام مالك، وكذا بعلماء مدرسة الرأي بالعراق وفي مقدمتهم محمد بن الحسن الشيباني، وعاصر مدرسة الأثر والحديث برئاسة الإمام مالك في الحجاز، فجمع الله به بين المدرستين، ورد على الطائفتين، لكنه رحمه الله تعالى قد جمع في رده عليهم بأصول النقد والوسطية، فهو يحدث عن نفسه رحمه الله عندما طلب منه الرد على أهل العراق، أنّه لم يبادر في الرد عليهم إلا بعد أن يثبت من أقوالهم ويقف عليها، فقال: (اجتمع علي أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم، فأمرت فكتب لي كتب محمد ابن الحسن، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ثم وضعت الكتاب البغدادي يعني الحجة)^(١).

ومع ذلك يظل لهجاً بالثناء على أبي حنيفة، وقال عنه: (الناس عيال في الفقه على أبي

(١) توالي التأسيس، ابن حجر (١٤٧).

(٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١٥/٤٧٣).

(٣) ديوان الإمام الشافعي (٧١).

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم (٦/٣١٨)، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/٥٧).

(٥) ترتيب المدارك، القاضي عياض (٢/٧٠).

يظهر خلافه معه^(١)، وفي هذا يتبين بجلاء صورة الوسطية في نقد الإمام الشافعي للإمام مالك رحمهما الله تعالى، فمما جاء أنه مكث سنة كاملة يستخير الله تعالى في كتابة هذا المؤلف، قال: (استخرت الله في الرد على مالك سنة)^(٢)، مع محافظته على جلالته وقدره وحبه له.

الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ).

هذا الإمام عاش في فترة علمية زاهرة بالعلوم على اختلاف مذاهبها وعاصر مذهباً علمياً ظهر في الأندلس ألا وهو المذهب الظاهري على يد الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٨ هـ)، ولا يخفى على الباحث ما جرى لهذا الإمام من مناظرات ومنافرات مع فقهاء عصره، إلا أن التأريخ يحفظ لنا وسطية واعتدال الإمام ابن عبد البر في تعامله مع الفقه الظاهري، ومع الإمام ابن حزم خاصة كونه من أقرانه ومن المعاصرين له.

فقد لزم الإمام ابن عبد البر الموروث الفقهي لجماهير العلماء مع الإمامة في الحديث، ولم يؤل في التنبيه والنصح لصديقه من خلال التنبيه على أخطائه التي جاء بها وخالف فيها العلماء،

ومن أبرز ذلك مسألة القياس، فقد ردّ كثيراً مما قالته الظاهرية في باب القياس، وأثبت أن القياس أصل من أصول الشريعة المعمول بها، ونقل ذلك عن الصحابة والتابعين، ومع ذلك أنصف ابن حزم في تحرير القياس المقبول بأنه الذي وقع من أهل الاجتهاد على الأصول والحكم للشيء بحكم نظيره، بخلاف القياس المذموم فهو الذي وقع على غير أصل وكان على سبيل الظن^(٣).

ومن إنصاف الإمام ابن عبد البر ووسطيته في النقد أنه لمّا عدّ علماء أهل السنة القائلين بالقياس، بين أن من خالفهم في ذلك هو النظام من المعتزلة، ثم قال: (وتبعهم من أهل السنة على نفي القياس في الأحكام داود بن علي بن خلف الأصبهاني (ت ٢٧٠ هـ)، ولكنه أثبت الدليل، وهو نوع واحد في القياس)، ويحتاط ابن عبد البر في حكمه على داود بأنه اتبع المعتزلة، فيقول: (وداود غير مخالف للجماعة وأهل السنة في الاعتقاد والحكم بأخبار الأحاد)^(٤)، أي: إنما اتبع داود المعتزلة في هذه المقالة فقط التي هي نفي القياس في الأحكام.

وتبقى الألفة بينه وبين الإمام ابن حزم، وكل يثني على الآخر بسعة علمه، وكان ابن حزم يلقب

(١) توالي التأسيس، ابن حجر (١٤٧-١٤٨).

(٢) المصدر السابق (١٤٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (١٥١/٢-١٥٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر (١٣١/٢).

ابن منده بهوى (... إلى أن قال: (وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع، لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها... قلت: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعاب به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله) (٦).

وفي تعامله مع كتب التراجم قبله لا تخلو وسطيته من ثنائيه عليها، ومن التنبيه على ما وقع أصحابها فيها من الجنوح في بعض الأعلام، فمثلاً كتاب الضعفاء للعقيلي (ت ٣٢٢هـ) يقول عنه: (إن كتاب العقيلي مفيد) (٧)، إلا أنه لا يرضى عن بعض إطلاقاته في بعض الأئمة، ومن ذلك قوله مدافعاً عن الإمام علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ): (ذكره العقيلي في كتاب الضعفاء، فبئس ما صنع)، ورد عليه حينما نقل قول عبد الله بن أحمد بن حنبل: (كان أبي حدثنا عنه، ثم أمسك عن اسمه... ثم ترك حديثه)، بقوله: (بل حديثه عنه في مسنده)، وقال بعد ذلك: (وهذا أبو عبد الله البخاري وناهيك به قد شحن صحيحه

ابن عبد البر بـ (شيخنا) (١)، وقال ابن كثير عن ابن حزم: (وكان مصاحباً للإمام ابن عبد البر) (٢).

الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ).

هذا الإمام من الأئمة الأعلام الذين كان لهم باع كبير في تحرير أحوال الرواة والكلام في الأعلام (٣)، بل من جاء بعده كان عالماً عليه، قال السخاوي عن كتابه ميزان الاعتدال: (وعول عليه من جاء بعده) (٤).

ومما تميز به الإمام الذهبي رحمه الله تحريره في النقد وبيان وجه الجرح وإنصافه للراوي المترجم له، بل إنه ينصفه ويفرق بين مخالفته وروايته، من ذلك مثلاً ما ذكره في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي، قال: (شيعي جلد، ولكنه صدوق، فلنا صدقه، وعليه بدعته. وقد وثقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم) (٥).

وكذلك قوله في ترجمة أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: (أحد الأعلام، صدوق، تكلم فيه بلا حجة، ولكن هذه عقوبة من الله لكلامه في

(١) جذوة المقتبس، الحميدي (٢٣٦).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (١١٣/١٢).

(٣) الكلام على الإمام الذهبي مأخوذ بتصريف من مقدمة الدكتور بشار عواد معروف لسير أعلام النبلاء (٥٨/١-٦١).

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي (٥٨٧).

(٥) ميزان الاعتدال، الذهبي (٥٦/١).

(٦) ميزان الاعتدال، الذهبي (١١١/١).

(٧) ميزان الاعتدال، الذهبي (٢/١).

بحديث ابن المديني^(١).

القسم الخامس:

آثار المنهج الوسطي في نقد العلوم الإسلامية

إن التزام الناقد بمعالم الوسطية في النقد التي تراعي حق العلماء وتحرص على بيان الحق مقتضياً تلك النماذج العظيمة لعلماء الإسلام في نقدهم له آثار كبيرة على الساحة العلمية والعملية، ومن هذه الآثار:

الحفاظ على هبة العلماء بين الناس:

إن المحافظة على هبة العلماء في الوسط العلمي وبين الناس من الأمور المهمة التي يجب على الناقد الحرص عليها، وذلك لما لبقاء هيبتهم من صلاح في أمور الناس؛ ولأن في ذهاب القدوات خطراً كبيراً على المجتمع، لذا فإن وسطية الناقد لهم بإبراز مكانتهم وفضلهم وعدم النيل من ذواتهم والتشكيك في إخلاصهم، وبيان سبب خطئهم، والاعتذار لهم، مما يبقي أثر هؤلاء العلماء بين الناس، ويبارك للناقد فيما حرره من مسائل العلم التي انتقدها على العالم، فيحصل التنبيه على الخطأ وبيان الحق، وتبقى هبة العالم ومكانته بين الناس.

اجتماع الكلمة وبقاء الألفة.

النقد العلمي القائم على الوسطية يساعد على وحدة الصف وجمع الكلمة، وعدم التفرق، وتقريب وجهات النظر، وتجاوز العقبات، بل يكون جزءاً من التعاون العلمي الشرعي بين أفراد الأمة، قال ابن القيم: (فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هُدي لما اختلف فيه من الحق. فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً وأقومهم قيلاً، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضاً عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب...)^(٢).

تمييز الحق في المسائل العلمية.

النقد العلمي المؤسس على الوسطية من أنجح السبل لتمييز الحق من غيره، فبالنقد والحوار يحصل عرض الأقوال وأدلتها، ويدلي كل طرف بحجته، ويحصل بسبب ذلك المعارضة بين القولين وتمحيص الأدلة ومناطها، فيؤول النقد إلى إقامة أحد القولين، وإسقاط الآخر.

(١) ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ١٣٨-١٤٠).

(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم (٢/ ٥١٦-٥١٧).

الفقه وعلم مصطلح الحديث.

نتائج:

* نقد العلوم الإسلامية ضرورة خاصة في مثل هذه الأيام التي كثر فيها أدعياء العلم.

* لا تعارض بين النقد والوسطية، فالوسطية سبيل من سبل النقد البناء في إظهار الحق وحفظ حق العلماء.

* المنهج الوسطي في النقد يقوم على المحافظة على قدر العلماء وحقوقهم، مع حراسة مقاصد الشريعة وحفظها من التبديل والتحريف.

* أهمية الدراسة الاستقرائية لمناهج العلماء في النقد وإبرازها لطالبي المعرفة.

قال ابن القيم: (فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار)^(١).

الابتعاد عن الغلو في تصدير الأحكام.

مما ابتليت به الساحة العلمية قديماً وحديثاً الغلو في تصدير الأحكام على الآخرين ورميهم إماً بالجمود ومخالفة السنة كمن ينال من الفقهاء، وآخرون ممن بالغوا في نقد أصحاب الظاهر ووصفهم بعدم الفقه، وهكذا كما مر في نقل النماذج في بيان منازل العلماء في النقد، والمنهج الوسطي يخفف من هذا الغلو ويضع الأمور في نصابها، بعد التصور الصحيح للأمور وعدم العجلة، وفق منهج علمي رصين؛ لأنه لا بد من بيان الحق؛ لأن هذا من الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم، ولا بد من حفظ مكانة أهل العلم، فلا ينال من دينهم ولا من عرضهم.

استخراج دقائق العلم، وإزالة الغموض وتبيين المجمل.

الملاحظ على المؤلفات التي كتبت في نقد العلوم الإسلامية يجد أن فوائد كثيرة من مسائل العلم تظهر من خلاله، بل إن كثيراً من العلوم ظهرت وانتشرت بسبب النقد الهادف بين العلماء في الجيل الأول، ومن ذلك علم أصول

(١) بدائع التفسير، ابن القيم (١/١٥٢).

هاؤم اقرؤوا ديننا (الحلقة ٢)



الشيخ خالد جذع السعدون

بَعْضُهُمْ إِلَى بَنَلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهَا، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ
فَزَع، فَصَحَّكَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: مَا يُصَحِّحُكُمْ؟ فَقَالُوا:
لَا، إِلَّا أَنَا أَخَذْنَا بَنَلٍ هَذَا فَفَزَع، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوَّعَ مُسْلِمًا^(١).

وروى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِيهِ،
عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَأْخُذُ
أَحَدُكُمْ عَصَا أَخِيهِ لَا عِبًّا أَوْ جَادًّا، فَمَنْ أَخَذَ عَصَا
أَخِيهِ فَلْيُرِدَّهَا إِلَيْهِ»^(٢).

ومن هذا الباب نهى ﷺ عن تعاطي السيف
مسلولاً:

فعن أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولاً»^(٣).

بل وقد نهى رسول الله ﷺ حتى عن الإشارة
بالسلاح:

فقال لأصحابه: «لَا يَشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ
بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي

تحدثنا في الحلقة السابقة عن بعض خصائص
الإسلام في باب الإحسان والرحمة، وفيما يأتي
نذكر بقية الخصائص:

(الإسلام حَارَبَ أَصُولَ الشَّرِّ فَضْلًا عَنْ فُرُوعِهِ):

فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَعْلَمَهُ رَبُّهُ مِنْ
تَرَبُّصِ الشَّيْطَانِ بِنَبِيِّ آدَمَ، فِيهِتَبِلُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ
الْفُرْصَةَ لِلْإِقْصَاعِ بِهِمْ جُرْأَةً فِعْصِيَانًا، ثُمَّ ابْتِدَاعًا
فَفُجُورًا وَكُفُورًا، وَيُصَدِّقُ هَذَا قَوْلُ رَبِّنَا تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨٢) إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[سورة ص: ٨٢-٨٣]

لِذَا فَقَدْ كَانَ يَنْهَى عَنْ تَرْوِيعِ النَّاسِ وَلَوْ
بِالْمَزَاحِ:

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى: «حَدَّثَنَا
أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ، فَتَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤)، وفي سنن أبي داود (٥٠٠٤): «فَتَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبَلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ، فَفَزَعَ».

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٠)، وأحمد (١٧٩٤٠) والطبراني (١٣٩٨) والبخاري في الأدب (٢٤١) وأبو داود (٥٠٠٣).

(٣) رواه أحمد (١٤٢٠١)، والطبراني (١٨٦٦) وابن أبي شيبه (٢٥٥٧٣) وأبو داود (٢٥٨٨) والترمذي (٢١٦٣)، وللحديث قصة،
فعند أحمد من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى (١٤٩٨٠) وأبي الزُّبَيْرِ (١٤٩٨١) كلاهما عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ فِي
مَجْلِسٍ يَسْلُونُ سَيْفًا، يَتَعَاظُونَ بَيْنَهُمْ، غَيْرَ مَعْمُودٍ، فَقَالَ: أَلَمْ أَزْجُرْكُمْ عَنْ هَذَا؟ فَإِذَا سَلَّ أَحَدُكُمْ السَّيْفَ فَلْيُعْمِدْهُ، ثُمَّ لْيُعْطِهِ أَخَاهُ»
وصححه ابن حبان (٥٩٤٣) من طريق أبي الزبير، ووافقه الذهبي.

وفي مسند أحمد (٢٠٤٢٩) من طريق المبارك قال: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرَةَ، قَالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمٍ
يَتَعَاظُونَ سَيْفًا مَسْلُولًا، فَقَالَ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ أَوْ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُمْ عَنْ هَذَا؟! ثُمَّ قَالَ: إِذَا سَلَّ أَحَدُكُمْ سَيْفَهُ، فَتَطَرَّ إِلَيْهِ، فَأَرَادَ أَنْ
يُنَازِلَهُ أَخَاهُ، فَلْيُعْمِدْهُ، ثُمَّ يُنَازِلْهُ إِيَّاهُ»، وصححه الحاكم في المستدرک (٧٧٨٦) ووافقه الذهبي.

يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»^(١).

ومن أشار إلى أخيه بشيءٍ فاللعنُ جزاؤه:

كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدْعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»^(٢).

ونهى عن الكلام القبيح وإن كان يسيراً:

وهذا لأن الشيطان حال الطيب من الكلام لا يجد منه مسلماً، وإنما هو يهتبل من كلام السوء ما تهدم به البيوت، ولو كان أصله مباحاً، ولكن قد يحتمل سوءاً، فيعمل عليها الشيطان قُصوراً من الشرِّ، فيحمل الكلام ما لا يحتمل:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٣].

ومثله قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٣).

عبادات الإسلام تهذب المسلم وتمنعه من الإفساد والعدوان:

ثم إن من جمال الإسلام وسلمه أن غالب عباداته إن لم يكن كلها، بل كلها ما فرضت إلا لتهديب أخلاق المسلم مع الناس، ذلكم بأن من يعبد الله كما يحب ربنا فجزاؤه أن تهذب أخلاقه، فمن أصلح ما بينه وبين ربه بالعبادة أصلح الله له ما بينه وبين الناس بحسن الخلق، فيجعله نفاعاً كريماً مسالماً صالحاً محبوباً ببذله وعطائه ومواساته لغيره، فخذ مثلاً الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]. فالصلاة التي يريد بها الله هي التي تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وإلا فليست هي الصلاة.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٠٧٢): (قوله: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ» كَذَا فِيهِ بَيِّنَاتُ الْبَاءِ! وَهُوَ نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ، وَوَقَعَ لِبَعْضِهِمْ لَا يُشِيرُ بِغَيْرِ بَاءٍ وَهُوَ بَلْفُظُ النَّهْيِ وَكِلَاهُمَا جَائِزٌ، قَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ» بِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ، قَالَ الْخَلِيلُ فِي الْعَيْنِ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْقَوْمِ نَزْعًا: حَمَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْفَسَادِ،.. وَفِي رَوَايَةِ الْكُشَيْبِيِّ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَمَعْنَاهُ: قَلَعَ وَنَزَعَ بِالسَّهْمِ، رَمَى بِهِ وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يُغْرِي بَيْنَهُمْ حَتَّى يَضْرِبَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بِسَلَاحِهِ، فَيَحَقِّقَ الشَّيْطَانُ ضَرْبَهُ لَهُ، وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: مَعْنَى يَنْزِعُهُ يَقْلَعُهُ مِنْ يَدِهِ فَيَصِيبُ بِهِ الْآخَرَ، أَوْ يَشُدُّ يَدَهُ فَيَصِيبُهُ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: ضَبَطْنَاهُ وَنَقَلَهُ عِبَاضٌ عَنْ جَمِيعِ رَوَايَاتِ مُسْلِمٍ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَمَعْنَاهُ يَرْمِي بِهِ فِي يَدِهِ وَيَحَقِّقُ ضَرْبَهُ، وَمَنْ رَوَاهُ بِالْمُعْجَمَةِ فَهُوَ مِنَ الْإِغْرَاءِ، أَيْ يَزِينُ لَهُ تَحْقِيقَ الضَّرْبَةِ) انتهى.

(٢) رواه مسلم (٢٦١٦) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٥) ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وفي رواية للبخاري (٦١٣٨): «فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» بدلاً من قوله: «فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ».

الْمَدِينَةَ فَلِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمُبْرِ
يَخْطُبُ النَّاسَ... فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعٍ الَّذِينَ قَتَلُوا
فُلَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَخُذْ لَنَا بَثْرًا؟! فَرَفَعَ يَدَيْهِ
حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ، قَالَ: أَلَا لَا يَجْنِي أَمْرُؤُ
عَلَى وَلَدٍ، أَلَا لَا يَجْنِي أَمْرُؤُ عَلَى وَلَدٍ»^(٣).

نعم فهذه هي قاعدة العدل والإنصاف في
الإسلام، فكل نفس بما كسبت رهينة، رهينة في
شرعنا في الدنيا، ورهينة بما عملت يوم القيامة
بين يدي الله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ
شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٨].

(شريعتنا جاءت بالدية بخلاف الأمم فليس في
شرائعهم إلا القصاص):

قال ابن عباس: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ
الْقِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَّةُ. فَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي
الْقَتْلِ الْمَحْرُوفِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى
فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُهُ بِالْمَعْرُوفِ
وَأَدَاؤُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨].

ومثلها الصوم، فالحق تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة
البقرة: ١٨٣].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ،
وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ
طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١).

وعند الشَّيْخَيْنِ^(٢) عن أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا:
«قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي
وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ
أَخَذْتُكُمْ فَلَا تَرِفُثُ وَلَا يَصْخَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ
قَاتَلَهُ، فَلْيُقِلْ إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ».

فمَنْ صَامَ وَقَدْ غَارَفَ الزُّورَ وَالْجَهْلَ وَظَلَمَ
النَّاسَ، وَأَذَاهُمْ بِلِسَانِهِ أَوْ بِفِعَالِهِ فَمَا صَامَ وَلَا
أَفْطَرَ! وَقَسَّ عَلَيْهِمَا سَائِرُ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَاعِدَةُ الْعَدْلِ عِنْدَ اللَّهِ هِيَ: ﴿لَا نَزْرُ وَلَا زِرَّةٌ وَزَرٌ
أُخْرَى﴾ [سورة النجم: ٣٨].

ومن مثال هذه القاعدة، ما وَرَدَ عَنْ طَارِقِ
الْمُحَارِبِيِّ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ، وَفِيهِ قَالَ: «دَخَلْنَا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا.

(٢) البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨٢٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤٣٢٧) وابن جبان (٦٥٦٢) والحاكم في مستدرکه (٤٢١٩) من حديث يزيد بن زياد بن أبي الجعد الأشجعي عن جامع بن شداد به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه النسائي مختصراً (٤٨٣٩).

فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَّةَ فِي الْعَمْدِ^(١).

فائدة ولطيفة:

فانظر رَحِمَكَ اللهُ إلى جميل وعظيم رحمة الله، إذ سَمِيَ الْقَاتِلَ أَخًا لِأَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ! وما هذا إِلَّا تَحْنِينٌ لِقُلُوبِهِمْ عَلَى الْقَاتِلِ وَتَلْيِينٌ، وَإِعْبَادٌ لَهُمْ عَنِ الْقَتْلِ، وَلَوْ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، فَهَذِهِ شَرِيعَتُنَا، وَلَكِنْ لَيْسَتْ كَشَرَائِعِ النَّاسِ الْيَوْمَ، الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى الظُّلْمِ، وَبِخَسِ الْحُقُوقِ، فَهُمْ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ إِكْرَامَ بَنِي آدَمَ لِذَا فَهُمْ يَمْنَعُونَ الْقَتْلَ وَالْقِصَاصَ مِنَ الْقَاتِلِ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الظُّلْمِ، لِلْقَاتِلِ الَّتِي ذَهَبَتْ نَفْسُهُ عَبَثًا، وَكَذَا فَهُوَ أَكْبَرُ التَّعَدِّيِّ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ الَّذِينَ قَدْ يَكُونُ مَقْتُولُهُمْ قَتْلَ ظُلْمًا وَسَفَهًا، فَتَذْهَبُ أَنْفُسُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَى مَقْتُولِهِمْ، وَعَلَى رُؤْيَا قَاتِلِهِ يَتَقَلَّبُ فِي الْبِلَادِ، وَكَذَا فَهُوَ تَعَدَّى عَلَى الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْقَاتِلَ يَقْتُلُ ثُمَّ يَقْتُلُ ثُمَّ يَقْتُلُ أَبَدًا، وَكَمَا قِيلَ مَنْ أَمِنَ الْعِقَابَ أَسَاءَ الْأَدَبَ، وَأَمَّا دِينُنَا فَالْأَصْلُ فِيهِ الْقِصَاصُ، لَكِنْ مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْعَفْوِ فَقَدْ حَصَّ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَفْوِ عَنْهُ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مُجْرِمًا فَلَا شَيْءَ لَهُ إِلَّا السَّيْفُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة القرة: ١٧٩].

ثَالِثًا: (معرفة رسول الإسلام)

وُقِيلَ الْخَوْصِ فِي بَعْضِ اللَّطَائِفِ مِنْ مِنْهَاجِ النَّبُوَّةِ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ مُنَاسِبًا أَنْ أُقَدِّمَ لَتِلْكَ اللَّطَائِفِ بَيَانَ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَظِيمِ خُلُقِهِ، إِذْ هُوَ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَلَا فَخْرَ.

فصل في بيان صفة رسول الله ﷺ وبعض خُلُقِهِ:

فقد كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، وَكَمَا وَصَفَهُ رَبُّهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

وروى الإمام مسلم (٧٤٦) حديثًا طويلاً من حديثِ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ عَائِشَةَ، وَفِيهِ: «فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِي عَنِ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

وجاء في مسند إسحاق (١٦٦٦) من حديث جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لِي: هَلْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَإِنَّهَا مِنْ آخِرِ مَا أُنْزِلَ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، فَسَأَلَهَا عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: الْقُرْآنُ».

وقد بشر الله الأمم بختم الرِّسَالَاتِ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ، وَكَذَا بَشَّرَهُمْ بِصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ،

(١) رواه البخاري (٤٤٩٨).

مكتوباً في كتبهم، وأما العقلية فكونه يأمر بكل طيب وخير، وينهى عن كل خبيث وشر، فلو لم يجدوه في كتبهم لتحريف أو لعدم مطالعة وقراءة منهم فهم يرون بالواقع دعوتَهُ، دعوة الخير والسلام، وأما صفاته العلمية فتحتاج نظراً واستدلالاً وجمعاً لكل ما تقدم والمساءلات، والموفق أو العاقل من يكتفي ببعض ذاك.

فهو خاتم المرسلين وللناس كافة: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَيَّ رِسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨].

ومن دليل صدقه ﷺ أنه عادل منصف، يُنصف من نفسه قبل غيره، فلم يستحي أن يذكر وصف ربه له بأنه أمي، وهذا لم يك إلا لكونه صادقاً ذاتقوى.

(أخلاق رسول الإسلام أمانة صدقه وسلمه):

فأصل دعوة الإسلام عقيدة وأخلاق وشريعة ومنهاج، ولو قصدت الأخلاق دون غيرها في هذا المقام ولمخاطبة الناس بما فيه إيانا يوافقون ولا ينازعون، فحسبي ببيان الأخلاق في الإسلام أن أذكر ببعض الأحاديث، منها حديث جميل رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

فلولا أن بعثهم الله للناس كافة يُبلغون دعوة الإسلام، وهي السلم والسلام، لَمَا ضَرَبَ الإسلام يوماً مشارق الأرض ومغاربها:

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَلْبَسُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَلْظَمَ فَاكْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: ٢٩].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

فهذه صفاته حسية واقعية وعقلية وكذا هي علمية: فأما الحسية ففي كونه أمياً، وفي كونه

(١) رواه أحمد في مسنده (٨٩٥٢) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣).

وكان يَغْفُو وَيَغْفِرُ:

فهذه صِفَتُهُ وَأَصْحَابِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ غَيْرِ الْمُحَرِّفِينَ:

فَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: «لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥] وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، [وبرواية (٤)]: «إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾... فِي التَّوْرَةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ» [أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمَتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» (٥).

بل وحتى لو سبَّه النَّاسُ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ، وَهُوَ

وَرَوَى الشَّيْخَانِ (١) عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: «دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، حِينَ قَدِمَ مَعَ مُعَاوِيَةَ إِلَى الْكُوفَةِ، فَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ أَخْيَرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا».

فرسول الإسلام في نفسه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها:

قال أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفَنَاهُ فِي وَجْهِهِ» (٢).

ومع غيره كان أطيبَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقًا:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَحَمَلَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّا حَامِلُونَ عَلَى وَلَدٍ نَاقَةٍ! قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ بَوْلِدِ نَاقَةٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلُ إِلَّا الْتُوقَ» (٣).

(١) البخاري (٦٠٢٩) ومسلم (٢٣٢١).

(٢) رواه البخاري (٦١٠٢) ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) رواه أحمد (١٣٨١٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٨) وأبو داود (٤٩٩٨) والترمذي (١٩٩١).

(٤) للبخاري (٤٨٣٨).

(٥) رواه البخاري (٢١٢٥).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي،
فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
إِنَّ أَنَسًا غُلَامٌ كَيْسٌ فَلْيَخْدُمْكَ، قَالَ: فَخَدَّمْتُهُ فِي
الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَوَاللَّهِ مَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لَمْ
صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا، وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لَمْ تَصْنَعْ
هَذَا هَكَذَا».

وفي رواية^(٣): «خَدَّمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ،
فَمَا قَالَ لِي: أَفٍّ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا
صَنَعْتَ، [لَيْسَ مِمَّا يَصْنَعُهُ الْخَادِمُ]»^(٤)»^(٥).

فهذا تعامله مع خادمه، ومنه يعلم كيف تعامله
مع أضيافه وزواره أو من يفد إليه.

وعند المعاتبة كان لطف الناس:

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ
سَبَابًا، وَلَا فَحَاشًا، وَلَا لَعَنًا، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا
عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: مَا لَهُ تَرَبَّ جَبِينُهُ»^(٦).

قَادِرٌ عَلَى الْمَوَاجَهَةِ، ثُمَّ هُوَ يَجِدُ لِمَسَبِّبِهِمْ هَذِهِ
مَصْرِفًا لَصْرِفِهَا عَنْهُ، لِثَلَايِقٍ مِنْهُ سَوْءٌ بَعْدَ إِذْ وَقَعَ
الشَّوْءُ مِنْ خَصْمِهِ:

فَقَدْ كَانَ يُسَبِّئُ ثُمَّ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا
تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ
وَلَعْنَهُمْ؟! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا! وَأَنَا
مُحَمَّدٌ»^(١).

فهو يعلم أنهم ما يريدون إلا إيأه، ولكن لما
وَجَدَ فِي ظَاهِرِ كَلَامِهِمْ مَا يَصْرِفُ عَنْهُ تِلْكَ الْمَسَبَّةَ
أَخَذَ بِهَذَا الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ لَفْظُهُمْ، مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ
مِنْ حَيْثُ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ أَرَادُوهُ يَقِينًا، فَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ
فَمَا أَحْسَرَهُمْ، وَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَمَا جَاءَ فِي
التَّوْرَةِ: «وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو
وَيَغْفِرُ».

وكان أطيّب الناس أدبًا مع خادمه فضلًا عن
الرؤساء وأحبابه:

روى الشَّيْخَانِ^(٢) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ

(١) رواه البخاري (٣٥٣٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا.

(٢) البخاري (٦٩١١) ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) للبخاري (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩).

(٤) زادها مسلم في روايته.

(٥) وفي رواية لمسلم من حديث سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «خَدَّمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تِسْعَ سِنِينَ، فَمَا أَعْلَمُهُ قَالَ لِي قَطُّ: لِمَ
فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ وَلَا غَابَ عَلَيَّ شَيْئًا قَطُّ».

(٦) رواه البخاري (٦٠٣١).

وكان رحيماً كريماً لا ينتقم لنفسه ولا يأخذ
إلا بالأرفق:

وبيأه فيما جاء عن عائشة قالت: «ما خير
رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم
يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما
انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة
الله، فينتقم لله بها» (١).

وفي رواية قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ
شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد
في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من
صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم
لله عز وجل» (٢).

وكان يجالس الفقراء فلا يطردهم ولا يمايز
عنهم:

قال الحق تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ
شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة
الأنعام: ٥٢].

وسبب ذلك، لأنه لا يرجو إلا الله فتساوى
عنده الغني والفقير، بل ولعل الفقير عنده أقرب
لعظيم بلائه، وفي حديث أبي سفيان الطويل،
لما سأله هرقل، وفيه: «وسألتك أشراف الناس
اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم
اتبعوه! وهم أتباع الرسل» (٣).

وعن أنس بن مالك، قال: «بينما نحن جلوس
مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على
جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم:
أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم،
فقلنا: هذا الرجل الأييس المتكئ» ثم ساق
حديث ضمام بن ثعلبة الطويل (٤).

وكان أكرم الناس وأشجعهم وأصدقهم
وأحسنهم:

وهذا معلوم، ومن بيانه ما رواه أنس قال:
«كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس،
وأشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة،
فأنطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي
ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: كن
تراعوا لن تراعوا. وهو على فرس لأبي طلحة

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٣) رواه البخاري (٧).

(٤) رواه البخاري (٦٣).

هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُو كَهَا، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لِأَرَاهُ، فَجَسَّهَا رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسَنِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَجَلَسَ مَا شَاءَ اللَّهُ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَّأَهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهَا إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ. [وفي رواية^(٥): «فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبَسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا»] قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنُهُ^(٦).

وكان أسهل الناس للناس وأكثرهم تواضعاً لهم:

وهذا يُعرفُ بمثل ما رواه أَنَسٌ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا قَطُّ اتَّقَمَ أَذُنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ، حَتَّى يُنَحِّي الرَّجُلُ رَأْسَهُ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتْرُكُ يَدَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَتْرُكُ يَدَهُ، وَمَا مَسَسْتُ قَطُّ أَلَيْنَ مِنْ جِلْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَا وَجَدْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ

عُرِّيَ مَا عَلَيْهِ سَرَجٌ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا، أَوْ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ^(١).

وعن جابرٍ قال: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لَا»^(٢).

وعن أَنَسٍ قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»^(٣).

وبنحوه رواه مسلمٌ من وجهٍ آخرَ عَنْ أَنَسٍ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بقوله: فَقَالَ أَنَسٌ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسَلِّمَ مَا يَرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا».

بل وقد كان يُعطي لِبَاسَهُ، ولو لم يكن له سِوَاهُ:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: «جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِرُدَّةٍ^(٤)... قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَسَجْتُ

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٣٣) ومسلمٌ (٢٣٠٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠٣٤) ومسلمٌ (٢٣١١).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٣١٢).

(٤) جاء بيانُ البردة كما في رواية البخاري هذه، وفي هذا الموضع، ففيها: «قَالَ سَهْلٌ: هَلْ تَدْرِي مَا الْبُرْدَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، هِيَ الشَّمْلَةُ مُنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا».

(٥) البخاريُّ (٦٠٣٦).

(٦) أخرجه البخاريُّ (٥٨١٠).

رَاحِحَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(١).

يَقْضِي الرَّجُلَ بَكَرُهُ، فَزَجَعَ إِلَيْهِ أَبُو رَافِعٍ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا خِيَارًا رِبَاعِيًّا، فَقَالَ: أَعْطِهِ إِيَّاهُ، إِنَّ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً». وفي رواية لمسلم: «فَإِنَّ خَيْرَ عِبَادِ اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً».

فهو أحلم الناس على الجاهلين:

قال الله الحق تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وهذه واقعة أخرى مع أعرابي جلف جاف، رواها الشيخان عن أنس بن مالك، قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ [ولمسلم: «صَفْحَةِ عُنُقِ»] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ! ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ؟ فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ صَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»^(٥).

ومن جميل السهولة والتواضع ما ورد عن أنس بن مالك قال: «إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ فِي حَاجَتِهَا»^(٢).

وكان يعدل مع خصومه وإن جاروا متحلماً عليهم:

ومثاله ما ورد عن أبي هريرة قال: «كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سِنٌّ مِنَ الْإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَفَاضَاهُ [فَأَغْلَظَ لَهُ! فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا]»^(٣)... فَطَلَبُوا سِنَّهُ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا سِنًّا فَوْقَهَا، فَقَالَ: أَعْطُوهُ. فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى اللَّهِ بِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ خِيَارُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»^(٤).

ولعل هذه الواقعة هي نفسها التي رواها أبو رافع:

فعند مسلم (١٦٠٠) من حديث أبي رافع: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَسْلَفَ مِنْ رَجُلٍ بَكَرًا، فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ إِبِلٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَأَمَرَ أَبَا رَافِعٍ أَنْ

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٣٤٧١) وأبو داود (٤٧٩٤) مختصراً.

(٢) رواه أحمد (١١٩٤١)، وفي رواية: «إِنْ كَانَتِ الْخَادِمُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ -وَهِيَ أَمَةٌ- تَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَنْبَغُ يَدُهُ مِنْهَا حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ». رواه أحمد (١٣٢٥٦) من حديث علي بن زيد، عن أنس بن مالك به، وابن زيد ضعيف، إلا أنه يقوى بما قبله.

(٣) البخاري (٢٣٩٠).

(٤) رواه البخاري (٢٣٠٥).

(٥) البخاري (٥٨٠٩) ومسلم (١٠٥٧).

كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوَ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». [٢] «ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَطَعْتُ يَدَهَا». ... قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجَتْ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» [٢] (٣).

فائدة: (رؤية وجه رسول الله ﷺ آية كبرى)

وهذا يُؤخذ من مثلِ حديثِ زُرَّارَةَ بْنِ كَرِيمٍ بْنِ
الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو السَّهْمِيِّ عن جدِّه، قَالَ: «أَتَيْتُ
النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِمَنْى، أَوْ بَعْرَفَاتٍ وَقَدْ أَطَافَ بِهِ
النَّاسُ، وَيَجِيءُ الْأَعْرَابُ، فِإِذَا رَأَوْا وَجْهَهُ قَالُوا:
هَذَا وَجْهٌ مُبَارَكٌ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي،
فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا! فَدُرْتُ فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي؟
قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا! فَدُرْتُ فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي
فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا! فَذَهَبَ يَبْزُقُ، فَقَالَ بِيَدِهِ
فَأَخَذَ بِهَا بَرَأَقَهُ، وَمَسَحَ بِهِ نَعْلَهُ، كَرِهَ أَنْ يُصِيبَ
أَحَدًا مِنْ حَوْلِهِ» (٤).

وجاءت زياتان عند مسلم: «قَالَ: ثُمَّ جَبَذَهُ
إِلَيْهِ جَبَذَةً، رَجَعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فِي نَحْرِ الْأَعْرَابِيِّ».
وفي رواية له أيضاً: «فَجَذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ الْبُرْدُ،
وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!».

وكان يعدل وإن كان الحقُّ عليه أو في أهل بيته:

وهذه تربية ربانية مأخوذة من مثل قوله تبارك
وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ
لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
[سورة المائدة: ٨] .

وروى الشَّيْخَانِ مِنَ حَدِيثِ عَائِشَةَ: «أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ» [«فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ»]^(١)، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ؟ [«فَتَلَوْنَ وَجْهَهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»] فَقَالَ... أَتَسْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟! ثُمَّ قَامَ فَاحْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ

(١) وفي رواية لمسلم: «كَانَتْ امْرَأَةٌ مَخْرُومِيَّةٌ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجِدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُقَطَّعَ يَدُهَا». وفي رواية لمسلم أيضاً: (١٦٨٩) من طريق أبي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْرُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَعَاذَتْ بِأَمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا. فَقُطِعَتْ».

(٢) هذه الزيادة وما سبقها كلها لمسلم.

(۳) رواه البخاری (۳۴۷۵) ومسلم (۱۶۸۸).

(٤) هذا لفظُ البخاري في الأدب المفرد (١١٤٨)، ورواه أحمد (١٥٩٧٢) والنسائي في الكبرى (٤٥٣٨) من حديث يحيى بن زُرارة

بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مِنْ وَجْهِهِ» وساق الحديث^(١).

وثمة لطيفة في آية من سورة الحديد تشهد لهذا المعنى:

وهي في قول الحق تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحديد: ٨].

فلا فرق بين أن يكون الداعي زيداً أو عمرو! إذ الحكم للدعوة المدعو لها الناس، أهي طيبة أم خبيثة، فإن كانت طيبة أخذ بها، وإلا ردت على الداعي إليها، فالنظر للدعوة لا الداعي؟! فكيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ﴾؟! فكأنه يؤيد بأن صدق الدعوة بداعيها؟!

فأقول: نعم هذا هو الأصل، في أن النظر إلى الدعوة لا الداعي، ولكن لما كان الداعي إلى الإسلام رسول الله محمد ﷺ فهذا من أكبر الأسباب لتصديق دعوته، فوجهه وخلقه وصفاته وكلامه كل ذلك من آيات الله التي تؤيد صدق دعوته، فضلاً عن دعوته التي تضمنت الحق من كتاب الله وسنته.

وفي هذا المعنى روى أبو صخره جامع بن شداد، عن طارق المَحَارِبِيِّ، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ ... يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا. قَالَ: وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ أَدْمَى كَعْبِيهِ وَعُرْقُوبِيهِ، وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى وَهُوَ أَبُو لَهَبٍ. قَالَ: فَلَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، أَقْبَلْنَا فِي رَكْبٍ مِنَ الرِّبْدَةِ، حَتَّى نَزَلْنَا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَنَا طُعِينَةٌ لَنَا، قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ قُعُودٌ إِذْ أَتَانَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَسَلَّمَ ... فَقَالَ: تَبِيعُونِي الْجَمَلُ؟ قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: بِكُمْ؟ قُلْنَا: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، قَالَ: فَمَا اسْتَوْضَعْنَا شَيْئًا، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ بِرَأْسِ الْجَمَلِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَتَوَارَى عَنَّا، فَتَلَا وَمَنَا بَيْنَنَا، قُلْتُ: أَعْطَيْتُمْ جَمَلَكُمْ رَجُلًا لَا تَعْرِفُونَهُ؟ قَالَتِ الطُّعِينَةُ: لَا تَلَاوُمُوا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهًا مَا كَانَ لِيَجْمُوكُمْ، رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ

السَّهْمِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو: «أَنَّهُ لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَايَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ! قَالَ: وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْعُضْبَاءِ، قَالَ: فَاسْتَدْرْتُ لَهُ مِنَ الشَّقِّ الْأَخْرِ، أَرْجُو أَنْ يَخْصَنِي دُونَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي؟ قَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْفَرَائِعُ وَالْعَتَائِرُ؟ قَالَ: مَنْ شَاءَ فَرَعَ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يُفَرِّعْ، وَمَنْ شَاءَ عَتَرَ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَعْتَرْ. فِي الْغَنَمِ أَصْحِيَّةٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، واختصره أبو داود (١٧٤٢) وزاد في آخره: «وَوَقَّتْ ذَاتُ عِرِّي لِأَهْلِ الْعِرَاقِ».

(١) رواه ابن أبي شيبة في مسنده (٨٢٢).

وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ:
النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى
السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ
أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي،
فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ» (٢).

وكذا فهو أمان لأهل الأرض كافة، قال الله
الملك الحق: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ
فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾
[سورة الأنفال: ٣٣].

وكأن هذا المعنى له أثر حسِّي أحسَّه الصحابة:

قَالَ أَنَسُ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنَ الْمَدِينَةِ كُلِّ
شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ، أَظْلَمَ مِنَ الْمَدِينَةِ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَا فَرَّغْنَا مِنْ
دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبُنَا» (٣).

وفي رواية: «وَمَا نَقَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
الْأَيْدِي، وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبُنَا» (٤).

فلكان الله عز وجل يقول: أما تستجيون
لدعوة الله، مع عظيم ما ترون في دين الله من آيات
ومعجزات، ومع هذا كله فالرَّسول هو الذي
يدعوكم لتؤمنوا بربكم.

وتأكيد هذا المعنى جاء فيما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
سَلَامٍ، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْجَفَلَ النَّاسُ
عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ أَنْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ
عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ
شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا
الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا النَّاسَ نِيَامًا،
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١).

وجوده أمان لأهل الأرض:

حَيْثُ رَوَى سَعِيدُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ،
عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُوسَى قَالَ: «صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ
الْعِشَاءَ؟ قَالَ فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ
هَاهُنَا؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ،
ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ
أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ، قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ،

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٣٧٨٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٨٤٧) والدارمي (١٥٠١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (١٣٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣١).

(٣) رواه أحمد (١٣٣١٢).

(٤) رواه الترمذي (٣٦١٨) وفي رواية لأحمد (١٣٥٢٢) والدارمي (٨٩) واللفظ له: «شَهِدْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ،
كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَوْتِهِ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَفْحَجَ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ

فصلٌ في لطائف من منهاج النبوة رحمةً وصبراً ومسالمةً وعدلاً:

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ،
وَأَنَا فِي بِيَاعَةٍ لِي أَبِيعُهَا، وَمَرَّةً عَلَيْهِ جُبَّةٌ لَهُ حَمْرَاءُ
يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ تَفْلِحُوا. قَالَ: وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ
أَذْمَى كَعْبِيهِ وَعُرْقُوبِيهِ، وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا
تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا
غُلَامٌ بَنَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي
يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: عَمُّهُ عَبْدِ الْعَزَى وَهُوَ أَبُو لَهَبٍ»
وساق الحديث (١).

فهناك عبد الله شيئاً من حلم رسول الله ﷺ
وصبره على سفاهة القوم وجهلهم، ليس لك كم
كان بهم رحيماً، وكم كان فُجُورُهم عليه عزيزاً،
وصدق الله العظيم حين قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

وروى الشيخان (٢) من حديث شقيق قال
عبد الله: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا
مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُّوهُ، [وبرواية: «كَانَ
قَوْمُهُ يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُضْرَعَ!»] (٣) وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ
عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ».

فهناك بعض الأمارات الشاهدات على عظيم
رحمة رسول الإسلام ﷺ، وأنه رسول مِمَّنْ خلق
الأرض وسبعاً من السموات، وصدق الله الذي
أرسله رحمةً، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

١. صبر النبي ﷺ على أصحابه وأعدائه:

ولعل هذه الواقعة وقعت يومَ قسمة غنائم
حُنين، وكما رواها عبد الله بن مسعود، قال:
«قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ بِالْجِعْرَانَةِ،
قَالَ: فَازْدَحُمُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

فصبرُ النبي ﷺ على أهل مكة معلومٌ، فلقد
اشتدَّ أذاهم له وعظمَ عليه حتى أرادوا قتله، ومن
جميل الأثر الذي يبينُ معه كم أُوذِيَ في دينه ما
تقدَّم من حديث طارق المُحَارِبِيِّ، قَالَ: «رَأَيْتُ

فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

(١) رواه ابن أبي شيبه في مُسنده (٨٢٢).

(٢) البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢).

(٣) عند أحمد (٤٢٠٣).

أَلَا تَبْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ [سورة البقرة : ١٧٩].

ولكن هذا لا يعني الشدة في إقامة الحد، وسبب المحدود والتعدي عليه فيما سوى الحد، أو الغلو فيه! كلا، فهذا ليس في الإسلام، وليس منه بسبيل: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ».

فلقد كان رسول الله ﷺ رحيمًا مع العصاة والزناة والقاتلين ولو أقام الحد عليهم:

فعن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: «خَطَبَ عَلِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَقِيمُوا عَلَى أَرْقَائِكُمُ الْحَدَّ، مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يُحْصِنْ، فَإِنَّ أَمَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَنْتٌ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَجْلِدَهَا، فَإِذَا هِيَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِنَفَاسٍ، فَخَشِيتُ أَنْ أَنَا جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتَلَهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَحْسَنْتَ».

وفي رواية لمسلم أن النبي ﷺ هو الذي أمره

إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى قَوْمِهِ، فَكَذَّبُوهُ وَشَجَّوْهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبِينِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَكَانِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ جَبْهَتَهُ، يَحْكِي الرَّجُلَ»^(١).

وقد وقع هذا لرسول الله ﷺ يوم أُحُد:

رواه أَنَسُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [سورة آل عمران من الآية: ١٢٨]»^(٢).

٢. رحمته بالمُخطئين والعصاة:

فالحَدُّ في أصله ردُّ للمُفسدين، ورحمة لهم لكونه كفارة لهم، ثم هو رحمة للمجتمع كُلِّهِ:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوا

(١) رواها أحمد (٤٠٥٧) والبخاري في الأدب المفرد (٧٥٧) من حديث عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم (١٧٩١) عن ثابت عن أنس، ورواه البخاري (٥٢٤٨) ومسلم (١٧٩٠) عن أبي حازم، قال: «اختلف الناس بأي شيء دُوي جرح رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ، فسألوا سهل بن سعد الساعدي، وكان من آخر من بقي من أصحاب النبي ﷺ بالمدينة؟ فقال: وما بقي من الناس أحد أعلم به مني، كانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم عن وجهه، وعليّ يأتي بالماء على ترسه، فأخذ حصير فحرق، فحشي به جرحه». وفي رواية للبخاري (٢٩١١) ومسلم واللفظ له: «جرح وجه رسول الله ﷺ، وكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَهَشِمَتْ النِّبْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمَ».

بذلك الإحسان، فقال: «اتْرُكْهَا حَتَّى تَمَاطِلَ»^(١).

وروى الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَزِرُمُوهُ! ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّ عَلَيْهِ»^(٢).

وفي رواية^(٣): «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يُسُولُ فِي الْمَسْجِدِ! فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ مَهْ! قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَزِرُمُوهُ دَعُوهُ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ... فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ».

قلت: وها هنا الأمر عجيبٌ جدًّا! إذ لم

يمنعهم من نهيه فحسب، وإنما نهاهم حتى عن إسماعيه الكلام حال بوله، لئلا يتضرَّرَ بقولهم، فضلًا عن فعلهم.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا^(٤) عَلِمْتُ: إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٥).

٣. رحمته بالدوابِّ وغيرها:

روى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: «رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْلَتَهُ، وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ كَانَ أَحَبَّ مَا تَبَرَّزَ فِيهِ هَدَفٌ يَسْتَتِرُ بِهِ، أَوْ حَائِشٌ نَخْلٍ، فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ لَهُ. فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ،

(١) رواه مسلم (١٧٠٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٥) ومسلم (٢٨٤).

(٣) لمسلم (٢٨٥).

(٤) ليستقيم الكلام، فهنا (ما) ليست نافية، وإنما موصولة، والله أعلم.

(٥) رواه البخاري (٦٧٨٠)، وفي رواية للبخاري (٦٧٨١) من حديث أبي هريرة، قال: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسُكْرَانَ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِتَعْلِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِتَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَحْزَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ».

وفي رواية^(٥) من حديث جابر: «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ؟ فَإِنْ لِي غُلَامًا نَجَارًا؟ قَالَ: إِنْ شِئْتَ. قَالَ: فَعَمِلْتُ لَهُ الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، [وبرواية^(٦)]: «سَمِعْنَا لِلْجَذْعِ مِثْلَ أَصْوَاتِ الْعِشَارِ»] فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَنْشُقُ أَنْبَنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتْ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ! قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ^(٧).

حَنَ [وبرواية^(١)]: «حَرَّ»، وبأخرى^(٢): «جَزَعٌ» [وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ، فَسَكَنَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟

فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَاكُ إِلَهِي، وَزَعَمَ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ^(٣).

٤. بل وهو يرحم حتى الجمادات:

روى ابنُ عمر: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جَذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَ الْجَذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ^(٤).



(١) ابن أبي شيبة في المصنّف (٣١٧٥٦).

(٢) مسند أبي يعلى (٦٧٨٧).

(٣) رواه أحمد (١٧٥٤) وأبو داود (٢٥٤٩).

(٤) رواه البخاري (٣٥٨٣).

(٥) للبخاري (٢٠٩٥).

(٦) للبخاري (٩١٨).

(٧) وفي رواية أحمد (٢٤٠٠) من حديث حماد بن سلمة، عن عمارة بن أبي عمارة، عن ابن عباس، وثابت البناني، عن أنس بن مالك: «فَحَنَ الْجَذْعُ حَتَّى أَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْتَضَنَهُ فَسَكَنَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ لَمْ أَخْتَضِنُهُ، لَحَنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

تزكية النفس وأثر القلب في ذلك

قراءة في مشروع الفيلسوف طه عبد الرحمن



د. لبنى السحايبي

من طبع الإنسان أن لا يفي إلا بما يؤمن به، وإلا تسهل عليه خيانتة، وهو لا يؤمن بشيء إلا بعد فهمه إياه، فعلى قدر تعقله وإدراكه لهذا الأمر يؤمن به ويعتقده، فيكون سلوكه على مقتضى اعتقاده، لذلك كانت علاقة العقل بالإيمان علاقة وطيدة، ومن هنا كان حقيق بنا وحق علينا أن نعمق معنى التزكية طلباً لمزيد من الإيمان، ولتحصل ذلك لابد من مقارنة جديدة، ليست من جنس المقاربات المعهودة، تلك التي ألفيناها في ثنايا الإنتاج العلمي والمعرفي، الذي بلوره المفكر المجدد الدكتور طه عبد الرحمن، فيما يتعلق بموضوع التزكية، وأقترح أن يُعالج الموضوع من خلال توطئة تعرف بالمشروع العلمي للدكتور، وأربع محاور هي كالآتي:

- المحور الأول: بنية النفس البشرية
- المحور الثاني: مفهوم التزكية وأركانها
- المحور الثالث: القلب محل التزكية
- المحور الرابع: خصائص ومقتضيات التزكية

المحور الأول: بنية النفس البشرية

توطئة:

لقد خلق الله جل وعلا الإنسان، وعرفه بالوحي أصله وماهيته، وأخبر بهذه الحقيقة أكثر من مرة موصفاً بذلك طبيعة النفس البشرية، هذه الطبيعة التي عجز عن إدراك ماهيتها العلماء والفلاسفة والمفكرون على حد سواء، يقول الله تعالى بصدها بعد أن أقسم بعالم الشهادة كله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [سورة الشمس: ٧-٨].

الدكتور طه عبد الرحمن؛ أستاذ المنطق وفلسفة اللغة، المفكر والفيلسوف واللغوي والأصولي والفقهاء المتصوف، المعروف بإبداعاته الفكرية المجددة، الخادمة للتراث الإسلامي، وبمراجعاته النقدية للفكر المعاصر النابعة من خصوصية العطاء التداولي الإسلامي العربي، وتتميز إنتاجاته المعرفية بصفة عامة بالاتساق والانسجام، لا يكذب بعضها بعضاً، تصبّ كلها في منحى واحد، منتظمة داخل مشروعه الكبير، والذي أرجو أن أوفق في توصيفه، بعبارة موجزة، هي: «أن الشرع جاء ليتعقل القلب، بالعقل المؤيد الموسع، الذي

والم تأمل في حقيقة النفس؛ يجدها متقلبة بين معانٍ ثنائية متقابلة متضادة، فهي ما بين الغيب والشهادة، وبين المادة والمعنى، بين التسيير والتخيير، وبين التزكية والتدسية، وبين العقل

استحالت هذه الرؤية إلى الأبد؛ «لأن كل ما لا تراه عينه سواء سبق أن رآه أو لم يسبق له أن رآه يكون بالنسبة إليه في حكم المعدوم»^(٢).

وعليه تكون القدرات والاستعدادات والملكات، التي تجعل الإنسان ينفك عن عالم محسوساته ومشهوداته إلى عالم غيبي تاما، عالم واسع عمودي وغير متحيز ولا محدود، والشاهد على هذا، عمل كل من الذاكرة والمخيلة والاشعور والرؤى، وحتى العقل، كلها قوى إدراكية في ذات الإنسان، حسب المفكر تفصله فصلا عن عالم الشهادة كما يصطلح عليه.

فالذاكرة: «تحفظ صور ما اضمحل جسمه وزال رسمه، حتى كأنه لم يكن قط، وقد تؤخذ هذه الذاكرة بالكلية بهذه الصور المحفوظة، حتى كأنها تشاهد أرواحها... لهذا كانت الذاكرة، منفكة عن العالم المرئي من جهة أنها تبشر بإيجاد عالم يزخر بشواهد الماضي، مؤمنا بقاءها»^(٣).

والمخيلة: «تستطيع أن تنشئ من الصور ما لم يتشكل بعد خلقه، ولا ظهر في الخارج أثره، حتى كأنه لا يكون أبدا، لهذا فالمخيلة تنفك عنه من جهة أنها تبشر بإيجاد عالم يزخر بمشاهد

والقلب، وبترديد النظر في كل هذه المعاني، نجدها إنما هي نتيجة لبنية النفس الإنسانية المحكومة بعالمين اثنين عالم الغيب وعالم الشهادة، حيث أتى الإنسان إلى هذا العالم «عالم الشهادة»، بعد أن أشهده الله على نفسه في عالم غيبي أن لا إله إلا هو، وتعهده بالعمل على مقتضى تلك الشهادة، يقول عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]، هذا العهد الأول كما يسميه المفكر طه عبد الرحمن، هو أول لقاء للإنسان مع عالم الغيب، فالإنسان مجبول على التوحيد والإيمان بالغيب الأكبر، والأعمار كلها إنما هي تذكر لهذا التوحيد، ولما كانت النفس من أخص خصائصها النسيان^(١)، أنزل الله تعالى الوحي لهذه الغاية، لغاية التذكر.

وإذا ما تأملنا في مجال المرئيات والمشهودات التي يراها الإنسان ببصره، نجد نسبتها تكاد تكون مهمة بمقارنتها بمجال الغيبات، إذ الغيب حسب الدكتور طه عبد الرحمن، بمفهومه العام هو: «كل ما لا تحصل رؤيته بالعين في الحال، سواء أمكنت رؤيته في الماضي، أو المستقبل، أو

(١) عرف الفيلسوف الإنسان أنه: «الموجود الذي ينسى أنه ينسى»، يُنظر، طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٢، ص: ١٣.

(٢) نفسه، ص: ٣٧.

(٣) نفسه ص: ٣٤.

إلا أنه ينزل رتبة الأمر الغيبي الذي لا ينفك عن الإنسان^(٤).

وعلى هذا الأساس، ميّز الدكتور طه عبد الرحمن في الوجود، بين نمطين اثنين؛ الأول اصطلاح على تسميته بالانوجاد والثاني بالتواجد.

أ. النمط الانوجادي للإنسان :

يحيا الإنسان بالنمط الانوجادي في عالم المرئيات أو عالم الشهادة، بحواسه التي تدرك العالم المحيط به، فيرى ببصره المباني المرئية، ويسمع الأصوات المادية، وهو «نمط الحياة الذي يحفظ اقتران الجسم بالروح، ويتحدد به العالم المرئي أو المشهود»^(٥)، حيث يُنوجد فيه بجسمه وروحه معا.

والإنسان الذي يبقى محصورا في هذا العالم حسب المفكر، إنسان أفقي قاصر ذو عقل مجرد غير متعدي، ذلك أنه لا يدرك من الحقائق سوى ظاهرها ولا يتعداها إلى معانيها وأسرارها، وهو الإنسان الأبتري كما جاء في آخر إصدارات الفيلسوف^(٦)، و«هو الإنسان الذي لا يستثمر

المستقبل مؤملا بتحققها»^(١).

واللّا شعور : «يحفظ أسرار تخلّقه، وهو لا يزال في ظلمات الرّحم، فضلا عن أمشاج من الرغبات والإدراكات والانفعالات التي تحرّكه في غفلة منه ... كل ذلك يجعل باطن الإنسان يبدو وكأنه طبقات بعضها فوق بعض، لا تكاد تنتمي منها إلى العالم المرئي إلا الطبقة الظاهرة»^(٢).

والرؤى : «هي الأخرى تجعله يكابد في عالم نومه وقائع ومشاهد، على نحو ما يكابدها في عالم يقظته، متحققا بوجودها في عالمه غير المرئي، تحقّقه بوجود نظائرها في العالم المرئي، وما يدريك أن هذه الوقائع والمشاهد ذاتها قد تعبر إلى هذا العالم، فيراها بأم عينيه بعد أن رآها وقد نامت عيناه»^(٣).

والعقل : «فإنه لا ينفك يجرّد من المحسوسات صورا لا ترى، ويجرد من هذه الصور صورا ثانية من فوقها، ومن هذه صورا ثالثة أبعد عن الرؤية... فهل بوسعنا أن نرى «العقل» الذي جعل خاصية الإنسان الأولى، كلاً، بل لا نحسبه

(١) روح الدين، ص : ٣٤.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) روح الدين، ٣٦.

(٦) طه عبد الرحمن، كتاب «من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر»، جمع وتقديم رضوان مرحوم، الطبعة الأولى ٢٠١٦، منشورات إبداع.

كل قواه وملكانته إحساسا ووجدانا، خيالا وعقلا، ذاكرة وإرادة، ويحقق مختلف إمكاناته ومكنوناته، بل يذهب بهذا الاستثمار للقوى والتحقيق للإمكانات إلى أقصاهما، بحيث يُتاح له أن يتقلب في أطوار سلوكية مختلفة وينهض بوظائف متعددة، كل ذلك يورثه القدرة على أن يحقق التكامل لذاته»^(٥).

من قواه ولا يحقق من إمكاناته إلا قدرا ضئيلا، إما لتعطل بعض قدراته واستعداداته أو لصرفها كلها في وجهة مخصوصة أو لوجود ضيق في تصوره لمكونات الإنسان الواسعة، ويبدو أن العصر الحديث حصّل تقدمه المادي بفضل هذا الإنسان الأبتَر»^(١).

ب - النمط التواجدي للإنسان :

المحور الثاني: مفهوم التزكية وأركانها

يرجع أصل المادة اللغوية للفظ التزكية، إلى معنيين، الأول: النماء والزيادة، والثاني: الطهارة، جاء في مقاييس اللغة أن: «الزاي والكاف والحرف المعتل، أصل يدل على نماء وزيادة، ويقال الطهارة: زكاة المال، قال بعضهم: سميت بذلك لأنها مما يرجى به زكاء المال، وهو زيادته ونماؤه... والأصل في ذلك كله راجع إلى هذين المعنيين، وهما النماء والطهارة، ومن النماء: زرع زالكٍ بين الزكاء، ويقال هو أمر لا يزكو بفلان، أي: لا يليق به»^(٦).

يحيا الإنسان هذا النمط، في عالم الغيبات بواسطة قدراته الإدراكية الخفية، كالمخيلة والذاكرة والعقل، و«هو نمط الحياة الذي يحمل الروح على تعاطي الانفكاك عن الجسم،... والعروج بالروح إلى العالم الغير مرئي»^(٢)، حيث «تزدوج هذه الجسمية، جسمية الإنسان - بشيء ليس من جنسها، حتى تقوم بالإنسان هذه القدرة العجيبة على مفارقة المرئي»^(٣).

والإنسان الذي يتواجد في العالم الغير مرئي، هو «الإنسان المتعدّي أو الإنسان العمودي، وهو الذي يتّسع وجوده لأكثر من عالم واحد»^(٤)، وهو الإنسان الكوثر، الذي «لا يكتفي بأن يستثمر

أما في القرآن الكريم فقد وردت التزكية

(١) من الإنسان الأبتَر إلى الإنسان الكوثر، ص: ٤٤.

(٢) روح الدين، ص: ٣٦.

(٣) نفسه، ص: ٣٥.

(٤) نفسه، ص: ٣١.

(٥) من الإنسان الأبتَر إلى الإنسان الكوثر، ص: ٤٥.

(٦) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، القاهرة، الطبعة الثانية، مادة زكى، ١٧/٣.

أن المقبلين على الطاعات والحريصين على العلم مستغنون عنها، إنما هي ضرورة يخاطب بها الطائع والعاصي والفاستق، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

وبعد أن كشف الدكتور طه عبد الرحمن، التشكل المزدوج للإنسان، وفق نمطين من الوجود، حيث ينوجد في المرئي بجسمه وروحه، في حين تفصل روحه عن بدنه وتخرج به إلى العوالم الأخرى، توصل إلى أنه لا بد له من أن يأتي أعماله كلها على مقتضى هذا التشكل، لذلك توجب عليه أن: «يبدل جهدا مضنيا في مغالبة سلطان الجوارح على عقله، لذا، كان من الطبيعي أن تفوت حقيقة هذا التشكل المزدوج، من لم يعجبهم أمر هذه المغالبة»^(٢)، والمقصود بالمغالبة كما هو بين ما نحن بصدد، وهو أفعال التزكية.

ويحضرني في هذا السياق قول الشاطبي، الذي يوضح مفهوم هذه المغالبة، فيقول:

«المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون

مرتبطة بتلاوة الكتاب في أربعة مواضع^(١)، ولنتأمل قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة البقرة: ١٥١].

وقال تعالى في آية أخرى من سورة البقرة على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٩].

فتقديم التزكية هنا وتأخيرها في الآيات، إنما يدل على أهميتها العظمى، ففي الآية السابقة تأخر لفظ التزكية عن العلم وعن الحكمة، إذ العلم لا يكون إلا لمن تزكى واتقى، كما في الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]، فصاحب العلم أحوج ما يكون لتزكية نفسه، لكي ينتفع بعلمه، وأنذاك يؤثر بعمله قبل علمه في الناس، وأما تقدم اللفظ عن العلم فإنما هو دال على أن التزكية عمل يؤهل صاحبه لنيل العلم والمعرفة، لذلك كانت التزكية منهجاً أصيلاً في سياسة النفس، والروح في حاجة لها مهما كان حظها من الطاعات، فلا يُظن

(١) قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، الآية: ١٦٤، وقال جل وعلا في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، الآية: ٢.

(٢) روح الدين، ص: ٤٠.

كونه الحركة الضرورية التي تبعث على تبدل الحال»^(٣).

ويضيف المفكر، موضحاً مفهوم التزكية بإبراز سماتها، فيقول: إنها عمل «عقلي بحيث يجوز أن نصفه بالعقلانية، كون هذا العمل موجّه بقصد مخصوص، والقصد من شأنه أن يصبو إلى هدف معين وهو: «تحرير الإنسان على الوجه الأتم»^(٤).

أما السمة الثانية، فتمكّنا من أن نوّصف التزكية بأنها: «ليس هدفها أن تتحرّك أعضاء الفرد بالأعمال المفروضة والنافلة وتواظب عليها، حتى تذهب عنه المشقة في أدائها، بقدر ما هو أن تذكر روحه، من خلال إتيان هذه الأعمال، الميثاق الرباني الأول الذي أخذه الله منها وهي لا تزال بعد في عالم الغيب»^(٥).

أركان العمل التزكوي:

ما من فعل أو عمل إدراكي إلا ويكون صادراً عن قصد أو نية توجهه، نحو هدف مخصوص ومحدد، والفعل الذي نحن بصدده، إنما هو الفعل أو العمل التزكوي، ولقد أشار الدكتور

عبد الله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً^(١)، فلفظ الاختيار في عبارة الشاطبي دال على إرادة المكلف، والتي غالباً ما تكون مقابلة ومخالفة للإرادة الإلهية، فمتى ما اتفقت الإرادتان آنذاك فقط تتحقق الحرية أي العبودية لله، فمساره الاختياري طوال عمره، هو سيرورة تحررية، تتحقق وتهدف لانفصالاتٍ عن ما دون الله، ليتحقّق بالحرية، ويستحق أن يتصف بالآية وبالاستخلاف، فمتى ما انخرط المكلف في التزكية، انخرط في تخليص نفسه من الاستعباد، ويكون بذلك فعل التزكية حسب الفيلسوف طه عبد الرحمن هو: «الاجتهاد في التعبد لله بالقدر الذي يتوصل به إلى تخليص الإنسان من مختلف أشكال الاستعباد»^(٢)، وهذا الاستعباد حسب الدكتور، لن يتأتى للإنسان الخلاص منه إلا إذا كان:

«مطلوب التزكية هو إحداث تحول في سلوك الفرد، ولا تحول كائناً ما كان بغير جهد، والجهد إنما هو قدر العمل الضروري الذي يحتمله الفرد للخروج من جمود حاله، والذي إذا نقص منه شيء، تعذر هذا الخروج بالمرة، فالجهد لا يعدو

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، الجزء الثاني، ص: ١٦٨.

(٢) سؤال العمل، ص: ١٦٠، أستاذنا هنا تعريف الدكتور طه عبد الرحمن للإنسان الحر، أنه «هو من اختار أن يملكه الله بالكلية، بل الحر الحقيقي من ترك الاختيار مع الله»، ص: ١٥٥.

(٣) روح الدين، ص: ٢٦٨.

(٤) سؤال العمل، ص: ١٥٩.

(٥) روح الدين، ص: ٢٧٢. Haut du formulaire

بين العالم المرئي والعالم الغيبي، حيث « يمدّ الدين الإنسان بجملته من القيم والمعاني الروحية التي يوجه بها سلوكه في الحياة، ويتخذها مقاصد لأفعاله وتصرفاته، وتعينه على التصدي للقيم المادية »^(٢).

- القواعد الموجّهة : يحدّد الدين جملة من القواعد والأحكام التي تبين للإنسان كيف يقتحم العقبات التي تواجهه في حياته »^(٣).

- النماذج الحية : حيث « يضع الدين بين يدي الإنسان جملة من النماذج تجسد هذه الاعتقادات ... فلا سبيل إلى معرفة كيفيات هذا العمل وتبيين آثاره على وجه التفصيل، إلا بملاحظة هذه الكيفيات والآثار في شخص أو أشخاص تتحقق فيهم على الوجه الأمثل، بدءاً من النبي المرسل وانتهاء بالعبد الصالح »^(٤).

المحور الثالث: القلب محل التزكية

مما ترسخ في الأذهان عند غالبية المثقفين فضلاً عن عوام الناس، أن القلب له مهمة نوعية وهي الوظيفة الوجدانية الصرف، حيث أنه محل العواطف والانفعالات، أما العقل فهو إدراك مركزي ومحوري، يقوم بوظيفة معرفية صرف،

طه إلى بعض أركان يختص بها هذا العمل، إلا أنه لم يصطلح عليه تسمية : العمل التزكوي، وإنما سمّاه العمل الديني، والمستقرى لفصول ومباحث مؤلفه « روح الدين »، ليستشف من خلاله أنه لا خلاف في الاصطلاح عنده بين العمل الديني والعمل التزكوي، ولقد رمت بإدراج هذه الأركان، جمع شتات مفهوم التزكية عند فيلسوفنا، لعلنا بذلك نوسع الفهم فيزداد إيماننا بالقضية، ومن ثم ننخرط في العمل، أما عن هذه الأركان المؤسّسة للعمل، فهي أربعة، وهي كالآتي :

- الاعتقادات الشاملة: والتي تُعتبر المنطلق والأصل في انبعاث كل فعل أو سلوك، حيث « يزوّد الدين الإنسان بجملته من الاعتقادات والتصورات التي تحدد رؤيته الشاملة للوجود، ويتجلى هذا الشمول في كون المتدين يتأول من خلال هذه الرؤية، كل ظواهر العالم ومظاهر الحياة التي يصادفها، كما أنه يتعاطى للجمع بين ما هو داخل في نطاق الحس، أو قل العالم المرئي، وبين ما تتصل أسبابه بأفق المعنى أو قل العالم الغيبي »^(١).

- القيم الروحية : والتي بها يتحقق التوازن

(١) روح الدين، ص : ٢٣٠.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) روح الدين، ص : ٢٣٠.

وبه تميز الإنسان عن سائر المخلوقات، لكنه ليس جوهرًا قائمًا بذاته مستقلاً عن غيره، كما تقرر عند الفلاسفة والمفكرين، بل هو صفة أو فعل من الأفعال كالسمع والبصر والذوق والشم، فإن كان السمع محله الأذن وهي أداؤه، والبصر محله العين وهي أداؤه، والذوق محله اللسان وهو أداؤه، وهي نشاطات وإدراكات في الإنسان، فما محلّ العقل؟؟، أو ماهي الذات الحاملة لفعل التعقل، استشكل يناقشه المفكر الدكتور طه عبد الرحمن، في مؤلفاته: روح الدين، وسؤال العمل، والعمل الديني وتجديد العقل، ليصل في النهاية إلى الإجابة عن هذا التساؤل مستمداً الشواهد والاستدلالات من التداول العربي الإسلامي فضلاً عن القرآن الكريم.

والمستقرئ لآيات القرآن الكريم، لا يجد فيها ما يدل على أن العقل هو ذات مستقلة في حيز داخل الدماغ أو حتى القلب، «بل نجد على العكس من ذلك، شواهد تنفيه صراحة، فقد ورد فيها الفعل: عَقَلَ بوصفه يدل على الفعل الإدراكي الذي يختص به القلب، كما أن القرآن استعمل فعل فَقَّهَ، وأسندته إلى القلب باعتباره مرادفاً لعقل، فجميع الوظائف العقلية من تعقل وتفكر وتذكر وتدبر ونظر وتأمل وغيرها،

اختصت بها جهة واحدة وهي القلب أو الفؤاد أو اللب، بل لم يرد في القرآن محلّ يقوم بهذه الأفعال غير القلب.

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]، فالمفهوم أن القلب وسيلة التفقه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [سورة ق: ٣٧]، المفهوم من الآية أن القلب وسيلة التذكر، وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٦]، إذا فالقلب محلّ العقل.

«ثم إن القرآن استعمل لفظاً ثانياً في نفس المعنى، مسنداً هو الآخر إلى القلب، وهو العلم كما في الآية: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٣]»^(١).

ويخلص الدكتور طه عبد الرحمن إلى أن «القلب هو وحده الذات الجامعة التي تنفرع منها كل قوى الإدراك»^(٢)، هذا الإدراك الذي نصطلح عليه تسمية العقل، يعرفه الدكتور بأنه:

(١) سؤال العمل، ص: ٧١.

(٢) نفسه، ص: ٧٢.

أُولُواْ أَلَا بُنْيَ ﴿٧﴾ [سورة آل عمران: ٧].

وهكذا نفهم قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩]، فالتزكية، إذن مناطها القلب، والقلب هو قطب الرّحى، والقلب متقلب، خفيّ سريع التأثير، لذلك كانت المهمّة صعبة، حتى أن ابن القيم عبّر عن جوهر هذه المعركة والمعاناة، فيقول: «والمقصود أن يكون أي القلب ملك الأعضاء قائماً بعبوديته لله سبحانه وتعالى، هو ورعيته» (٢)، فالجوارح كلها رعيّة القلب، مصداقاً لقوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦].

وفي السياق نفسه يُوصّف المفكر المجدد القلب بأنه: «قوة لا تبقى على حال، تتحول باستمرار وتتقلب باستمرار، ولذلك يقول تقلّب بمعنى أنها قوة ذات إدراكية لا تبقى على حال واحدة، فإذا العقل الذي هو فعل.. فعل خاص بالقلب، أنه سيكون متقلّباً تقلب القلب، بمعنى؛ أن العقول ستكون فيها تكاثر وفيها تقلبات، وأنها لا تبقى على حال بل العقل الأسمى هو الذي يستطيع أن يتقلب أقصى ما يمكن تقلب بمعنى آخر؛ أن القلب تمر عليه أحوال متعددة فيها أحوال حسية، وأحوال روحية، فكلها تنعكس في

» عبارة عن إدراك القلب للعلاقات القائمة بين الأشياء» (١).

فلما كان القلب محلّ العقل، وكان العقل ليس جوهرًا قائمًا بذاته ولا متحيزًا ولا محددًا بمكان، وإنما هو فعل إدراكي صادر عن القلب، وأيضاً هو وصف يتصف به القلب، ولما كانت التزكية أفعالا مقصودة، والقلب يتعلّقها ويميّز سقيمها وصحيحها، فإن التزكية فعل يصدر عن القلب، فيكون القلب محلّ العمل التزكوي.

والمأمل في هذه النتيجة التي تعززها شواهد الوحي، ليقف مستغرباً ومستنكراً إزاء التقديس الذي لحق العقل بوصفه الذات المدركة، وهو في الواقع فعل إدراكي، حتى أن الفقهاء ظلوا يصفونه مناط التكليف، بينما لم ينل القلب توصيفه الحقيقي الصّحيح، وظل محلاً للمشاعر وللانفعالات، ومحلاً للحسد والغيرة وأمراض القلوب، لم يجاوز ذلك التصور إلى أنه الذات القائمة بذاتها، الأمرة الناهية المحاسبة المُعاتبة، المختارة طريق التزكية أو طريق التدسية، مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ: «إن في الجسد مضغة... وعلى هذا يكون قلب المتزكي عاقلاً، وقلب المتدسي غير عاقل، والشواهد من القرآن كثيرة، تدل على أن المفلحين والناجين هم أصحاب الألباب والعقول، قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا

(١) نفسه، ص: ٧٣.

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، الجزء الأول، ص: ١٣٣.

أفعال القلب، فالعقل يحمل شيئاً من الإحساس، من الحس، ويحمل شيئاً من الروح، باعتبار أن القلب هو الذي يصدر عنه هذا الفعل^(١).

المحور الرابع: خصائص ومقتضيات التزكية:

خصائص العمل التزكوي :

انطلاقاً من التعريف الذي صاغه الدكتور طه حول العمل التزكوي بأنه : « الاجتهاد في التعبد لله بالقدر الذي يُتوصّل به إلى تخليص الإنسان من مختلف أشكال الاستعباد »^(٢)، حدّد الدكتور خصائص التزكية ملخصاً إيّاها في سبع خصائص هي كالتالي^(٣):

أولها : « أنه عمل عمقي لا سطحي؛ لا يقتصر هذا العمل على التأثير على ظاهر الفرد، بل تنفذ آثار هذا العمل إلى باطن الفرد، بل إلى باطن باطنه، حتى تبلغ غايته متى تمّ القيام به على شرائطه »^(٤).

ثانيها : « أنه عمل كلي لا جزئي؛ لا ينحصر هذا العمل في بعض أجزاء الفرد، بل يتسع ليشمل ذاته كاملة غير منقوصة، بحيث يؤدي هذا العمل إلى تكامل مكونات الفرد وتفاعلها فيما بينها، إمداداً واستمداداً، على اعتبار أن ماهية الإنسان ذات لا تتفرّق وكل لا يتبعّض »^(٥).

ثالثها : « أنه عمل تحويلي لا تغييري »^(٦)؛ لأنه « عمل يدور في أعماق الإنسان، نافذاً إلى الجذور المعلولة في نفسه، فيجتثها من أصلها لتحول معه مدارك الإنسان رأساً على عقب، بدءاً بعقله وانتهاء بحسه، فعقله ليس كعقل غيره... وحسّه هو أيضاً ليس كحس غيره »^(٧).

رابعها : أنه عمل تّوثيري، لا تطويري؛ لأنه « يسعى إلى إخراجه من صنفه السلوكي الأصلي إلى صنف سلوكي آخر... كأنما يقلب سلوكه رأساً على عقب؛ فما تعود أن يرفعه يأخذ في خفضه، وما تعود أن يخفضه يأخذ في رفعه، بحيث يثوّر حياته تّوثيراً »^(٨).

(١) حوار قناة الجزيرة مع الدكتور طه عبد الرحمن بعنوان العقلانية الحوارية، الجزء الثالث، يحاوره مالك التريكي.

(٢) سبقت الإشارة إلى مصدره.

(٣) أحصى الدكتور طه عبد الرحمن في مؤلفه روح الدين ست خصائص، ص: ٢٦٥، بينما أشار في مؤلفه سؤال العمل إلى خمس خصائص، ص: ١٦٠.

(٤) نفسه، ٢٦٥.

(٥) نفسه، ٢٦٥.

(٦) نفسه.

(٧) سؤال العمل، ص: ١٦١.

(٨) روح الدين، ص: ٢٦٥، ٢٦٦.

يؤكد أن العمل التزكوي قادر على أن ينتزع من قلب الفرد الذي بلغ أقصى درجة من التسلط كالطغاة المتألهين حُبَّ التَّسَيِّد.

حقائق العمل التزكوي :

بعد أن فرغنا من ذكر خصائص التزكية، نأتي إلى بيان حقائق العمل التزكوي، والتي جعلها الدكتور المفكر طه عبد الرحمن، أربعة :

أ- العمل التزكوي فوق الأعمال؛ فليس هذا العمل من جنس الأعمال الأخرى ولا من رتبها، وإنما هو على الحقيقة، عامل إحياء روحي لهذه الأعمال على اختلافها، إذ يمدّها بأسباب التبصّر في تحديد أهدافها وبأسباب الحكمة في استعمالها.

ب- العمل التزكوي فوق المؤسسات؛ ليس هذا العمل من جنس المؤسسات الأخرى... فيكون المنطق الذي ينضبط به العمل التزكوي، هو الارتقاء بالشأن الديني بواسطة تأييد سلطة العقل بسلطة الغيب، فتندفع عن تدبير هذا الشأن آفات الاستعباد التي يمكن أن تدخل عليه.

ج- العمل التزكوي فوق الأوطان؛ هذا

خامسها : «أنه عمل متصل، لا منقطع»^(١)؛ «ليس للعمل التزكوي فترة زمنية مخصوصة من حياة الإنسان... وإنما الحقيقة أن هذا العمل يتعين على الإنسان مع حصول التكليف، نظرا لأن الإنسان لم يُخلق إلا للتعبد لله على وجه الإخلاص»^(٢).

سادسها : «أنه عمل تدرّجي، لا طفري؛ لا يحمل هذا العمل الفرد على أن يأتي بجملته من الممارسات التعبدية دفعة واحدة تبرأ ذمته منها بعد إتيانها... وإنما يبدأ بتكليفه بالقدر الذي تطيقه نفسه... حتى إذا استأنست بهذا القدر... انتقل بها إلى تعبدات أخرى»^(٣).

سابعها : «أنه عمل سلمي، لا عنفي؛ إن العمل التزكوي لا يقهر الفرد بالقوة، ولا يرغمه على ممارسة معينة؛ لأن الأصل في هذا العمل، هو أن يريد الفرد الدخول فيه عن طواعية، ويقبل عليه برضاه، وإلا لن يؤتي ثماره الإصلاحية»^(٤).

هكذا يحصي الدكتور طه عبد الرحمن، خواصا سبعا للعمل التزكوي، هي: «العمق والكلية والتحويل والتثوير والاتصال والتدرج والسلم»^(٥)، وهو من خلال هذه الخصائص

(١) نفسه، ٢٦٦.

(٢) سؤال العمل، ص: ١٦٢.

(٣) روح الدين، ص: ٢٦٧.

(٤) نفسه، ٢٦٧، ٢٦٨.

(٥) نفسه.

وهكذا نكون عبر هذه الرحلة القصيرة، قد أحطنا بمفهوم التزكية لدى المفكر المجدد طه عبد الرحمن، من خلال تعريفه لها وتحديد أركانها وخصائصها، وأيضا من خلال التحليل المستفيض لمفهوم القلب العاقل، فواجب المكلف إذن أن يطلب نماء المعنى في داخله، كما يطلب نماء المادة في ظاهره، هذا النماء الداخلي الذي لن يتأتى إلا باستفراغ الوسع واستنفاد الجهد في طلب المعنى بالتعب؛ لأن التعب «معنى من المعاني الغيبية التي أودعها الله فطرة الإنسان، عندما سوَّى خلقه ونفخ فيه روحه»^(٢)، وما التعب إلا تزكية يسعى القلب العاقل لاستكمالها في مهمة استخلافه في الأرض، وهي التغيير المطلوب والمتحتم على كل إنسان مسلم ليرقى بإنسانيته، بل غاية الحياة أن يصبح الإنسان إنسانا.

العمل لا يحده وطن مخصوص، على حب صاحبه لبلده الأصلي وغيرته على أهله، ولكنه يتسع للعالم كله؛ وذلك لأن القيم الروحية التي يبيتها في القلوب هي تجليات للرحمة.

د - العمل التزكوي فوق السلطات؛ لأن التربية التي قد تتولاها السلطة السياسية لا تتعدى تربية الأفراد على المواطنة، بينما العمل التزكوي يربهم على ما أسميه بـ «المُخالقة»، وشتان ما بين التربيّتين، فالمواطنة عبارة عن جملة من القيم السياسية الوضعية... بينما المخالقة هي عبارة عن جملة من القيم الكلية التي فطر الله الإنسان عليها...^(١).



(١) سؤال العمل، ص: ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨.

(٢) روح الدين، ص: ٢٧٠.



**التحكيم في الأحوال الشخصية
بدول مجلس التعاون الخليجي**
قواعد ورؤى وتطبيقات - عقبات ومقترحات

د. حبيب الناملتي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وخير العادلين وسيد ولد آدم أجمعين، أما بعد:

فقد نظم التشريع حياة الأسرة على أفضل الوجوه كي تستقر الأمة ويهنا المجتمع، فبينت حقوق وواجبات كلا الزوجين كي لا يطغى جانب على آخر ولا يُقصر أي طرف عن أداء ما وجب عليه، وإن من تمام هذا النظام متكامل البناء تنظيم أسس وقواعد حل ما يطرأ من مشكلات وعقبات وما تعصف بالعلاقة الزوجية من محن وملامات، فنظم أسس إنشاء الأسرة وقواعد الحفاظ على كيانه أصالة، ثم إن رأينا نقضه فبأدنى درجات التأثير السلبية على الفرد والمجتمع؛ لذا شرعت وسائل متنوعة لإقامة العدل وإعادة الحق لأصحابه، ونزع أسباب الشقاق والخلاف بين أطرافه، ومن ذلك الصلح والتحكيم والقضاء.

إلى إعادة النظر في هذه الوسيلة الشرعية لعلنا نصل إلى رؤى جديدة وحلول واقعية، ووسائل تتسم بالجدة.

إن التحكيم من الوسائل القديمة في تاريخ الإنسانية لحل المنازعات وقد تطور مع النمو الحضاري للبشرية، وعرف عند الأمم بمختلف أجناسها، ومنهم العرب كوسيلة متقدمة على الأخذ بمبدأ الثأر؛ فجاء الإسلام وأقر ما كان منها بما لا يتعارض مع قواعد الشرع ويحقق مصلحة الخلق، فكان للعرب حكام يرجعون إليهم في أمورهم، ويتحاكمون إليهم في منازعاتهم، وموارثهم، ودمائهم؛ فكانوا يحكمون أهل الرئاسة والتجربة، والسنن والمجد، والصدق والأمانة.

إن مما نلمسه اليوم ازدياد نسب الطلاق في دول الخليج العربي حيث أشارت الإحصائيات في السنوات الأخيرة إلى نسب مرتفعة، وقد كثرت القضايا والمشاكل الأسرية التي تحتاج منا إلى معالجات، مما جعل الدول تتحمل مشاكل اجتماعية متجذرة، ونفقات مالية باهضة جراء ذلك.

ومن الوسائل الناجعة لحل المشكلات الأسرية التحكيم، الذي يحد من حالات الطلاق، ويحفظ الأسرة؛ ذلك لما فيه من محاولات للصلح والتوفيق، وإمكان تحديد الطرف المتسبب في الشقاق، وتقليل الظلم الواقع ورفع الضرر، كما يساعد القضاء في أداء مهمته في مجالات متعددة، مما يجعل التحكيم مطلباً أساسياً في واقعنا المعاصر، فنحن بحاجة

عنه، فكما أن التحكيم التجاري يخضع لأنظمة وقوانين؛ فإن من الضروري وجود جهات تحكيم في الأحوال الشخصية تمتاز بالحياد والخبرة، ويتواجد فيه أهل الاختصاص في مجالات يحتاج إليها للتوفيق بين الطرفين.

وفي سياق ذلك سيحاول البحث أن يقرر بعض المبادئ العامة في التحكيم وبيان ارتباطها بالأحوال الشخصية، ثم إلى عرض لأهم الأسباب التي تجعلنا نلجأ للتحكيم، والإشارة لبعض التصورات والرؤى والمقترحات لتوسيع دائرة التحكيم لكي نحاول فتح آفاق جديدة، ثم بعد ذلك تعرض لتجارب الدول الخليجية في التحكيم عبر قوانين الأسرة ومحاولة المقارنة بينها وتعداد لأبرز الإشكاليات، وأهم الحلول الإجرائية وآليات التحكيم، ووسائل تلافي السلبيات، حتى تتحقق بيئة معرفية تسبق الإجراءات التنظيمية.

وسيحاول البحث الإجابة على الإشكاليات التالية: كيف يمكن الربط بين القواعد العامة للتحكيم مع قضايا الأحوال الشخصية، لماذا اللجوء إلى التحكيم مع وجود القضاء، ما هي الآفاق الجديدة التي يمكن أن يتناولها التحكيم الأسري، ما واقع التحكيم في دول

هذا وقد كان يُحتكم إلى الرسول ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام^(١) ومنها الواقعة المشهورة عند تحكيمه في وضع الحجر الأسود في مكانه وانتهى النزاع بحكمه، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم من بعده في وقائع قد يطول عرضها تدل بمجموعها على اتفاقهم بأن التحكيم مرجع يصار إليه لحل النزاع بين الخصوم.

ولابد أن أشير في هذه المقدمة أن التحكيم لا يزال في تطور مستمر شأنه شأن سائر الوسائل في التاريخ البشري، ليس بالضرورة أن نقف عند حد أو نحصر أنفسنا في صور ونماذج محدودة ودوائر ضيقة، بل علينا أن ننطلق في التنظير ثم التطبيق إلى مساحات أوسع وآفاق أرحب؛ وذلك بحسب الحاجة المتغيرة للإنسان في زمانه ومكانه.

أضحى التحكيم بأنواعه وصوره المختلفة سمة من سمات عصرنا الحاضر، وقد اتجهت العديد من الدول الإسلامية وغيرها إلى التحكيم في المعاملات المالية التجارية، وقد تطور التحكيم في هذا الاتجاه تطوراً ملحوظاً ملموساً لا يمكننا أن نشاهد له نظيراً في مجالات شرعية أخرى كالمنازعات المدنية وقضايا الأحوال الشخصية الذي نحن بصدد البحث فيه والحديث

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ١، ص ١٥٧.

الله التوفيق والسداد، والإعانة والرشاد.

المبحث الأول:

مقدمات في التحكيم الخاص بقضايا الأحوال الشخصية

قبل الشروع فيما نحن بصددده وإتماماً لبنيان الموضوع لننظر إليه من جميع جوانبه، يتوجب علينا أن نقدم بممهّدات كمدخل للتحكيم مع ربط ذلك بالأحوال الشخصية في المطالب التالية:

المطلب الأول: المقصود بالتحكيم والأحوال الشخصية:

أولاً: تعريف التحكيم: إذا رجعنا إلى معاني الحكم في اللغة فإننا سنجد بأنها تدور حول المنع، ويقال: حُكِّم فلان في كذا، إذا جعل أمره إليه^(١)، وأما في الاصطلاح: فقد عرفه ابن عابدين من الحنفية بقوله: «تولية الخصمين حكماً يحكم بينهما»^(٢)، ويُعرف عند أهل القانون بأنه: «الاتفاق على طرح النزاع على شخص معين أو أشخاص معينين ليفصلوا فيه دون المحكمة المختصة»^(٣)، ويلاحظ عند النظر في التعاريف

مجلس التعاون الخليجي عبر مدونات الأسرة واللوائح التنظيمية والتطبيقات العملية، ما هي أبرز الإشكاليات التي تواجه التحكيم، وما هي الجهات التي يمكن أن يلجأ إليها للتحكيم في قضايا الأسرة، وما هي الحلول المقترحة لتجاوز إشكاليات التحكيم؟.

معتمداً في البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي في الجانب النظري، والتحليلي في الجانب التطبيقي، وذلك بعبارات مختصرة دون الإغراق في المقدمات والممهّدات التي أشبعت بالتفصيل والتحليل، وعلى ذلك سينطلق البحث من ثلاثة مباحث: الأول تعريف التحكيم وبعض المصطلحات المتداخلة معه، وتعريف الأحوال الشخصية، وتناول بعض المقدمات في أدلة مشروعية التحكيم، وأثره، وأنواعه، وفي المبحث الثاني: سيتطرق البحث إلى ضرورة اللجوء إلى التحكيم وحدوده وآفاق جديدة فيه، وفي المبحث الثالث: سيكون الحديث عن واقع التحكيم في مجلس التعاون الخليجي، وأبرز العقبات وأهم الحلول لتجاوز العقبات وتفعيل التحكيم، سائلاً

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (حكم)، ج ٢، ص ٩١.

(٢) ابن عابدين، رد المختار على الدر المختار، ج ٥، ص ٤٢٨، وينظر: درر الأحكام شرح مجلة الأحكام، حيدر، ج ٤، ص ٥٣٢.

(٣) التحكيم الاختياري والإجباري، أحمد أبو الوفاء، ص ١٥، وقد جاء في ورقة مقدمة من محكمة الاستئناف الإدارية بالمنطقة الشرقية في تعريف التحكيم بأنه: «عقد تولية رضائي من طرفي الخصومة إلى طرف ثالث ليفصل فيما تنازعا فيه بحكم ملزم لهما»، ويلاحظ أن هذا التعريف تناول نوعاً من أنواع التحكيم وهو الرضائي.

وتخصصه، بخلاف الحكامين اللذين لا ينظران إلا في القضية المعروضة عليهما والتي تُصبا للتحكيم فيها، وحكم القاضي ينفذ في الكافة دون حكم الحكامين اللذين يقتصران على الأطراف^(٤)، ويشترط في الحكامين إن كانا من قبل المتنازعين رضاهما بهما، بخلاف القاضي، كما يلاحظ بأن الشروط التي يشترطها الفقهاء في الحكامين أقل من الشروط التي تشترط في القضاة.

إن من ينظر إلى الممارسة العملية اليوم للتحكيم في قضايا الأسرة يجد بأنها أشبه ما تكون بعمل المصلح من جهة محاولة الإصلاح، والخبير من جهة تحديد المتسبب في الضرر، ودور القاضي إن اعتبرنا إلزامية قوله في التفريق.

ثالثاً: الأحوال الشخصية: يقصد بالأحوال الشخصية كل ما يتعلق بشخص الإنسان وذاته^(٥)، وما يترتب على هذه الأوضاع من آثار

عموم قضايا التحكيم وشمولها كافة الأبواب كأصل عام.

ثانياً: الألفاظ ذات الصلة بالتحكيم: لا بد عند التنظير والتطبيق التفريق بين عمل المصلح^(١) والخبير^(٢) والقاضي^(٣) والمحكم، فإن هذه الوسائل الأربعة تتفق فيما بينها في المقصد إلى حل النزاع، فأما المصلح فإن التحكيم يجري فيما يجري فيه، إلا أنه يشتمل على تنازلات من أحد الطرفين بخلاف التحكيم الذي لا يشترط فيه ذلك، والمصلح قد يتبرع به مصلح في حين أن التحكيم قد يكون بتولية الخصمين أو القاضي.

وأما الخبير فهو يقدم رأيه عند طلب القاضي منه كي يسترشد به عند الحكم في القضية المطروحة دون السعي إلى مصالحة أو حكم، وأما القضاء فإنه يفترق عن التحكيم بعدة فروق أبرزها: أن سلطة القاضي عامة في منطقتة

(١) المصلح: «عقد يرفع النزاع بالتراضي وينعقد بالإيجاب والقبول»، مادة: (١٥٣١)، مجلة الأحكام العدلية، ينظر: درر الحكام شرح مجلة الأحكام، حيدر، ج ٤، ص ٢، والمصلح هو الذي يباشر ذلك بين الطرفين المختلفين.

(٢) الخبير: صاحب الدراية والمعرفة والتجربة والتخصص في القضية المطروحة، ويستعان به ويسترشد برأيه عند الحكم فيها.

(٣) قال ابن رشد وتبعه ابن فرحون في حقيقة القضاء بأنه: «الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام»، وقال ابن عرفة: «القضاء صفة حكمية، توجب لموصوفها نفوذ حكمه الشرعي ولو بتعديل أو تجريح لا في عموم مصالح المسلمين»، مواهب الجليل، الخطاب، ج ٨، ص ٦٤.

(٤) شرح المجلة، اللبناني، ج ٢، ص ١١٩٤، مادة (١٨٤٢) من مجلة الأحكام العدلية: «لا يجوز ولا ينفذ حكم المحكم إلا في حق الخصمين اللذين حكماه، وفي الخصوص الذي حكماه به فقط، ولا يتجاوز إلى غيرهما»، ص ٣٧٥.

(٥) أحكام الأحوال الشخصية، د عبدالعزيز عزام، د أحمد السبع، ص ٦. وهذا التقسيم للفقهاء جعل الأحوال الشخصية في مقابل الأحكام المدنية والتجارية والجناائية مهم ومما يقتضية تطور العلوم في العصر الحديث، حيث تشعبت التخصصات وتنوعت، وقد جاء في حكم قديم لمحكمة النقض المصرية الصادر في ٢١ / ٦ / ١٩٣٤ م في بيان الأحوال الشخصية: «ما يتميز به الإنسان عن غيره من الصفات الطبيعية أو العائلية التي ترتب القانون أثراً قانونياً في حياته الاجتماعية... وبوجه عام فإنه يصطلح بهذه التسمية

حقوقية والتزامات أدبية أو مادية^(١)، ويندرج ضمنها جميع مسائل الزواج والطلاق، والولاية، والوقف، والوصية، والموارث، وفقهها.

المطلب الثاني: مشروعية التحكيم وأثره:

أولاً: مشروعية التحكيم: ذهب جمهور العلماء إلى مشروعية التحكيم عموماً إلا ما ذهب إليه بعض الشافعية لما فيه بحسب وجهة نظرهم من الافتيات على الإمام ونوابه^(٢)، وهذا القول يمكن أن يصح إن لم يكن هناك تنظيم لعملية إجراء التحكيم، أما وإن التحكيم اليوم في كثير من إجراءاتها في دول العالم أخذت منحى التنظيم والتقنين فلا مسوغ لهذا الرأي.

وأما التحكيم فيما يتعلق بالأسرة فقد يكون محل اتفاق الفقهاء إذ دلت عليه الأدلة بنص كتاب الله، ودلالة سنة رسول الله، وإجماع المسلمين.

فمن أدلته من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾

وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا... ﴿[النساء: ٣٥] الآية^(٣)، ففي الآية توجيه الزوجين والمجتمع لوسيلة من وسائل حل النزاع والبعد عن الشقاق، فإن كان من الزوجة فعبّر المصير إلى التحكيم من أطراف الأهل، وإن كان من الزوج فتم تنظيمه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرُهُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وإن جاز اللجوء إلى التحكيم في هذه الصورة جاز اللجوء إليها في غيرها من مسائل الأحوال الشخصية، فقد عمم العلماء الحكم حتى استدل به ابن عباس -رضي الله عنهما- على الخوارج.

وأما الأدلة من السنة: فقد حَكَمَ النبي ﷺ سعد بن معاذ -رضي الله عنه- في يهود بني قريظة^(٤)، وحَكَمَ الأعور بن بشامة في أمر بني العنبر حين انتهبوا الزكاة، وفي حديث أبو شريح لما سمعهم النبي ﷺ يكتفون بأبي الحكم فدعاه، وقال: (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم فلم تكني أبا الحكم)، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء

على النظام « القانون » الشامل لمشكلات الأسرة والوقف والإرث والتركات، ونحوها، ينظر: التعليق على قانون أحكام الأسرة البحريني، ص ١٨.

(١) شرح قانون الأحوال الشخصية، د مصطفى السباعي، ج ١، ص ١١.

(٢) روضة الطالبين، النووي، ج ١١، ص ١٢١.

(٣) قال القرطبي رحمه الله: « وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم وليس كما تقول الخوارج إنه ليس التحكيم لأحد سوى الله تعالى وهذه كلمة حق ولكن يريدون بها الباطل »، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٥، ص ١٧٩.

(٤) متفق عليه، البخاري، ج ٣، ص ١٣٨٤، مسلم، ج ٣، ص ١٣٨٨، قال النووي: « فيه جواز التحكيم في أمور المسلمين، وفي مهماتهم العظام، وقد أجمع العلماء عليه »، شرح مسلم، النووي، ج ١٢، ٩٢.

منها ما يتعلق بطرفيه، وبالمحكّمين، وبالمسألة التي ينظر التحكيم فيها، وسأذكرها باختصار، مع مناقشة بعضها بحسب تطبيقات وقضايا الأحوال الشخصية:

أولاً: شروط طرفي التحكيم: طرفا التحكيم هما الخصمان المتنازعان اللذان اتفقا على فُضّ النزاع فيما بينهما، وكل منهما يسمى المحكّم^(٥)، ويشترط فيهما أهلية التعاقد، فلا يجوز من الوكيل من غير إذن موكله، ولا الصغير من غير إذن وليه ولا يصح حكمه عليه بما فيه ضرر^(٦). كما يشترط الفقهاء رضا الطرفين بالتحكيم قبل الحكم^(٧)، ويظهر بأن شرط الرضا في التحكيم الذي لا يكون من قبل القضاء، وفي هذا السياق جاءت المادة (٢) من لائحة التحكيم السعودي، حيث قالت: «لا يصلح الاتفاق على التحكيم إلا ممن له أهلية التصرف الكاملة، ولا يجوز للوصي على القاصر أو الولي المقام أو ناظر الوقف اللجوء إلى التحكيم ما لم يكن مأذوناً

أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال ﷺ: (ما أحسن هذا)، ثم كناه بأبي شريح^(١).

ثانياً: أثر التحكيم: وقع الاتفاق على تنفيذ اتفاق المحكّمين في حالة الجمع، واختلفوا في لزومه في التفريق، فالجمهور على لزومه^(٢)، والذي يظهر من الآية اللزوم؛ إلا أن الأمر يختلف بحسب ما يراه السلطان في تنظيم آليات إجراء التحكيم، هذا فيما يتعلق بالزوجين، أما في عموم الأحكام فقد قال ابن قدامة: «وإذا تحاكم رجلان إلى رجل حكماه بينهما ورضياه وكان ممن يصلح للقضاء، فحكم بينهما، جاز ذلك، ونفذ حكمه عليهما»^(٣)، وإن حكم المحكّم المعين من السلطان نافذ، وكذلك الحكم الذي عرض عليه وصدقه^(٤).

المطلب الثالث: شروط وأركان التحكيم:

عند النظر فيما سطره الفقهاء وخطه بنائهم عن شروط التحكيم فإننا نجد بأن هذه الشروط

(١) أخرجه أبو داود، ج ٤، ص ٤٤٤، النسائي، ج ٣، ص ٤٦٦، صحيحه الألباني.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٣) المغني، ابن قدامة، ج ١١، ص ٤٨٤. وفي مجلة الأحكام العدلية مادة (١٨٤٨): «حكم المحكّمين لازم الإجراء على الوجه المذكور في حق من حكمهم، وفي الخصوص الذي حكموا به؛ فلذلك ليس لأي واحد من الطرفين الامتناع عن قبول حكم المحكّمين، بعد حكم المحكّمين حكماً موافقاً لأصوله المشروعة»، ص ٣٧٦.

(٤) شرح المجلة، اللبناني، ج ٢، ص ١١٩٨-١١٩٩.

(٥) الموسوعة الفقهية، ج ١٠، ص ٢٣٦.

(٦) البحر الرائق، ابن نجيم، ج ٧، ص ٢٨.

(٧) حاشية رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، ج ٥، ص ٤٢٨-٤٢٩.

له بذلك من المحكمة المختصة»^(١).

ثانياً: شروط المحكم: اشترط جمهور الفقهاء في المحكم أن يكون أهلاً لولاية القضاء^(٢)، هذا مع عدم التشديد في هذا الأمر لاسيما فيما يتعلق بشرط الاجتهاد إذ يندر وجوده في الناس عموماً، ويكتفى في ذلك ما يتعلق بالدراية بما يتعلق بقضايا الأسرة وإدراك طرق الإصلاح.

قال الباجي في صفة من يجوز تحكيمه: «فأما صفة من يحكم فأَنْ يكون رجلاً حراً مسلماً بالغاً عاقلاً عدلاً رشيداً»^(٣)، وقد وضع الفقهاء شروطاً في علاقة المحكم بالمحكم لرفع التهمة في تحكيمه، ومنها عدم صحة حكم المحكم لمن لا تجوز شهادته له^(٤)، ومن الواضح أن التطبيقات العملية لا تنظر إلى الشروط بتلك الشدة وخصوصاً فيما يتعلق بقضايا الأسرة ويكتفون في المحكم كما أفاد القضاة بكونه رجلاً مسلماً ظاهر العدالة، غير مطعون عليه من الطرف الآخر.

هذا وإن هناك بعض الشروط التكميلية في المحكمين: ومنها إرادة الإصلاح وهذا الأمر وإن كان من الأمور الباطنة إلا أنه قد تظهر على الشخص بعض علامات الصلاح وسيما الخير أو ضده يستشفها القاضي فيمن يختارهم من أسرة الزوجين، أو ممن يتم اختيارهم للتحكيم، ويمكن تكميل ذلك بالتوجيه المباشر من قبل القاضي لاستحضار هذا المعنى مع تحليفهم على ذلك.

وفي المادة (٤) من التحكيم السعودي ذكرت بعض من لا يجوز التحكيم منهم، فقالت: «لا يجوز أن يكون محكماً من كانت له مصلحة في النزاع وحكم عليه بحد أو تعزير في جرم مخل بالشرف أو صدر بحقه قرار تأديبي بالفصل من وظيفة عامة أو حكم بشهر إفلاسه ما لم يكن قد رد إليه اعتباره»^(٥).

ثالثاً: محل وحدود التحكيم: محل التحكيم هو النزاع القائم بين الأطراف المختلفة، وقد اختلف الفقهاء فيما يصح أن يكون محلاً

(١) اللائحة التنفيذية لنظام التحكيم في المملكة العربية السعودية، رقم ٧/٢٠٢١ م في ٨/٩/١٤٠٥ هـ.

(٢) وقد تخفف بعض أهل العلم من هذه الشروط فقد جاء في كشف القناع: «العشر صفات التي ذكرها في المحرر في القاضي لا تشترط فيمن يحكمه الخصمان»، كشف القناع، البهوتي، ج ٦، ص ٣٠٩، واكتفى بعض العلماء باشتراط ما يشترط في الشاهد، صنون القضاء وعنوان الإفتاء، الأشفورقاني، ج ٤، ص ٦-٥، بل جوز اللخمي حكم المحكم وإن كان عامياً إن استرشد بالعلماء، تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج ١، ص ٥٠.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، الباجي، ج ٥، ص ٢٢٨.

(٤) شرح المجلة، اللبناني، ج ٢، ص ١١٩٦.

(٥) اللائحة التنفيذية لنظام التحكيم في المملكة العربية السعودية، رقم ٧/٢٠٢١ م في ٨/٩/١٤٠٥ هـ.

وطني داخلي، وهو الذي تكون جميع عناصره محلية، وإلى دولي خارجي أجنبي؛ وذلك في حالة وجود عنصر خارجي أو إجراء خارج بلد النزاع، وقد لا يثار مثل هذا النوع في الأحوال الشخصية فلا عبرة غالباً باختلاف الجنسية، وإنما الإشكال يقع عند اختلاف الدين.

المطلب الخامس: متى يلجأ إلى التحكيم في مسائل الأحوال الشخصية؟

يسعى كل من الزوجين إلى العشرة بالمعروف، فإذا بدئ من أحدهما ما يكره من الآخر فإنه يصبر عليه ابتداءً ويُغلب النظر إلى جوانب الخير فيه، فإذا استفحل الخلاف ولم يتمكن الطرفان من الصلح وحل النزاع داخلياً فإنهما يلجآن إلى التحكيم، والمعمول به أن ذلك يكون بإحالة من القاضي بعد عجزه عن الصلح، قال الجويني: «وإن نشبت خصومة بين الزوجين، وأشكل الأمر، فلم ندر من الظالم منهما؟... فهذا موضع بعثة الحكيمين»^(٢)، في حين أن الآية تُرغّب في اللجوء إليهما قبل حصول النزاع وبمجرد الخوف منه وقبل استفحال المشكلة، والشقاق الذي يكون بين الزوجين لعدم رضاها بما يصدر من الآخر من الأقوال أو الأفعال، إن بعض الخطوات التي ذكرها الفقهاء من أجل تخفيف الخلاف أو معرفة السبب في الشقاق قد

للتحكيم وما لا يصح، ووضعوا لذلك ضابطاً عاماً فقالوا: «ما صح فيه الصلح صح فيه التحكيم»^(١).

المطلب الرابع: أنواع التحكيم:

حتى يمكننا تنزيل بعض المقترحات والحلول حول التحكيم يتوجب علينا أن نقف سريعاً مع أنواعه، فيقسم باعتبارات مختلفة، فبحسب حرية الإرادة في اللجوء إليه ينقسم إلى:

التحكيم الاختياري: وهو ما يكون للخصوم الخيار بين اللجوء إلى القضاء العادي أو طرح النزاع على التحكيم، وله صور: فهو إما أن يكون بواسطة مؤسسة أو مركز تحكيمي فيتولى المركز اختيار المحكمين، وإما أن يكون باختيار الطرفين المتنازعين، ويسمى بالتحكيم الحر.

التحكيم الإلزامي أو الإجباري: وهي في الحالات التي يلجأ إليها المقنن لإلزام المدعين إليه، أو اتفاق الطرفين عليه، وذلك إما لقصد تخفيف عمل القضاء أو إعطاء فرصة للصلح، أو للطبيعة الخاصة بالمنازعة، وفي تطبيقات الأحوال الشخصية فإننا نجد بأنها تعتمد على هذا النوع.

وبحسب محل إجراء التحكيم، ينقسم إلى

(١) شرح المجلة، اللبناني، ج٢، ص ١١٩٤، وسيأتي مزيد تفصيل في هذا المحور المهم في المبحث الثاني.

(٢) نهاية المطلب في دراية المذهب، الجويني، ج١٣، ص ٢٨١.

وسيؤثر سلباً على الأسرة والأبناء؛ فإن كل طرف يحاول الطعن في الطرف الآخر واكتساب موقف أقوى.

يصعب تنفيذها وتنزيلها اليوم من الناحية العملية مما يستوجب النظر في وسائل وطرق أخرى.

المبحث الثاني:

ضرورة اللجوء إلى التحكيم وحدوده وآفاق جديدة فيه

إن الاتجاه السائد اليوم بين المثقفين وجمهور من العلماء والباحثين تقرير التحكيم وذكر مزاياه والدعوة لتطبيقه بحيث يأخذ مساحة أكبر مما هو عليه، ويغطي جوانب متعددة كانت تُعد ردحاً من الزمن من اختصاصات القضاة، ويبقى السؤال هل المزايا المطروحة واقعية أم نسبية تختلف بحسب مكان وزمان المقارنة بين التحكيم والقضاء؟!

بات اللجوء إلى التحكيم من الضروريات أو الحاجيات العامة في المجتمعات وفي كافة المجالات، ومن المهم في بحثنا هذا استشعار أهمية اللجوء إلى التحكيم، وأن نتعرف على حدود التحكيم، وما يصح فيه وما لا يصح، ونطرق أبواب ومسائل قد يرد فيها التحكيم للبحث والمناقشة حتى يتم توسيع آفاق المعنيين من الفقهاء والقضاة؛ وذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: لماذا نلجأ إلى التحكيم مع وجود القضاء:

وهنا يقال بأن قضايا الأحوال الشخصية غالباً ما لا تنفرد في المزايا التي تذكر للتحكيم، كالسرعة في التقاضي، والإنقاص من المصروفات، وتلافي اللدد في الخصومة بين المتنازعين، والسرية في المعلومات، وكذلك النقد المثار حول التحكيم بشكل عام يمكن تنزيل جزء كبير منه عليه، ومنها حرمان الخصومة من الضمانات التي كفلت للقضاء، وعدم امتلاك الحكّمين من الخبرة التي يملكها القضاة^(١)، وإذا أردنا تتبع أسباب لجوء الناس إليه فإننا نفرق بين حالتين، الأولى: تعيين المحكمين الزوجين أو غيرهم ويمكن أن نسميه بالذاتي، والثانية: تعيينهم من جهة القضاء:

التحكيم كبديل من بدائل رفع الدعوى، وكخيار من خيارات حل المشكلات، فإننا نسلّم الخيار الأمثل الذي دعا إليه ربنا بقوله: ﴿الطَّلُوقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَصْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فإذا لم نسيطر على النزاعات المتعلقة بالأحوال الشخصية قبل اللجوء إلى المحكمة فإن الموضوع سيزداد تعقيداً واشتباكاً

أولاً: تعيين محكمين قبل اللجوء إلى

(١) عقد التحكيم، د قحطان الدوري، ٣٣-٣٥.

إلا أن غالب مدونات الأسرة نصت على حالة وحيدة، وفي النظرة الشمولية للتحكيم وتوسيع آفاقه ومجالاته تحقق مزايا عدة، منها:

* في التحكيم حفظ لمنزلة ومكانة القاضي حتى لا يزوج به في كل القضايا، ويتفرغ للنظر والفصل في الأمور المشتبهة التي تحتاج لدقة نظر واجتهاد.

* التخفيف على القضاء من حيث أعداد القضايا المحالة إليهم، ومعاونتهم في أداء أعمالهم.

* مساندة القضاء الشرعي في ممارسة أعماله، مساعدة الحكام الشرعيين المعتمدين، وأئمة المساجد الذين يدخلون للإصلاح بين الزوجين الذين يكونون مقصد الزوجين عند حدوث المشاكل، اكتساب الخبرات.

* يحقق التحكيم في الأحوال الشخصية الاستفادة من الخبرات وأهل الرأي في المجتمعات.

إن السلبيات المذكورة بعضها مفاصد تدوب مع المصالح العظيمة التي يحققها التحكيم، وبعضها يمكن تلافي آثارها وتخطي مشاكلها

القضاء: إن تعيين المحكمين من قبل الزوجين يحفظ لهما خصوصية مشاكلهم الداخلية، وقدراً كبيراً من السرية التي تسعى إليها الأسرة رغبة منها في الستر، كذلك تختصر عليها مدة النزاع إذ إن الغالب في إجراءات القضاء عند فصلها في المنازعات المعروضة عليها طول إجراءاتها، وفيه حفظ للنفوس وعدم الإغراق في المشكلة وال حاجة في الخصومة مما تحقق طمأنينة الأسرة، التي تسبب أضراراً كثيرة.

وهذه الطريقة محموددة قبل اللجوء إلى القضاء إذ المشكلات غالباً إذا وصلت القضاء صعب حلها ودخلت في دائرة الخصومة التي ينظر فيها كل طرف بنظرة الغالب والمغلوب، فالتحكيم في هذه الصورة يُعد بمثابة المحكمة العائلية، وفي ذلك يقول السباعي: «إن اشتد الخلاف بحيث لم يعد يتحمل أحدهما تصرفات الآخر، أوجب الإسلام أن تشكل محكمة عائلية لحل الخلاف بينهما في حدود الأسرة، وتكون لجنة التحكيم مؤلفة من عضو يختاره الزوج، وعضو تختاره الزوجة»^(١).

ثانياً: التحكيم من قبل القضاء: قد يكون قرار التحكيم من قبل القضاء وهو الغالب اليوم،

(١) شرح قانون الأحوال الشخصية، السباعي، ج ١، ص ٢١٤.

ببعض الإجراءات والتنظيمات والاحترافات الإدارية أو التقنية أو التثقيفية والتوعوية.

المطلب الثاني: حدود التحكيم في قضايا الأحوال الشخصية

من المقرر عند الفقهاء توسيع دائرة التحكيم في المجتهديات من حقوق العباد من كل حق يجوز الاعتياض عنه^(١) ولا يستثنون إلا بعض الصور لاعتبارات معينة، فلا بد من تحديد ما يدخل في إطار التحكيم وما لا يدخل، حتى تتسع دائرة التحكيم وتشمل مناحي مختلفة.

قال ابن عابدين: «قوله (في كل المجتهديات) أي المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد من حقوق العباد كالطلاق والعتاق والكتابة والكفالة والشفعة والنفقة والديون واليوع بخلاف ما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً»^(٢).

ولعل التحكيم لم ينتشر كثيراً ولم تتعدد تطبيقاته، بدليل عدم تناول الفقهاء إلا صورة محدودة، وسبب ذلك خشيتهم من تجاسر الناس

عليه وافتياتهم على السلطات القضائية، فإنهم «منعوا من تولية القضاء لغير الأهل لئلا يحكم بغير الحق، وكذلك منعوا من التحكيم هنا لئلا يتجاسر العوام على الحكم بغير علم»^(٣)، وهذا المانع قد لا يظهر عند وجود عملية تنظم هذا الأمر، والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

الضابط في التحكيم كما قال ابن العربي: «أن كل حق اختص به الخصمان جاز التحكيم فيه ونفذ تحكيم المحكم فيه... بيد أن الاسترسال على التحكيم خرم لقاعدة الولاية، ومؤد إلى تهارج الناس كتهارج الحمر، فلا بد من فاصل؛ فأمر الشرع بنصب الوالي ليحسم قاعدة الهرج؛ وأذن في التحكيم تخفيفاً عنه وعنهم في مشقة الترافع لتتم المصلحتان وتحصل الفائدة»^(٤)، والحنابلة ممن يتوسعون ففي الإقناع: «وإن تحاكم شخصان إلى رجل يصلح للقضاء فحكماه بينهما فحكم، نفذ حكمه: في المال والقصاص والحد والنكاح واللعان وغيرها، حتى مع وجود قاض فهو كحاكم الإمام»^(٥).

(١) حاشية رد المحتار، ابن عابدين، ج ٥، ص ٤٢٩.

(٢) حاشية رد المحتار، ابن عابدين، ج ٥، ص ٤٣٠. وانظر: عند الحنفية يحوز في القصاص، البحر الرائق، ابن نجيم، ج ٧، ص ٢٦. صنون القضاء وعنوان الإفتاء، الأشفورقاني، ج ٤، ص ٢١، والمالكية يجوز عندهم التحكيم إلا في الرشد وضده، والوصية، والحبس المعقب وأمر الغائب، والنسب، والولاء وحد وقصاص ومال يتيم، فهذه تختص بالقضاة. الخرشي على مختصر سيدي خليل، ج ٥، ص ٢٩٩، والعلة في عدم سريان التحكيم في الحدود أنها تحتاج إلى وسائل لا تتسنى للمحكم.

(٣) حاشية رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، ج ٥، ص ٤٣٠.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ١٨٠.

(٥) الإقناع، الحجاوي، ج ٤، ص ٣٧٦.

المطلب الثالث: آفاق جديدة للتحكيم

الموضوعات التي يمكن أن تشملها قضايا التحكيم، مما لم تتطرق إليه التشريعات، لعلها تفتح آفاقاً جديدة، وتطبيقات لم تكن محل نظر أو بحث من قبل المنظمين أو الممارسين للتحكيم أو القضاء، وهذه بعض المجالات التي لا أدعي حصر جميعها، إلا أنها قد تشير إلى غيرها:

(أ) التحكيم في حال عدول الخاطب عن الخطبة: إذا عدل الخاطب عن خطبته قبل العقد فهل يعوض مخطوبته في جميع الصور والحالات، أم لا يعوضها بشيء، أم يعوضها بقدر الضرر الواقع عليها، هذه المسألة ممكن أن تخضع للتحكيم فإن بعض الرجال يفوت على المرأة خطاب ويعلقها مدة من الزمن موهمًا بإرادته للزواج ثم يعدل، أو يعدل بعد أن يكون جالس المرأة وخرج معها، أو التعويض عن الضرر الواقع بسبب عدول أحد الخاطبين عن إتمام الزواج، فإن تقدير الضرر وجوداً وعدمًا، ومقداره، من المسائل التي تخضع لاعتبارات

قال ابن فرحون: «إن الخصمين إذا حكما بينهما رجلاً وارتضياه؛ لأن يحكم بينهما، فإن ذلك جائز في الأموال وما في معناها، ولا يقيم المحكم حداً، ولا يلاعن بين الزوجين، ولا يحكم في قصاص أو قذف أو طلاق أو عتاق أو نسب أو ولاء»^(١)، ثم بين العلة في الاستثناء^(٢)، ثم بين أثر التحكيم فيما لا يجوز^(٣)، وقد قال الرملي: «ويشترط فيه، أي في صحة اللعان أمر القاضي أو نائبه، أو المحكم بشرطه... ولو كان اللعان لنفي الولد خاصة لم يجز التحكيم؛ لأن للولد حقاً في النسب، فلم يسقط برضاها»^(٤).

وهذا يتلخص بأن الأصل شمول أحكام التحكيم وعمومه في مسائل الأحوال الشخصية إلا بعض القضايا التي تحمل طبيعة خاصة، وهناك أمور يجوز التحكيم فيها من مسائل القضاء لكن لا يتعدى حكمه إلى الغير، كالتحكيم في مسائل الإرث^(٥)، وجاء في لائحة التحكيم السعودي في المادة (١): «لا يجوز التحكيم في المسائل التي لا يجوز فيها الصلح كالحدود واللعان بين الزوجين وكل ما هو متعلق بالنظام العام»^(٦).

(١) تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج ١، ص ٥٠.

(٢) تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج ١، ص ٥٠.

(٣) تبصرة الحكام، ابن فرحون، ج ١، ص ٥٠.

(٤) نهاية المحتاج، الرملي، ج ٧، ص ١١٥.

(٥) حاشية رد المحتار، ج ٥، ص ٤٣١، وذلك في سياق ذكر الفروق بين القضاء والتحكيم.

(٦) اللائحة التنفيذية لنظام التحكيم في المملكة العربية السعودية، رقم ٧/٢٠٢١ م في ٨/٩/١٤٠٥ هـ.

كالسن والجمال والمال والبلد والعصر والتقوى والأدب والخلق وذات الولد^(٣)، وهذه الأمور أعرف الناس بها وأخبر بتفاصيلها أهل الزوجين، وعند اختلافهما يُضم إليهما مرجع.

(د) التحكيم في تحديد نفقة الزوجة حال الزواج وبعد الطلاق: مع تدمير العديد من الأزواج من النفقة التي تفرضها عليهم المحاكم لأبنائهم من الزوجة المطلقة، ومحاولة تحايل بعضهم عليها بتحمل ديون أو تسجيل ممتلكات بأسماء آخرين، فلعل فتح باب التحكيم في ذلك يقلل من هذه التبعات، ويحل بعض المنازعات، فالقاضي هو الذي يقدر أصالة مقدار النفقة بحسب تكاليف المعيشة وحال الزوجين أو حال الزوج^(٤) وله أن يستعين بأصحاب الخبرة.

(هـ) التحكيم في الولي: ذهب بعض الشافعية إلى جواز التحكيم ولو من غير خصومة، كأن يحكم اثنان في نكاح ثالث إذا فقدت الولي الخاص بنسب أو معتق^(٥)، كأنه بذلك يحل محل الولي عند فقد العصباء، ويقيد بما يقيد

وتحتاج إلى نظر قريب، علماً بأن هذا التعويض لم يشر إليه الفقه، وإنما توجهت بعض القوانين معتمدة على قواعد رفع الضرر العامة في الشريعة.

(ب) التحكيم في تحديد الكفاءة وعيوب النكاح: مما تعدد فيها الآراء وتختلف الرؤى وتحتاج لدراسة ودراية بأهل الزوجين الكفاءة، ويقصد بها: التساوي بين الزوجين في الطبقة الاجتماعية بحيث تكون الحياة مستقرة بين الزوجين ويندفع العار عن الزوجة أو أوليائها، وقد جاء في اشتراط الكفاءة في النكاح، قول النبي ﷺ: «تخيروا النطفكم فأنكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم»^(١)، والعيوب لا يحكم فيها بأقل من شهادة عدلين من أهل الدراية بتلك العيوب^(٢).

(ج) التحكيم في تحديد الصداق، عندما يحدد الصداق بمهر المثل: في حالات عدم تحديد في عقد النكاح إذا لا يعد ركنًا فيه وإنما أثر من آثاره، أو تسمية ما لا يصلح أن يجعل صداقًا فإنه يصار إلى مهر المثل، وإن تحديد مهر المثل مما يقع فيه الخلاف وترجع فيه إلى اعتبارات مختلفة

(١) رواه ابن ماجه، ج ١، ص ٦٣٣، وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ص ٥٢٤، هذا وإن الفقهاء بعد اتفاقهم على الكفاءة في الدين والحرية، اختلفوا في غيرها، كالنسب، والمهنة، واليسار، وغيرها، والمفتي به أن الكفاءة شرط لزوم، فلو عقد الزواج، فللاولياء الحق في الاعتراض.

(٢) فصول الأحكام، الباجي، ص ١٥١.

(٣) شرح قانون الأحوال الشخصية، السباعي، ج ١، ص ١٩٦.

(٤) كما في المادة (٧٦) من القانون الكويتي: «تقدر النفقة بحسب حال الزوج يسراً وعسراً مهما كانت حال الزوجة على أن لا تقل عن الحد الأدنى لكفاية الزوجة».

(٥) حاشية إعانة الطالبين، البكري، ج ٤، ص ٢٥٣. فتاوى ابن حجر الهيتمي، ج ٥، ص ٢٦٧.

ز) التحكيم في تعيين الحاضنة^(٢): حدد الفقهاء الأولوية فيمن يقدم في الحضانة، وعلى إثرها استتقت منها القوانين المختلفة من له الأولوية في حق الحضانة، إلا أنها تنظر أيضاً إلى مصلحة المحضون كحق من حقوقه، وأعطت السلطة التقديرية للقاضي بنفسه^(٣) أو عبر الاستعانة بالخبراء لتقديم أو تأخير من تراهم مناسباً، ومن أدوار المحكمين العملية الاستفادة من خبراتهم بحكم قريهم من الأسرة، ووقوفهم على بعض التفاصيل التي لا يقف عليها غيرهم.

ح) مسائل الوقف والصايا والموارث، وما يتعلق باستبدال الأوقاف، وإدارة الأوقاف المتنازع عليها، أو قسمتها، أو طريقة الانتفاع بها، وكذلك قسمة الموارث المتشابهة.

المبحث الثالث:

واقع التحكيم في مجلس التعاون الخليجي العقبات والحلول

تُفرد جميع أنظمة الأحوال الشخصية والأسرة على اختلاف مسمياتها في دول مجلس التعاون الخليجي مباحث ومواد تنظم التحكيم

به القاضي من شروط، وفي هذا القول فتح باب ومخرج حسن للمسلمين في الدول غير الإسلامية.

و) التحكيم في تحديد أجر الرضاع: من الصور التطبيقية للتحكيم والتي تبين سعة عمل المحكمين أمر الله عز وجل بإعطاء أجر المرضعة، وأرشد إلى أن يكون هذا الأجر مبني على التشاور، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِكُمْ مَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦]، وهذه الدعوة للتشاور لم تكل الأمر فيه إلى القضاء صراحة بل جعل الأمر متروكاً إلى التشاور بين الزوجين حتى يصلوا إلى أجر معلومة، قال ابن عاشور: «خطاب للرجال والنساء الواقع بينهم الطلاق ليتشاوروا في أمر إرضاع الأم ولدها. وما يبذله الأب لها من الأجرة على ذلك، وقيد الائتمار بالمعروف»^(١)، ولعل الزوجين في هذه الحالة لن يستطيعوا الوصول إلى حل نظراً لوجود النزاع في غالب الأحيان، ومن هنا يمكن أن نصير إلى حكم المحكمين في ذلك، ويمكن أن نستشف هذا من صيغة الأمر التي جاءت بالجمع لا المثنى.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٢٨، ص ٣٢٩.

(٢) الحضانة: هي حفظ الولد في بيته ومؤنة طعامه ولباسه ومضجعه وتنظيف جسمه، شرح حدود ابن عرفة، الرضاع، ص ٢٨٠.

(٣) جاء في المادة (١٣٤) من قانون الأسرة البحريني: «للقاضي الاستعانة بذوي الاختصاص والخبرة في الشؤون النفسية والاجتماعية عند الحكم بتقرير الحضانة مراعاة للمصلحة الراجحة للأولاد...»، فهذه المادة تقرر حكماً إجرائياً جوازيًا إذ تعطي للقاضي الحق في الاستعانة بذوي الاختصاص، وهذا نوع من التحكيم، وفي الحقيقة قليل التطبيق في الإجراءات التطبيقية العملية.

في حال الشقاق، وفي هذا المبحث سنلقي الضوء على إجراءات التحكيم فيها، ثم العقوبات التي تواجهه، ثم بعض المقترحات والحلول العملية لتطويره؛ وذلك في المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: إجراءات التحكيم في دول مجلس التعاون

إن القوانين تتجه في التحكيم إلى ما ذكره الفقهاء في إجراءاته وأسبابه، فإن القاضي بعدما يشكل عليه أمر الزوجين مع تكرار شكوى الزوجة وتعذر الإصلاح يبعث حكيمين عدلين من أهلها، فإن لم يكن فمن غيرهما، وهما يجتهدان في الإصلاح بينهما، ويسمعان منهما، ثم قد يمضي حكمهما أو يرفعان الأمر إلى القاضي، وقد نظم هذا الإجراء ابن عاصم في

تحفة الحكام، بقوله:

وَإِنْ ثُبُوتُ ضَرَرٍ تَعَدَّرَا

لِزَوْجَةٍ وَرَفَعُهَا تَكَرَّرَا

فَالْحَكَمَانِ بَعْدُ يُعْعَشَانِ

بَيْنَهُمَا بِمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

إِنْ وُجِدَا عَدْلَيْنِ مِنْ أَهْلِهِمَا

وَالْبُعْثُ مِنْ غَيْرِهِمَا إِنْ عُدِمَا

وَمَا بِهِ قَدْ حَكَمَا يَمْضِي وَلَا

إِعْذَارَ لِلزَّوْجَيْنِ فِيمَا فَعَلَا^(١)

وبعد النظر في القوانين المنظمة للتحكيم^(٢)، يمكن أن نخلص إلى أبرز الملاحظات والمقارنات بين دول مجلس التعاون؛

(١) ينظر: إحكام الأحكام على تحفة الحكام، الشيخ محمد بن يوسف الكافي، ص ٧٦-٧٧.

(٢) نظمت المواد (١٠٢-١٠٨) من القانون البحريني والعماني، والمواد (١٣١-١٣٥) من القانون القطري، والمواد (١٢٧) من القانون الكويتي، والمواد (١١٨-١٢١) من القانون الإماراتي مسألة التحكيم، مع فروق بين بعضها في الإجراءات والصياغة، وأما المملكة العربية السعودية فقد أصدرت لائحة تنفيذية عامة لنظام التحكيم فيها، برقم ٧/٢٠٢١ م في ٨/٩/١٤٠٥ هـ، وتناولت في بابها الأول: التحكيم، المحكمون، والمحتكمون (١-١٠)، والباب الثاني: إخطار المحتكمين، والحضور والغياب، والتوكيل في التحكيم (١١-١٩)، والباب الثالث: الجلسات ونظر الدعوى وإثباتها (٢٠-٣٧)، والباب الرابع: إصدار الأحكام والاعتراض عليها والأمر بتنفيذها (٣٨-٤٤)، ثم عن أنعاب المحكمين (٤٥-٤٦).

هذا وقد صدر قرار رقم (٨٤) لسنة ٢٠١٥ ثم تعديله بالقرار رقم (٤٧) لسنة ٢٠١٦ من وزير العدل البحريني بشأن تشكيل مكتب التوفيق الأسري وتحديد القواعد والإجراءات اللازمة للقيام بمهام تسوية المنازعات الأسرية، وكان أبرز ما جاء فيه: المادة الثالثة: يختص المكتب بتسوية المنازعات الأسرية ودياً وذلك حفاظاً على كيان الأسرة ومستقبل الأطفال إن وجدوا عن طريق محاولة إزالة أسباب الشقاق والخلاف بين أفراد الأسرة ورأب الصدع الأسري. المادة التاسعة: على هيئة المكتب الاجتماع بأطراف النزاع وبعد سماع أقوالهم القيام بتبصيرهم بآثار النزاع المختلفة وعواقب التمادي فيه وإبداء النصيح والإرشاد بقصد التسوية والاجتهاد في سبيل ذلك لتقريب وجهات النظر وتحقيق الصلح والتسوية الودية دون ولوج سبيل التقاضي. المادة الثانية عشرة: إذا تمت تسوية النزاع صلحاً في جميع عناصره أو بعضها يحرر محضر بما تم الصلح فيه ويكون لمحضر الصلح قوة السند التنفيذي وينتهي به النزاع في حدود ما تم الصلح فيه.

يباشر عمله في التحكيم أن يحلفه على أداء المهمة الموكلة إليها بأمانة ونزاهة، وهذا ما لم تنص عليه قوانين أخرى، وإن كانت مفعلة في بعض التطبيقات العملية.

* تمر الإجراءات في التحكيم في بعض القوانين كالعماني أو القطري بثلاث مراحل، فيتم تعيين حكيمين ثم غيرهما إن لم يتفقا ثم يتم تعيين مرجح، في حين أن القانون الكويتي اختصر ذلك وجعل المرجح بمجرد عدم الاتفاق من المحكمين الأولين.

* حدد القانون الكويتي في المادة (١٣٢) حسماً لتطويل الدعوى طريقة العمل في حالة عدم تقديم المحكمين لتقريرهما أو اختلاف آرائهما دون ترجيح طريقة العمل وذلك بسير المحكمة في إجراءاتها العادية، وفي سياق اختصار المدة جاءت الفقرة الثانية من المادة (١١٨) من القانون الإماراتي حيث جعلت مدة لعمل المحكمين بأن لا يتجاوز عملهم مدة تسعين يوماً ويحوز للقاضي مدها.

* في المادة (٣٩) لنظام التحكيم السعودي بينت بعض الإجراءات بقولها: «يصدر المحكمون قراراتهم غير مقيدين بالإجراءات النظامية عدا ما نص عليه في نظام التحكيم ولائحته

وسنعرضها في أربع نقاط تالية، ثم أختتم بعرض أبرز الإجراءات في لائحة المحكمين بإمارة دبي كنموذج تطبيقي، وسأعرض في المرفقات نموذجاً لتقرير من محكمين في المملكة العربية السعودية، ونموذجاً آخر لحكم مبني على تحكيم في مملكة البحرين:

أولاً: في وقت الإحالة على التحكيم: ذهبت القوانين إلى أن التحكيم يكون بعد تكرار الشكوى وعجز القاضي عن الإصلاح، إلا أن القانون الإماراتي وكذلك القانون البحريني بعد التعديل الأخير جعل ذلك بعد عجز لجنة التوفيق الأسري أو القاضي عن الإصلاح؛ وذلك بحسب ما أفادت المادة (١١٨) إماراتي، فهي بذلك ترتقي درجة عن بقية القوانين، وتجعل دوراً للتحكيم قبل لجوء الأمر إلى القضاء.

ثانياً: شروط المحكم: يشترط في المحكم أن يكون من أهل العدالة الظاهرة، وعدم دخوله مع الطرف الآخر في نزاع، واشترط بعض القوانين أن يكون من أهل الاختصاص أو من أهل الصلاح أو من أهل الخبرة إن لم يكن الاختيار من أهل الزوجين.

ثالثاً: إجراءات التحكيم:

* اشترط القانون الإماراتي في المحكم قبل أن

وإذا لم تسفر الجهود عن تسوية النزاع ودياً وأصر طرفا النزاع أو أحدهما على استكمال السير فيه يحرر محضر بما تم من رئيس المكتب ويرسل الطلب وجميع الأوراق إلى قسم تسجيل الدعاوى للسير في الإجراءات أمام المحكمة الشرعية المختصة وذلك في موعد أقصاه خمسة أيام من تاريخ تسلمه لملف القضية من مكتب التوفيق الأسري.

التنفيذية، وتكون قراراتهم بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية والأنظمة المرعية»^(١).

رابعاً: لزوم قرار الحكّمين: إن التشريعات لم تفد صراحة إلى لزوم حكم الحكّمين إلا القانون الإماراتي الذي جعل من صلاحية الحكّمين اتخاذ قرار التفريق بين الزوجين، وقد جاء في المذكرة الإيضاحية للقانون: « قد بينت المادة (١٢١) أن القاضي إذا بعث حكّمين فأصدرهما حكماً فإنه يصدق على حكمهما؛ إذ الأصل المقرر عند المالكية أن حكم المحكم ملزم للقاضي، ويصدق عليه إذا كان موافقاً للأصول»^(٢)، وتستند حجة من يرى عدم لزوم قرار الحكّمين استناداً إلى أن الأصل في الطلاق ليس بيد أحد سوى الزوج أو من يوكله الزوج، ويناقش بأن هذا الأصل قام الدليل على خلافه، فالقاضي يطلق إذا تبين له الضرر.

خامساً: تجربة إمارة دبي: في وضع لائحة بشأن المحكمين في دعاوى الأحوال الشخصية^(٣) تعرف ب: « نظام المحكمين في دعاوى الأحوال الشخصية»، في التنظيم الإماراتي لأعمال المحاكم الشرعية وضعت لائحة خاصة لأعمال المحكمين تكونت من (٢٣) مادة،

وقد ضمت اللائحة عدداً من الأمور الإجرائية التنظيمية المهمة لطريقة سير عمل المحكمين، تتلخص في الآتي:

١. تتكون لجنة شئون المحكمين من قضاة، ومدير محاكم، تعنى بالإشراف على المحكمين، وتنظم اختيارهم من حيث الشروط والإجراءات، وتحدث البيانات، والأعمال الموكلة للمحكمين والمكافآت، وآليات انعقاد واتخاذ قرارات اللجنة، في المواد (٣-٦).

٢. شروط من يقيد في جدول التحكيم، فاشترطت في المحكم الرجولة والإسلام والزواج وأن يتمتع بكامل الأهلية القانونية، وأن لا يقل عمره عن أربعين سنة ميلادية، وأن يكون حاصلاً على مؤهل من إحدى الجامعات أو المعاهد الشرعية، وأن يجتاز الاختبارات والمقابلات الشخصية المقررة، وأن يؤدي القسم أمام رئيس المحكمة، في المادة (٨) و(١٠).

٣. واجبات المحكم: المحافظة على أسرار المهمة الموكلة إليه، والتقيّد بالأعراف

(١) اللائحة التنفيذية لنظام التحكيم في المملكة العربية السعودية، رقم ٧/٢٠٢١ م في ٨/٩/١٤٠٥ هـ.

(٢) المذكرة الإيضاحية لقانون الأحوال الشخصية الإماراتي، ص ٢١٧، وينظر: التحكيم وموقعه من القضاء والشريعة والقانون، د. عبدالكبير المدغري.

(٣) نظام رقم (٨) لسنة ٢٠٠٦ م - إمارة دبي.

إجراءات التحكيم وموضوعاته في التنظيمات التي تبين موضوع التحكيم وإجراءاته في دول الخليج العربي يظهر بجلاء محدودية مساحة التحكيم وقضاياه إلا ما يمكن أن نقف عليه في النظام العام للائحة التحكيم في المملكة العربية السعودية، في حين أن الآفاق واسعة كما رأينا، والحاجة ماسة إلى شمول التحكيم لمجالات متعددة.

ب) التضرار في الأحكام: بسبب عدم تقيد المحكمين بنظام فكثيراً ما تتضرار أحكامهم وقد تتعارض الأحكام مما يؤدي عدم مساواة الناس، ويمكن أن تتلافى هذا بإلزام المحكمين بالأنظمة المعمول بها أو بالراجع في مذاهب مشهورة في البلد وتحديد مجال وطبيعة عملهم، وترك مجال اجتهداهم في الأعراف الخاصة، أو التقديرات التي تستند على النظر.

ج) طول الإجراءات: من الملاحظ بأن عملية التحكيم وإن كان التوجه إليها لاختصار الوقت، إلا أنها قد تأخذ وقتاً طويلاً لا سيما إذا لم يضبط عملها بوقت، وقد يقال بأن طول الإجراءات مقصود لعل النفوس تهدأ والقلوب تتصافى ويهتدي الطرفان للصلح؛ إلا أن زيادة الأمر عن حده قد يعود على أصله بالبطلان.

د) مكان التحكيم: ليس للتحكيم مكان محدد في المحاكم أو غيرها، فيلجأ المحكم

والآداب العامة لتحديد الأوقات المناسبة لجلسات التحكيم، وطريقة ومدد إنجاز التحكيم، في المادة (١١) ومابعداها.

٤. حالات ردّ المحكم، وتقدير أتعاب المحكمين (مادة: ١٩) وتعتمد على تقدير المحكمة وفقاً لظروف كل دعوى، وتلزم بها طالب التفريق، أو مناصفة بينهما، وتصرف بعد انتهاء المهمة.

٥. تنظيم عملية إجراءات التأديب اللازمة ضد المحكم المقيّد بالجدول وفق جدول الجزاءات في المادة (٢٠-٢١).

المطلب الثاني: أبرز العقبات التي يواجهها التحكيم

يظهر عدد من الإشكاليات العملية والنظرية التي تواجه التحكيم تشكل عقبات حقيقة في طريق انتشاره وتحقيق مقاصده، وإذا نظرنا إلى واقع التحكيم التنظيمي أو العملي عبر الاطلاع على القضايا أو مجالسة المباشرين للتحكيم من القضاة أو لجان الإصلاح الأسري، فإننا نقف على عدد من الإشكاليات الواقعة أو المتوقعة، ويمكن تقسيم هذه إلى عامة، وعقبات في التحكيم من قبل القضاء، أو التحكيم من غيرهم:

أ) ضيق أفق التحكيم من حيث التشريع والتطبيق: مما يمكن ملاحظته عند عرض

عليهم اكتساب خبرات وآليات، فإن النقص واضح في المحكمين المدربين أو المؤهلين في قضايا الأسرة.

ح) أضحي وجود شخص كبير أو حكيم في الأسرة يصار إلى حكمه ويُرجع إلى قوله من الأمور النادرة، بل بدأت تتلاشى في المجتمعات، فالإشكال الواقع اليوم تعبير كل طرف مرشح من قبل الأهل عن رغبات وطلبات الطرف الذي يمثله، وتقيد به بما يمليه عليه.

المطلب الثالث: حلول ومقترحات لتفعيل وتطور التحكيم

في هذا المطلب نخرج على بعض الوسائل والمقترحات التي عن طريقها يمكن تفعيل وتطوير التحكيم وتوسع مجالاته، حيث تشمل آفاق ورؤى مختصرة على مستوى ذات التحكيم أو الإجراءات أو الرغبة فيه والدعوة إليه، ومن هذه المقترحات:

أ) تفعيل أدوار التوفيق الأسري: كما ذهب إلى ذلك القانون الإماراتي في المادة (١٦) فجاء فيها: « لا تقبل الدعوى أمام المحكمة في مسائل الأحوال الشخصية؛ إلا بعد عرضها على لجنة التوجيه الأسري»، وعمل هذه اللجنة ملزم كما يظهر من نص المادة وعملها نوع من التحكيم، فإن هذا الصلح يثبت في محضر يوقع عليه الأطراف، وعضو اللجنة المختصة، ويعتمد

إما إلى مكتبه الخاص أو في بعض الدول يحكم في صالات المساجد، أو في الجمعيات، أو في منزل المتحاكمين، مما يجعلنا ضرورة التفكير في تخطي هذه المشكلة بتحديد أماكن خاصة للتحكيم.

هـ) عدم وضوح آليات اختيار المحكمين: وعدم تحديد جهات يمكن اختيار المحكمين منها في بعض القوانين، في حين أن بعضها وضعت من اللوائح التفصيلية التي يمكن الاستناد عليها في الاختيار.

و) عدم لزوم قرار المحكمين: توجهت غالب القوانين إلى عدم لزوم قرار المحكمين وجعلت حكمهما حكماً استرشادياً، وقد لا نواجه هذه الإشكالية كثيراً في التطبيقات العملية إذ إن غالب القضاء يريد إنهاء النزاع، وأقرب الأحكام إليه ما توصل إليه الحكماء بعد المدة الطويلة والمداولات المتعددة.

ز) عدم توافر المتخصصين في مجال التحكيم: يحتاج المحكم إلى وسائل وقدرة ونوع من الخبرة ومهارات تفاوضية حتى يقوم بالتحكيم، ومن المشاهد بأن غالب من يقوم بالتحكيم ممن تخصص في الدراسات الشرعية، وقد يلجأ الناس إلى أئمة المساجد، إلا أن الدراسة الشرعية لوحدها ليست كافية في معرفة المشاكل التي عند الناس وكيفية علاجها، بل

منوالها، ومن ذلك طريقة اختيار المحكمين، وأسباب ردهم، وغير ذلك من التفاصيل^(٣)؛ ذلك مع مراعاة الفوارق بين كل نوع من أنواع التحكيم.

(ج) عقد دورات وورش للتحكيم: من الضروري تكوين أرضية صلبة للتحكيم عبر نشر ثقافته ووجود محكمين مؤهلين للقيام به، وذلك بإقامة المحاضرات العامة، وإدخال موضوعات التحكيم في المواد الدراسية بحسب المراحل العلمية المختلفة.

وكذلك بتدريب كوادر متمكنة في دورات متخصصة، تمر بمراحل، تبدأ بالتعليم المباشر النظري، ثم بالممارسة العملية مع المباشرين للتحكيم، وتطلعهم هذه الدورات على آليات التحكيم وأساسياته، وتشتمل على أساسيات إيمانية تربوية حتى يستشعروا قصد الإصلاح، وفقهية تعرض فيها الأحكام العامة، وعملية إجرائية فيها نماذج وخبرات سابقة.

ومن الذين يتم تأهيلهم متخصصون بحسب اللغات المختلفة والجنسيات التي يكثر وجودها في دول مجلس التعاون الخليجي، فإن الأسر

القاضي هذا المحضر، ويكون له قوة السند التنفيذي، ولا يجوز أن يطعن فيه إلا إذا خالف قانون أحكام الأسرة، «فهذه اللجنة كما هو معروف عنها: جهاز اجتماعي يعمل فيه مجموعة من الاختصاصيين الاجتماعيين والنفسيين الذين يُعَوَّل عليهم في تقصي المشكلات التي تتعرض لها الأسرة»^(١).

ثم قال د. إسماعيل العيسوي وهو ما يهمننا في تحديد طبيعة عمل اللجنة: «والذي يمكن قوله أن الصلح الذي توصل إليه الأطراف أمام لجنة التوجيه الأسري يمثل التحكيم بالصلح»، ويصدر هذا الصلح وفقاً لقواعد العدالة، ويشترط فيه أن يكون منطقياً ومعقولاً يأخذ بالاعتبار كافة الظروف المحيطة بالقضية^(٢)، وفي حالة تعذر عمل اللجنة فإنه يلجأ إلى القاضي الذي يصير إلى تعيين محكمين بصفة إلزامية وتحكيمهم قد لا يكون صلحاً.

(ب) الاستفادة من الأنظمة المتطورة في التحكيم بالفروع الأخرى: كالتحكيم التجاري على وجه الخصوص، فإننا نشهد في الساحة العالمية في قواعد وأنظمة التحكيم التجاري مما يستوجب معه الاستفادة منها، والسير على

(١) الاتجاهات الجديدة لقانون الأحوال الشخصية، ج ٤، ص ٣٣.

(٢) الاتجاهات الجديدة لقانون الأحوال الشخصية، ج ٤، ص ٣٤.

(٣) فينظر بجانب قوانين التحكيم في الدول العربية قانون الأونسيرال النموذجي للتحكيم التجاري الدولي، الأمم المتحدة ١٩٩٤، بصيغته التي اعتمدها لجنة الأمم المتحدة.

هذا النوع من النزاع، لذلك يمكن أن ننظر لذلك،
بهذه المحددات:

* فإن التحكيم إما أن يكون من قبل من يرشحهم
الطرفان من الأسرة فيتم اعتبار عملهم مبنياً
على التبرع، والقربة والإصلاح واحتساب
الأجر.

* وإن كان من قبل الجمعيات الأهلية
المتخصصة المصرح بها، فإنه يمكن أن تدعم
من الدولة عبر وزارة العدل أو التنمية للقيام
بمهمتها السامية، أو عبر تبرعات أهل الخير،
أو الأوقاف التي تخصص لهذه الأعمال.

* التحكيم في المكاتب الاستشارية أو عبر
المحامين، فإن الذي يتحمل نفقة التحكيم
أطراف النزاع من الزوجين بحسب ما يتم
الاتفاق عليه.

* وإن كان التحكيم من قبل اختيار أو تعيين
من القضاء، ممن يتصدون لهذه المهمة، فإن
نفقات التحكيم تكون على الوزارة المعنية
بإقامة العدل، وتعد العمل من مكملات
عملها، باعتبارها إحدى أجهزتها وذات خدمة
عامة للمجتمع. تكفل الدول لمراكز وجهات
التحكيم.

* نشر ثقافة التحكيم: إن كان التحكيم مما كتب
فيه كثير في المحافل العلمية إلا أن ثقافته بين

الوافدة التي لا تجيد اللغة غالباً ما لا يمكنهم
ترشيح محكمين من الأهل، وقد تحدث معهم
من المشاكل التي يحتاجون معها إلى وضع
حلول لمنازعاتهم.

هـ) إنشاء مجلس للتحكيم الأسري يتبع
المجالس القضائية وتحظى بنوع من الاستقلالية،
تباشر عملية التحكيم بنفسها أو تقوم بترشيح
محكمين، أو تشرف على الجهات والمراكز
التي تقوم بالتحكيم، وتنظم عملية المحكمين
في قوائم واختيارهم إلكترونياً، بحيث يسهل
الوصول إليهم.

ويكون من مهام هذا المجلس التنسيق مع
الجهات المختلفة للتحكيم: فمن الملاحظ تعدد
الجهات وغياب التنسيق بينها، وربط أعمال
المحكمين بأعمال القضاء، وعلى مستوى
الإجراءات يمكن الاستعانة ببعض القضاة
للتحكيم في خارج وقت العمل الرسمي، على أن
لا يكون قاضي التحكيم هو ذاته قاضي الحكم.

و) محددات نفقات التحكيم: لا يمكن
عملياً في بلاد كثيرة وحالات متعددة تحميل
طرفي النزاع في مسائل الأحوال الشخصية
تكاليف التحكيم فهي تحظى بنوع خصوصية لا
يمكننا قياسها على غيرها مما يقصد بها الربح،
فإن غالب أحوال الزوجين المتنازعين المشاحة
وقلة ذات اليد، والحرص على عدم الإنفاق في

في المملكة العربية السعودية كمثال على الجهات الرسمية تم تشكيل لجان لإصلاح ذات البين في الإمارات المختلفة، وتختلف هذه اللجنة عن غيرها في أنها تجمع بين موعظة القرآن وهيبة السلطان، وأي قضية لا تنتهي بالصلح فإن اللجنة ترفع لسمو أمير المنطقة بتقرير مفصل فيه بيان لكافة الملابسات مع تحديد الطرف المعتدي أو الظالم المعتدي مع إبداء المرئيات والمقترحات المناسبة التي تؤخذ بعين الاعتبار^(١).

والذي يمكن ملاحظته على عمل هذه اللجان أنها عامة في جميع القضايا وغير متخصصة وهذا غير معيب في حقها إذ إن تحت كل لجنة أقساماً تعالج وتتابع موضوعات بعينها، والملاحظة الثانية أن قراراتها لا تحظى بالإلزام، ولعل التوجه إلى عدم إلزام قرار المحكمين حتى لا يتم أخذ دور القضاء في حل المنازعات والفصل فيها.

النتائج والتوصيات

ها نحن نصل إلى نهاية مطاف هذا البحث، لنقف على أبرز النتائج فيه، ونشير إلى بعض التوصيات، آمين أن نسهم ولو باليسير في تطوير التحكيم والتعجيل من إجراءاته حتى يحقق مقاصده، ويتففع الجميع بشماره:

صناع القرار والممارسين من القضاة وعموم الناس في بعض الدول لا يزال دون المستوى المؤمل والجهود دون الطموح، وحتى يتوسع عمل التحكيم وتعدد مجالاته، كان لابد من العمل على اتجاهين:

الأول: نشر الثقافة بين المختصين من القضاة، وأصحاب القرار وإشعارهم بأهميته، فإنهم إن لم يشعروا بأهميته لن يلتفتوا إليه، ولن يبادروا لتفعيله.

الثانية: على مستوى العامة عبر الوسائل المختلفة كالتلفزيون والإذاعة والصحف والشبكات العنكبوتية وبأساليب معاصرة واستصدار مجلات متخصصة، وبحملات إعلامية مكثفة، حتى تصل فكرة التحكيم إلى كل بيت، وتنتشر ثقافته بين الناس جميعاً.

ج) دعم الجمعيات والجهات التي تقوم بالتحكيم: قد نشهد في غالب الدول الخليجية جمعيات أو لجان رسمية أو أهلية تسعى للإصلاح بين الأسر تحتاج لأن تعطى نوع من الصلاحية والمزيد من الاستقلالية، ويتم استصدار ترخيص خاص لهذه المراكز، وشهادات للمحكمين لها تخضع لمعايير وبعد امتحانات ومقابلات تعدها الجهات المختصة.

(١) موقع لجنة إصلاح ذات البين - المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إمارة منطقة مكة المكرمة.

أولاً: النتائج

يمكن من خلالها تجاوز العقبات التي تعترض للتحكيم، تحتاج لتفعيل.

ثانياً: التوصيات:

* توسيع دائرة التحكيم في قضايا الأحوال الشخصية بحيث تشمل كافة الموضوعات، وعدم قصر وحصر التحكيم في صورة فريدة وحيدة.

* عقد ورش عمل بين المتخصصين من الأكاديميين وأصحاب القرار والممارسين من القضاة والمحامين حتى يدرسوا مجالات التحكيم في قضايا الأحوال الشخصية وسبل ووسائل تفعيل ذلك عملياً عبر الأرضية التنفيذية والأجهزة التنفيذية.

* وجود رقابة قانونية سابقة ولاحقة على أعمال المحكمين من قبل أجهزة الدولة المعنية بإقامة العدالة، تؤكد من وجود الضمانات الأساسية في تحقيق العدالة، ووجود المؤهلين الأكفاء للقيام بالتحكيم.

* تخصيص ميزانيات تدعم التحكيم الأسري بداية من نشر ثقافته حتى إنشاء المراكز الخاصة به، وتدريب المؤهلين فيها.

* يتميز التحكيم بشكل عام بخصائص وميزات يجعلها محل عناية من قبل الباحثين، ومساعداً لعمل القضاء، فضلاً عن المزايا الخاصة التي يحققها في قضايا الأسرة، فهو يعد أسلوباً توفيقياً ودياً لحل النزاعات يتعد فيه عن العداء والخصومات.

* التحكيم يأخذ أشكالاً متعددة وأدواراً مختلفة، فقد يقوم مقام القضاء في صور تخفف العبء عن كاهله ويساعد الجهاز القضائي لا ينافسه ويشكل معه منظومة متكاملة لتحقيق العدالة، وفي صور قد يغلب عليه دور المصالحة وتقريب وجهات النظر، وفي أحوال قد يمثل دور الخبير الاستشاري المعاون لعمل القضاء.

* التطبيق العملي للتحكيم في الأحوال الشخصية ظل محصوراً جداً لسنوات قد لا تخرج في الغالب عن صورة بعينها، في حين أن المتأمل في قضايا ومسائل الأحوال الشخصية يجد لها من التطبيقات المتنوعة ما يمكن أن يجري فيها التحكيم مما يوسع العمل به وتنزله على الواقع.

* قد يريد الفقهاء بمنع التحكيم في مجالات الفقه أصول المنازعات، دون إجراءاتها ووسائلها، كالوقف مثلاً، وهناك آليات ووسائل متعددة

الوقف ودوره في التنمية
في الحضارة الإسلامية
وتأثيره على العالم الغربي
الحلقة (٢)

د. ناصر محمد لوري

دورة مياه
W.C. MEN

باب الطرقة
باب

الوقف والتنمية:

ارتبط اسم الوقف بالتنمية من بداية الحضارة الإسلامية، وقامت المؤسسة الوقفية بمهام وزارات الخدمات، واستجابة لاحتياجات المجتمع المتنوعة والمتجددة بشكل تلقائي، مما جعل الحكومات تتفرغ لمهمة الأمن الداخلي والدفاع الخارجي.

فقد تنوعت الأوقاف إلى وقف الخدمات العامة كالطرق والجسور، والوقف الاستثماري مثل المزارع والمباني، والوقف الاقتصادي كالمصانع وإنشاء الأسواق، والوقف الاجتماعي كراعية كبار السن واليتامى، والوقف العلمي مثل المدارس والجامعات والمكتبات، والوقف الصحي مثل المستشفيات والكليات الطبية وتفرغ الأطباء، والوقف العسكري لنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام.

التنمية في المفهوم الإسلامي:

تميزت التنمية المستدامة في الإسلام بالمفهوم الإيماني والإدارة الحضارية، وتهدف إلى الاستغلال الأمثل للموارد من منظور إسلامي، والذي يؤكد على أن الإنسان مستخلف في الأرض، لقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَآثِرُ وَمَا خَصَّ بِهَا أُولَئِكَ هُمْ لَكُمْ عَرَضٌ﴾. ولأن الله ما لكم من دونه عزة.

هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾ يلتزم في تنميتها بأحكام القرآن والسنة، استجابة لحاجات الحاضر دون إهدار حق الأجيال اللاحقة، شاملة الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والبيئية بالتوازن مع حاجاته الروحية والدينية.

ومن أهم خصائص ومميزات التنمية الإسلامية، أنها شاملة لمناحي الحياة، وتنمية متوازنة لا يطفئ جانب على جانب فيها، وتعالج المشاكل بواقعية بعيداً عن التنظير والسطحية، وبعدالة تامة حيث ينال كل صاحب حق حقه بدون ظلم، وبمسؤولية تامة ليس فيها إجحاف على أي طرف.

دور الوقف في التنمية الدينية والعلمية:

أولاً: مساهمة المساجد والجوامع في التنمية الدينية والعلمية:

يعتبر المسجد هو مصدر الإشعاع العلمي للأمة، ومنطلق الحضارة، ومدرسة فهم القرآن الكريم ومحاربة الجهل وتعلم القراءة والكتابة، وإعداد الدعاة وتجهيز الخطباء، ومقر تخريج المفكرين والعلماء والعباقرة الذين قادوا مسيرة التطور الحضاري في كل العالم.



الوجبات والملابس لطلبة العلم، إلى جانب توفير التمويل لدفع الرواتب للنظار والمؤذنين، والخدام والكناس والمدرسين، وكفالة ورعاية كبار الدعاة والمرابطين وطلبة العلم بأنواعهم.

ثانياً: مساهمة المدارس في التنمية الدينية والعلمية:

تعتبر المدرسة «الصادرية» التي أسست عام (٣٩١هـ) في دمشق أول مدرسة وقفية، إلا أن سلسلة المدارس الوقفية النظامية التي أسسها نظام الملك سنة (٤٥٥هـ)، تعتبر من أشهر الجامعات العالمية وذات تأثير واضح في التنمية العلمية، وعُرفت هذه المدارس باسمه فخصص لها الأوقاف الكبيرة ونشر المدارس في كل المدن بما فيها النائية، ومن أهم المدارس التي أقامها المدرسة «النظامية ببغداد» عام (٤٥٩هـ)، والتي

وكان المسجد مركزاً للتقاضي وحل المنازعات وإصدار الأحكام وتنفيذ العقوبات، وكان مقرّاً دائماً للقيادة العليا ولتخطيط الحملات الدعوية والعسكرية، ومركزاً للعمليات في عصر النبوة والخلافة الراشدة، إلى جانب كونه مكاناً يلتقي فيه المسلمون للأمور الاجتماعية والثقافية والسياسية.

لذا فقد تنافس المسلمون في إنشاء وتنمية الأوقاف الخيرية، لدعم هذه المساجد وصيانتها لتقوم بهذه الرسالة العظيمة، ويبدو ذلك جلياً في التفاصيل التي اشتملت عليها بعض الحجج الوقفية على المساجد، حيث اشتملت على الجانب الإنشائي مثل الصيانة والتجديدات وإعادة البناء، وتوفير الماء العذب للشرب والقناديل للإضاءة وفرش للصلاة، وتقديم

اهتم الخليفة العباسي شخصياً بتعيين الأساتذة فيها ومنهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين.

ثم إن هذه المدارس تطورت كثيراً في عهد الزنكيين، حيث اهتم الأمراء الزنكيون بالكتاتيب والمدارس وتعليم الأطفال وبالأخص اليتامى، حيث أشاد الرحالة ابن جبير في رحلته في القرن السابع الهجري باهتمام القائد الباسل نور الدين زنكي رحمه الله، بتعليم الأطفال وخاصة يتامى المسلمين وأوقف لهم الأوقاف لكفالتهم، كما أسس المدرسة النورية بدمشق والتي وصفها ابن جبير في رحلته قائلاً: «من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء في شاذروان وسط نهر عظيم»، وهي مدرسة ضخمة بها قاعات للمحاضرات وغرف مدرسين وخدم، وقد تنافس الأثرياء فيما بعد على الوقف لهذه المدرسة، وقد كتبت هذه الوقفيات على أحد أبواب المدرسة، وقد واصل الأيوبيون الاهتمام بالتنمية التعليمية حيث أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي، المدرسة الصلاحية داخل أسوار البلدة القديمة من مدينة القدس (٥٨٨هـ)، لتدريس العلوم الشرعية والمواد اللغوية والتاريخية والحساب والجبر والهندسة، والمثلثات والاقتصاد والفلك وتضم مكتبة ضخمة، وقد أراد القائد صلاح الدين أن تكون هذه المدرسة من أعظم المدارس لنشر

الثقافة الإسلامية، فأوقف عليها الوقفيات الواسعة لتشغيلها وللإنفاق على رواتب المدرسين، ومكافآت منتظمة للطلبة والكتب وتوفير الوجبات، وتشترط الوقفية لعظمها أن تجدد كل مائة سنة، فقد وثقت خمس عشرة مرة بتواقيع القضاة وأختامهم خلال مائتي سنة بدءاً من تاريخ تحريرها ١١٨٩م، حتى توثيقها في المحكمة الشرعية بالقدس ١٦١٣م.

كما وجدت مدارس كثيرة ذات وقفيات كبيرة تدل على الاهتمام الكبير، الذي توليه الحضارة الإسلامية للتنمية التعليمية في مختلف التخصصات.

كما أنه قد كان للوقف دور كبير في رعاية العلماء وتفرغهم لتلقي العلم، حيث كان بعض كبار العلماء والفقهاء يعتمدون في معاشهم على رواتب ومخصصات الأوقاف، مثل: تقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير وغيرهما، الذين اعتمدوا في نفقاتهم الشهرية على الأوقاف المخصصة من دار الحديث في دمشق، واعتمد الغزالي وإمام الحرمين الجويني والخطيب التبريزي والفيروزآبادي في نفقاتهم على أوقاف المدرسة النظامية ببغداد التي أقامها نظام الملك.

ومما يؤسف له ما وصلت إليه حال التعليم في الأمة الإسلامية حيث تصل الأمية ما بين ٤٥٪ إلى ٦٥٪، أي أن شبح الأمية يصل إلى أكثر من

رابعاً: مساهمة الأوقاف على الحرمين الشريفين في التنمية الدينية والعلمية:

إن مكة المكرمة هي العاصمة الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان، لذا فقد اهتم المسلمون أفراداً وحكاماً بتنمية الأوقاف التي لها علاقة بالحرمين الشريفين وفريضة الحج، فأقاموا المساكن والدور والفنادق والخانات على طريق السفر، ووفروا فيها جميع وسائل السكن والراحة والأكل وغرفاً للمطالعة وحفظ الأمانات وغيرها بشكل مجاني، كما أشاد ابن بطوطة في رحلته المعروفة بأوقاف في الشام مخصصة للعاجزين عن الحج حيث يعطى من أراد الحج كفايته لأداء فريضة الحج، كما أقام المسلمون أوقافاً مختلفة مخصصة لخدمة المجاورين للحرمين الشريفين من الحجاج والمعتمرين، كما قاموا بتوفير البنى التحتية وخاصة المائية مثل حفر الآبار التي لا غنى للمسافر عنها، ومن أشهرها البرك والآبار التي حفرتها زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور (١٨٦هـ)، زوج هارون الرشيد وابنة عمه وذلك على طريق الحجاج من بغداد إلى مكة المكرمة، حيث أقامت مرافق مختلفة وأنفقت مليوناً وسبعمئة ألف دينار، لشق قناة مائية إلى مكة بمسافة اثني عشر ميلاً خدمة لحجاج بيت الله.

نصف تعداد سكان العالم الإسلامي^(١)، في حين أن قرطبة حاضرة بلاد الأندلس احتفلت بتعليم آخر أمي لها في القرن التاسع الهجري.

ثالثاً: مساهمة المكتبات في التنمية الدينية والعلمية:

يعتبر وقف المكتبات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي فاقت فيها كل الحضارات وانتشرت فيها انتشاراً مذهلاً، كما أنها اتخذت أسماء متعددة مثل: خزانة الكتب، وبيت الكتب، ودار الكتب، ودار العلم، وبيت الحكمة، وقد اهتم بها كل طبقات المجتمع نساءً ورجالاً ومماليك وعبيداً وجواري وفقراء ولقطاء وأيتاماً... إلخ، وقد مولت الأوقاف توفير الكتب ونسخها وأدنى ذلك إلى انتشار كل أنواع الكتب بما فيها المتخصصة للعلماء، وصاحب ذلك قيام صناعة الورق والأقلام وانتشارها وظهور مهنة الاستنساخ والتجليد والتغليف للمحافظة على الكتب، وهكذا أسس المسلمون مبدأ القراءة والاعتماد على النفس في التحصيل العلمي من المكتبات، بعد أن كان الاعتماد على ما يسمعه ويتلقاه من المدرسين، كما انتشرت المكتبات في أماكن مختلفة مثل الربط والزوايا والخانقاه والمدارس والمساجد وغيرها، الأمر الذي أدى إلى انتشار العلم والثقافة في مختلف القطاعات أفقياً وعمودياً.

(١) انظر: تقارير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الأميسكو) للأعوام ٢٠٠٥م إلى ٢٠١٤م.



الشريفيين رغم مقتله وعمره ٢٤ سنة فقط، حيث إن طول حجته المؤرخة سنة ٧٧٧هـ يبلغ ٤١ متراً وعرضها ٣٠ ستمتراً تقريباً، وتشتمل على أوقاف كثيرة جداً تتألف من عدة قرى أوقفها على الحرمين.

وقد تواصل اهتمام السلاطين العثمانيين بالأوقاف حيث أنشأوا في سنة ٩٥٥هـ / ١٥٨٧م وزارة خاصة بالحرمين الشريفين عُرفت باسم نظارة الحرمين، مهمتها إدارة الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين وفق شروط الواقفين بواسطة نظارة مخصصة لذلك، وقد ازدادت أهمية

وقد كان كما أوقف الكثير من السلاطين المماليك الأوقاف مثل الملك المنصور نور الدين علي والظاهر بيبرس البندقداري، والملك المنصور قلاوون، ومن أبداع الأوقاف ما أوقفه السلطان الظاهر برقوق (٨٠١هـ) على الحجاج كل عام، حيث أوقف على سحابة (وهي خيمة كبيرة مستطيلة الشكل كسنام الجمل)، توفر الظل وتسير مع الركب من الجيزة إلى مكة كل عام، ومعها الجمال وتحمل المشاة من الحجاج ويصرف لهم ما يحتاجون من الماء والزاد ذهاباً وإياباً، وأوقاف السلطان الأشرف شعبان ابن حسين (٧٥٤-٧٧٨هـ)، على الحرمين

على الحرمين الشريفين، وكل ما يتعلق بهما من نفقات.

خامساً: مساهمة الأوقاف على المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومدينة القدس في التنمية الدينية والعلمية:

نال المسجد الأقصى وقبة الصخرة نصيبهما من اهتمام المسلمين أيضاً، وذلك نظراً لمكانتهما الدينية لدى المسلمين، وانطلاقاً من قول الرسول ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»^(١).

فقد شملت الأوقاف النواحي الدينية والتعليمية والاجتماعية والخدمية بمدينة القدس، مثل وقفية خاصكي سلطان زوج سليمان القانوني (١٥٠٠-١٥٥٨م) التي أقامت مسجداً في البلدة القديمة من مدينة القدس، ووقفت عليه وقوفات متعددة من أراض وعقارات وقرى في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة، وتشمل الفقراء والمساكين حيث خصصت لهم نصيباً من المساعدات الاجتماعية والاقتصادية مما جعل التنمية الشاملة متوازنة، ولا زالت تكية خاصكي سلطان تقدم الوجبات إلى اليوم للمحتاجين في مدينة القدس.

هذه النظارة بعدما تزايدت أوقاف السلاطين وزوجاتهم، فأنشئت أربع إدارات تابعة لهذه النظارة، ومن أشهر هذه الأوقاف وقف مراد الثالث بن سليم الثاني (١٠٠٣هـ-١٥٩٥م) الذي أوقف أوقافاً كثيرة على إطعام مستمر لفقراء المدينة النبوية، كما رصد الخليفة محمود الثاني بن السلطان عبدالحميد الأول (١٢٥٥هـ-١٨٣٩م) أوقافاً كثيرة للحرمين الشريفين، ومن الواقفات أيضاً السيدة كولنوش كبيرة نساء السلطان محمد الرابع ووالدة السلطان مصطفى الرابع وأحمد الثالث، حيث كان لها أوقاف وأحباس عظيمة ذات ريع وفير في إستانبول وفي مصر.

وقد تنوعت الأوقاف داخل الحرمين فلا تكاد تجد دولة إلا وقد أسس لحجاجها وقف في الحرمين الشريفين، فهناك أوقاف للحجاج الهنود مثل رباط حجاج ولاية بهوبال الهندية، ومجموعة أوقاف حسين بيبي على حجاج حيدرآباد، ووقف مير واجد الهندي على طلبة العلم وكان به خمسون غرفة ولكل طالب غرفة خاصة، كما توجد أوقاف على الحجاج المغاربة والجزائر والبنجاب والمليبار وبورما وتركستان الشرقية والصين، كما كانت هناك وقفيات منتشرة حول العالم الإسلامي مخصصة للإنفاق

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، باب فضل الصلاة (حديث ١١٨٩)، مرجع سابق.

الصحية حيث كان الوقف الممول الرئيس لها، فساهمت في توفير الرعاية الصحية المجانية والمتخصصة مثل علاج المكفوفين ومرضى الجذام، بينما كان في أوروبا يتخلصون من المجذوم بالحرق.

وعلى المستوى المؤسسي أقيمت المستشفيات العامة والمتخصصة والتعليمية وعرفت التقسيم الإداري حسب تصنيف الأمراض، وبلغت الحضارة الوقفية الطبية من النمو والارتقاء بأن وصلت خدماتها إلى القرى والمناطق النائية، عن طريق إيفاد القوافل الطبية المتنقلة لتقديم العلاج المجاني للناس غير القادرين إلى الوصول إلى المدن، وعلاج حيواناتهم المريضة في نفس الوقت، في سمو حضاري يبهز العقول للمستوى الراقي الذي تمتعت به الحضارة الإسلامية.

كما توجد بالمسجد الأقصى مكتبات موقوفة وكان لها دور تنموي كبير في مجال التعليم، كمكتبة ابن قاضي الصلت التي أسست سنة (١٠٠٧هـ)، ومكتبة الشيخ خليلي التي أسست سنة (١١٣٦هـ)، والمكتبة الخالدية التي أسست سنة (١٣١٧هـ) التي لا تزال تقدم خدماتها للقراء والباحثين، كما كان للأوقاف الصحية دور تنموي في المجال الصحي في القدس، مثل بيمارستان صلاح الدين الذي أسس عام (٥٨٣هـ)، ومستشفى أمينة الخالدي في القدس التي أوقفت عام (١٣٦١هـ) (١٩٤٢م) عقاراتها وأملأها على المستشفى، ولم يكتب الله إقامة المستشفى بسبب العدوان الصهيوني على القدس والاعتداء على جزء كبير من هذه الأوقاف، إلا أن المحاولات لا تزال إلى الآن جارية لتنفيذ وصية الواقفة رحمها الله^(١).

دور الوقف في التنمية الصحية:

أولاً: مساهمة تنمية الوقف الصحي في الحضارة الإسلامية:

وقد يرجع تاريخ الاهتمام بالقطاع الطبي وتنميته إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، حيث بنى أول بيمارستان في دمشق عام ٨٨هـ (٧٠٧م)، وأجرى عليه الأرزاق وقدم العلاج بالمجان، وهو أمر عجزت عنه الحضارة الغربية حتى اليوم حيث يقدم العلاج بمقابل، كما قام بإحضار الأطباء وأكرمهم، واهتم اهتماماً خاصاً بمرضى الجذام، فأوقف لهم بلدًا

يعتبر القطاع الصحي أحد الأسس التي تقاس رقي المجتمعات وتطورها، حيث تحرص كثير من المؤسسات الطبية في الوقت الحاضر على توفير الأوقاف لدعم أنشطتها وتميزها الطبي، وقد عرفت الحضارة الإسلامية أهمية التنمية

كل جمعة، وصرف على المستشفى ستين ألف دينار، ووضع له تنظيمًا إداريًا دقيقًا لحفظ ملابس المريض وتغيرها بملابس المستشفى وتقديم العلاج للمريض حتى يبرأ، وإلى ذلك الحين يمنح الوجبات المجانية، وإذا برئ يعطى له ملابسه وماله، ومما يدل على دور القطاع الوقفي في تمويل التنمية الطبية في الحضارة الإسلامية استحداث وظيفة القائم على بیمارستانات، وهي وظيفة رسمية لمتابعة شؤون المرضى وضمان حقوقهم العلاجية، إلى جانب التواصل مع نظار الأوقاف لتوفير الميزانيات المالية لإدارة المستشفيات الوقفية، وفي حالة تأخر وتقاعس نظار الأوقاف في تسديد حصصهم، يرفع الأمر إلى الوزير المختص لردعهم، وقد أصبح القطاع الطبي قطاعًا مؤسسيًا بفضل التخطيط والتطوير، ففي مستشفى المنصوري الكبير بمصر (مارستان قلاوون) الذي أنشأه السلطان سيف الدين قلاوون (٦٧٣هـ)، فكان كما قال عنه القلشقندي في كتابه صبح الأعشى، «ليس له نظير في الدنيا» كأعظم مارستان وكلية طب في القرون الوسطى، فعين فيه ابن النفيس (٦٠٧-٦٨٧هـ) أعظم أطباء الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت ومكتشف الدورة الدموية رئيسًا له، والذي بدوره عين أمهر الأطباء من الرجال والنساء وخصص فيه أقسامًا متعددة، فخصص قسمًا للبرص وللأمراض

يغنيهم عن السؤال وعمل قسمًا بالبيمارستان للمجذومين، وأمر لكل مقعد خادماً ولكل ضرير خادماً، وتوالى الاهتمام بالقطاع الطبي فأنتج عباقرة في الطب مثل معجزة الطب عبر الأجيال أبي بكر الرازي (٣١١هـ)، الذي ابتكر خيوط الجراحة ومؤلف الموسوعة الطبية (الحاوي في علم التداوي)، والذي عينه عضد الدولة ابن بويه (كبير وزراء الدولة العباسية ببغداد عاصمة الخلافة)، كبير الأطباء في المستشفى العضدي والذي يعد أكبر مستشفى في العالم آنذاك (٣٧١هـ) وجامعة علمية طبية، حيث يعمل به خمسون طبيباً ويشتمل على مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومرافق مختلفة، وأصبح الرازي بفضل تمويل الأوقاف مرجعاً طبياً في بغداد والعالم، وقد أورد ابن جبير مفاخر الوقف الطبي التي تعكس رقي الحضارة الإسلامية، فقد شاهد في بغداد حيًا كاملاً يسمى سوق البيمارستان على هيئة مدينة طبية بها أوقاف كثيرة أوقفت على المرضى، يعالج فيه المرضى ويؤمه الصيادلة والأطباء يتفقدون المرضى كل اثنين وخميس بين أيديهم ممرضون، ومنها ما قام به أحمد بن طولون والي مصر^(١) الذي أنشأ أول بيمارستان في مصر عام (٢٥٩هـ-٨٧٢م)، وأوقف عليه دار الديوان وسوقاً كاملاً للرفيق وعمل له حمامين، وكان يتفقد المرضى بنفسه

(١) أحمد بن طولون (٢٢٠هـ-٢٧٠هـ)، مؤسس الدولة الطولونية بمصر، كان حازماً، ذكياً، شجع الزراعة والصناعة وشيد القناطر، وازدهرت الدولة في عهده.

الصحية في الحضارة الإسلامية إلى ظهور أفضل قطاع صحي في العالم تموله الأوقاف.

ثانيًا: مساهمة الوقف في تنمية المكتبات العلمية الطبية وتفريغ الأطباء للتأليف:

بدأت التنمية العلمية للمكتبات العلمية في مجال الطب أو ما يسمى بمكتبات البمارستانات مبكرًا في الحضارة العلمية بالتوازي مع التنمية الصحية الشاملة، ويرجع الفضل للوقف في تمويل تأليف الكتب في شتى المجالات الطبية، وقد وفر الوقف تمويلًا لتنمية الدراسات البحثية في المجالات الطبية، ومول تفريغ العلماء للتأليف في مجال الطب مثل الطبيب أبي بكر الرازي، مبتكر خيوط الجراحة وكبير الأطباء في المستشفى العضدي، والذي ألف كتابه الذي يعد مرجعًا في علوم الطب (الحاوي في علم التداوي)، والذي ذكر فيه ملاحظاته السريرية لمعالجة الأمراض وأطاح بكثير من نظريات جيونس أعظم أطباء اليونان، كما ألف كتاب الأسرار في الكيمياء الذي ظل مرجعًا للغرب والشرق، وكتاب صنع مراهم الزئبق وكتاب الطب الروحاني الذي ركز فيه على أخلاقيات مهنة الطب، وكذلك كان للوقف الفضل في قيام ابن النفيس رئيس مستشفى قلاوون، بتأليف كتابه «الشامل في الصناعة الطبية» الذي يعتبر أعظم موسوعة يكتبها شخص

المعدية وللأمراض الباطنية والأمراض العقلية، ومخزنًا كبيرًا للأدوية ومكتبًا لرئيس الأطباء وقاعة للدروس الطبية، يجتمع فيها طلبة الطب من كل مكان ويستفيدون من الأطباء والأساتذة، وبلغت التنمية الصحية إلى رعاية المريض في فترة النقاهة، حيث ينفق عليه خمس قطع ذهبية إذا كان فقيرًا عند مغادرته المستشفى ريثما يستعيد كامل عافيته، وحتى لا يكون عالة على غيره، وبلغ التخطيط التنظيمي والصحي لخدمات المستشفى حيث كان من ضمن وقفه إطعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ومن رواد الأطباء المسلمين: رائد الجراحة أبو القاسم الزهراوي (٤٢٧هـ) الذي يعتبر أكبر جراح في العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر، فهو أول من عمل عملية جراحية للقصبة الهوائية والمجاري البولية والولادة القيصرية، وأول من أجرى عملية تجبير الكسور وابتكر آلات إخراج الجنين الميت، وفي «قرطبة حاضرة الخلافة الأموية كان بها وحدها أكثر من خمسين مستشفى موقوفًا بينما لم يكن في أوروبا أي مستشفى يوازي أيًا منها»، وبلغت التنمية الصحية الوقفية أوجها، حيث كان بعض الناس يمارضون لدخول المستشفى والمكث فيها لما كانوا يجدونه من رعاية عالية، وأن الأطباء كانوا أحيانًا يغضون الطرف عنهم مدة ثلاثة أيام ثم يصرفونهم!، لقد أدت هذه العناية والتنمية

بالمريض حتى يمن الله عليهم بالشفاء، فقد نما عدد الأطباء في بغداد وحدها عام (٣١٩هـ) إلى ما يقارب ألف طبيب، وبلغ اهتمام الأمة بالتنمية الصحية في ظل المظلة الوقفية، إلى اكتشاف أهمية العلاج الروحي والنفسي للمريض ودورها في علاج كثير من الأمراض، فشيدت المساجد ملاصقة للمشافي ويؤذن فيها للفجر قبل دخول وقت الفجر بساعتين، وينشدون فيها الأناشيد بأصوات ندية تخفيفاً لآلام المرضى، ووجد وقف قديم في مدينة طرابلس بلبان يقوم ريعه على توظيف شخصين من الظرفاء، عملهما الأساسي المرور يومياً بالمستشفيات والتحدث بطريقة غير مباشرة، أمام المريض عن تحسن حالته واسترداد صحته وبريق عينيه^(١).

كما نالت التنمية في الطب الوقائي حظها من الاهتمام أيضاً فعرفت الحضارة الإسلامية أهمية النظافة الوقائية وأنها عنوان لأي حضارة إنسانية، كما طالت التنمية علم الصيدلة وهو علم إسلامي بامتياز، حيث تتم صناعة الأدوية وامتحان الصيدلاني في أيام الخليفة المعتصم بالله الذي ولد عام ١٧٩هـ وتوفي عام ٢٢٧هـ، وفي تطور لاحق كان للصيدلاني شهادة عمل بموافقة لجنة متخصصة تمنح الشهادات الصيدلانية، وفتش وتراقب الأدوية في الصيدليات قبل أن تنتقل الفكرة إلى أوروبا.

واحد في التاريخ وتبلغ ٨٠ مجلداً، وفي مجال الجراحة قام أبو القاسم الزهراوي أكبر جراح في العصور الوسطى بلا منازع، في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، بتسجيل كل ما يتعلق بكيفية إجراء عمليات الجراحة للقصبة الهوائية والمجاري البولية والولادة القيصرية وعمليات تجبير الكسور، والآلات إخراج الجنين الميت التي ابتكرها شخصياً، وكانت مرجعاً مهماً للأطباء طيلة القرون الوسطى.

ويضاف إليهم موسوعة «الكليات» في الطب لابن رشد الذي أطلق عليه الأوربيون اسم Averroes والذي تُرجمت موسوعته إلى العبرية واللاتينية، وأصبحت أساساً لتدريس الطب في أوروبا وسميت موسوعة Coliget، وكتاب تذكرة الكمالين لعلي بن عيسى طبيب العيون الذي وصف مائة وثلاثين مرضاً من أمراض العيون.

ثالثاً: مساهمة الوقف في توسع الخدمات الطبية التخصصية:

يشير نمو الحضارة الطبية الإسلامية إلى الارتباط الوثيق بين تطور الطب والتوسع في الأوقاف، حيث كان نمو وانتشار الأوقاف وراء تمويل المستشفيات ورعاية الأطباء، والعناية

(١) السباعي، من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص: ١٤٥.

كما مولت الأوقاف إنشاء المستشفيات التعليمية، مثل المدرسة المستنصرية التي أوقفها الخليفة المستنصر بالله (٦٣١هـ)، وهي شاملة للعلوم الشرعية والطبية وكان بها قاعات للمحاضرات وتخصصات طبية دقيقة، وقد انبهر الإمام الذهبي رحمه الله لما شاهد وقفية المدرسة والتي تبلغ خمس كراريس وعدد أوقافها لا يحصر من كثرتها، والتي يقدر ثمنها بأكثر من سبعين ألف مثقال ذهب، قال مقولة شهيرة (فكذا فليكن البرُّ وإلا فلا) إعجاباً بهذا العمل العظيم، فكانت بحق أعظم جامعة في العالم، في حين أن الغرب بدأ في إنشائها في القرن الثامن عشر.

رابعاً: مساهمة الأوقاف في التنمية البيئية والصحة الحيوانية والنباتية:

اشتملت التنمية الصحية إلى جانب الإنسان على البيئة، فرصدت أوقافاً كثيرة لصيانة الترع والأنهار كما اهتم المسلمون بعلم النبات، حيث ترجمت كتب تتعلق بالنباتات منها كتاب التاريخ الطبيعي للعالم الروماني بلييني الأكبر ويتكون من ٢٧ مجلداً، وواصل «الواقفون» المسلمون الاهتمام بالحيوان إلى عهد قريب جداً، حيث وجدت أوقاف قديمة كثيرة على الحيوانات، ومنها وقف مزرعة في حوطة سدير

بالمملكة العربية السعودية على حمام الحرم المكي، ومسجلة رسمياً بوثيقة مؤرخة في عام (١٣٢٧هـ)^(١)، كما أوقفوا أوقافاً على رعاية الحيوانات الهرمة والمريضة لعلاجها وإيوائها ومنها وقف المرج الأخضر في دمشق^(٢)، كما ألفوا فيها كتباً كثيرة منها موسوعة كاملة عن أمراض الخيل، وكانت لهم أوقاف على حماية الطيور في فصل الشتاء وأوقاف لتقديم الطعام للطيور في دمشق والقدس وفاس، إلا أنه لا يمكن إنكار دور المؤسسات الوقفية في الدول الغربية في مجال خدمات الحيوانات في العصر الحديث، ومنها مؤسسة Horse Trust أسستها «أنا ليندرو» ببريطانيا عام (١٨٨٦م)، وتخصصت هذه المؤسسة في علاج الخيول المريضة والضعيفة والمهملة ورعايتها، ولا زالت المؤسسة تعمل ولديها خدمات كثيرة للخيول كالعلاج بأنواعه (العلاج العضوي والتأهيل النفسي)، والفحص المستمر وخدمة الرعاية الفندقية والبيتية وغيرها.

ورغم التراجع والتخلف الطبي الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية، إلا أن بعض المحاولات كانت ناجحة وتبشر بخير، ومن المشروعات الطبية الوقفية الشامخة والمشرفة، مستشفى

(١) المهيدب، خالد، جريدة الرياض عدد ١٦٩٦٦، بتاريخ ٦-١٢-٢٠١٤م.

(٢) الجريوي، عبدالرحمن، الوقف والحضارة الإسلامية، مجلة البيان، عدد ٣١٢، ص: ١٨.



جدة بالمملكة العربية السعودية وله فروع بمكة المكرمة والمدينة المنورة، فهو يقدم خدمات طبية واجتماعية وثقافية، ومن أهم أنشطته الطبية إنشاء مركز غسيل الكلى والطبيب السيار لمعالجة المرضى بالقرى وإنشاء المركز الطبي للكشف المبكر عن الأورام عام ٢٠٠٩م، والذي يعد المركز الثاني على مستوى المملكة العربية السعودية بتجهيزاته^(٢)، وتحتاج هذه المبادرات المباركة إلى التشجيع وحث الآخرين لوقف أوقافهم لهذا القطاع الهام.

السرطان للأطفال بمصر الذي أسس على غرار مستشفى الأبحاث الأمريكي بأمريكا، والذي فاز بجائزة عيسى لخدمة الإنسانية في دورتها الثالثة لعام ٢٠١٧م.

حيث يصاب ١٦٠ ألف طفل سنوياً بأمراض السرطان ويموت منهم ٩٠ ألف طفل، ٨٠٪ في الدول النامية، في حين نسبة الشفاء للأطفال في الغرب ما بين ٨٠٪ إلى ٨٥٪ حسب تقرير الصحة العالمية^(١)، ومشروع البركة بمحافظة

(١) الموقع الإلكتروني للمستشفى: <http://www.57357.com/category/%D8%B9%D9> lang=ar?/57357-86%http

(٢) انظر موقع الوقف http://waqf-albarakah.com/?page_id=709

دور الوقف في التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

أولاً: مساهمة الوقف في تحسين المجتمع الإسلامي من الداخل:

حرص الإسلام على تنمية وتحسين المجتمع المسلم داخلياً من الأمراض الخفية، التي تنخر في المجتمع بشكل تدريجي دون أن يشعر بها وتؤدي إلى هلاكه، مثل البغض والحسد والجشع والأنانية، فقد شدد الرسول ﷺ (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما من يبدأ بالسلام) (١).

ثانياً: مساهمة الوقف في معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية:

كما قام الوقف بدور كبير في معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، كونها ذات عطاء مستمر، طمأنت بذلك الفقراء والمساكين والمشردين والمسنين واليتامى والمعسرين، وحرص الوقف على المساواة الاجتماعية في طلب العلم فكانت أغلب المدارس الوقفية، توفر التعليم والسكن والأكل وأدوات التعليم للمحتاج، واعتنى الوقف بكبار السن واليتامى

والمرضى، كما تفنن الواقفون في البحث عن الثغرات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع لسدها، فأقاموا الأوقاف لتزويج الفقيرات ولإعانة المكفوفين، وتبديل الأواني المكسورة، وأوقفوا للنساء اللاتي طُلغن أو هُجرن حتى تستقر حالاتهن، والأغرب أن خدمة الأوقاف امتدت لتشمل النصارى واليهود الضعفاء اقتصادياً، كونهم يشكلون جزءاً من النسيج الاجتماعي للمجتمع ويحث ديننا على إظهار السماحة لهم.

فكما أن الوقف ساهم في العدالة الاجتماعية والاقتصادية على مر العصور، فهو لا يزال قادراً على تخفيف الالتزامات المالية الحالية، خاصة إذا علمنا أن عدد الفقراء سنوياً ما دون مستوى الفقر يفوق ١٥٠ مليون نسمة سنوياً، وذلك حسب تقرير منظمة الصحة العالمية وغالبيتهم من الدول الإسلامية.

مساهمة الوقف في استقلال المؤسسات الدينية والقضائية:

كان للوقف دور كبير في نمو حرية واستقلالية الفرد مع المتغيرات السياسية وإبداء الرأي فيها، حيث حافظ الوقف على نمو واستقلالية العلماء والمعاهد، والمدارس، والجامعات، والمؤسسات العلمية، طوال التاريخ بدفع

(١) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، كتاب الصلة، باب ما جاء في كراهية الهجر للمسلم.

مساهمة الوقف في مقاومة التنصير في الدول الإسلامية:

راهن الاستعمار على تنصير كثير من البلدان الإسلامية، كما نصّر دولاً بأكملها تدين بديانات أخرى، إلا أن المدارس والمعاهد والزوايا والمكتبات الوقفية الإسلامية، شكلت صداً منيعاً أمام المحاولات التنصيرية في هذه الدول، أهمها في إندونيسيا والجزائر والتي بدون هذه المؤسسات لم يكن في قدرتها أن تصبح دولة إسلامية اليوم، كما ساهم الوقف بشكل أساسي في توفير الموارد للمؤسسات الوقفية الموقوفة عليه، وحرمان المستعمر وأجهزته منها بناء على نصوص الوقفيات، كما أوجد مفهوم المقاطعة الشعبية والرافضة للمستعمر وأجهزته كانت الأوقاف مرتكزها، وعلق المفكر والأديب والرحالة شكيب أرسلان بمقولة جميلة «فكان كره النصاري للأوقاف الإسلامية وخوفهم منها شيئاً كبيراً لأنهم يعتقدون أنه لو أحسن المسلمون إدارة أوقافهم سيكون لها دور عظيم، وأن المستعمرين استولوا على كثير من الأوقاف ووهبوا للكنائس وإلى الرهبان»، لكنه أكد في نفس الوقت أن أصل البلية هي في المسلمين أنفسهم، الذين تلاعبوا بالأوقاف وأهملوها فمهدوا بذلك للمستعمر الاستيلاء عليها واستخدامها ضد المسلمين.

رواتبهم أو جزء منها، وكانوا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر بدون خوف من السلطة، بعكس المؤسسات التي تمولها الحكومات والمؤسسات السياسية ذات المصالح.

وقد امتدت التنمية الوقفية إلى المؤسسة القضائية التي تشرف على الأوقاف والتي بدورها تمول رواتب القضاة بعيداً عن ضغوط السلطة أو الضغوط الاقتصادية.

مساهمة الوقف في مقاومة الاستعمار في المجتمع المسلم:

يعتبر التمويل المجتمعي للوقف دليلاً على رغبة المجتمع لاستقلالية الوقف بعيدة عن نفوذ الدولة المباشر، وهذا الذي جعل الوقف يلعب دوراً محورياً في مقاومة الاستعمار بكل الوسائل، فعلى الصعيد الثقافي عمل الاستعمار على إضعاف اللغة العربية واستبدالها بلغته، فواجهتها المؤسسات الوقفية المستقلة من مراكز إسلامية ومساجد ومدارس وتكايا ورُبط وغيرها، بالتركيز على تأصيل الثقافة الإسلامية واللغة العربية، إلى درجة أن بقاء اللغة العربية وشعلة الثقافة الإسلامية في بعض الدول كالجيزة مثلاً يرجع فضله إلى المؤسسات الوقفية^(١).

(١) جمعة، علي محمد، الوقف وأثره التنموي، ندوة نحو دور تنموي للوقف (١-٣/٥/١٩٩٣)، ص: ١٢٥.

مساهمة الوقف في تثبيت هوية المسلمين في القدس ضد التهويد:

لقد كان للوقف دور قاطع في ترسيخ هوية المسلمين ككيان قائم في فلسطين، وذلك عبر الأوقاف الإسلامية القائمة كواقع يثبت إسلامية فلسطين والقدس، ودحض الحقوق اليهودية المزعم، حيث قام المجلس الإسلامي وهو أعلى سلطة آنذاك بشراء الأراضي المهددة بخطر البيع لليهود، وتسجيلها وقفاً لمنع بيعها لليهود والحفاظ على الهوية المسلمة عبر الأوقاف، خاصة أن اليهود شرعوا في استغلال حاجة الناس وغفلتهم، في شراء الأراضي بأثمان باهظة جداً وتسجيلها بأسمائهم ليثبتوا للعالم وجودهم التاريخي بفلسطين.

مساهمة الوقف في دعم وتنمية القطاع العسكري:

لقد نال الجهاد في سبيل الله اهتماماً كبيراً لدى المسلمين لما له من الأجر ونشر كلمة التوحيد، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وبما أن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى الرجال والسلاح والمركوب والأكل واللباس، والإنفاق على أسيرة الغازي وغيرها، وكثير من الخدمات المرافقة من طبابة وسكن .. إلخ، وتعني موازنة كبيرة تعجز الدولة آنذاك عن تحملها لوحدها،

لذا هب المسلمون في تمويل الحملات الجهادية والفتوحات والدفاع عن الدين، فقد كان للأوقاف دور كبير للدفاع عن الثغور والحدود، وشراء الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد المختلفة، وقد أكثر السلاطين وعموم المسلمين إقامة الأوقاف على الجهاد، فقد أنشأ السلطان قايتباي من المماليك قاعة للسلاح، وأجرى عليها الأوقاف التي تصرف في تنظيف السلاح وإصلاحه وحفظه، وازدهر هذا النوع من الأوقاف في زمن الزنكيين والأيوبيين وأيام الحروب الصليبية، حيث أنشأوا أوقافاً تغطي كل جانب من جوانب الجهاد، فأوقفوا الأوقاف على تجهيز وإعداد الجيوش، فكانت هناك أوقاف خاصة بالمرابطين، يجدون فيها كل ما يحتاجونه إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب تشجيعاً وتيسيراً لمن أراد الجهاد في سبيل الله، وتأمين رباط الثغور وإنشاء القلاع والأبراج والتحصينات والأسوار، وقد كانت هذه الأوقاف منتشرة في كل مدينة عظيمة « كما أوقفت الأوقاف على المدن والقرى لحمايتها من العدوان الخارجي، ولم يغفل المسلمون عن إنشاء أوقاف خاصة لإطلاق سراح الأسرى، اعترافاً بدورهم الكبير في الجهاد في سبيل الله، وطمانة المجاهدين أنهم لن يتركوا في أيدي الأعداء إذا وقعوا في الأسر.

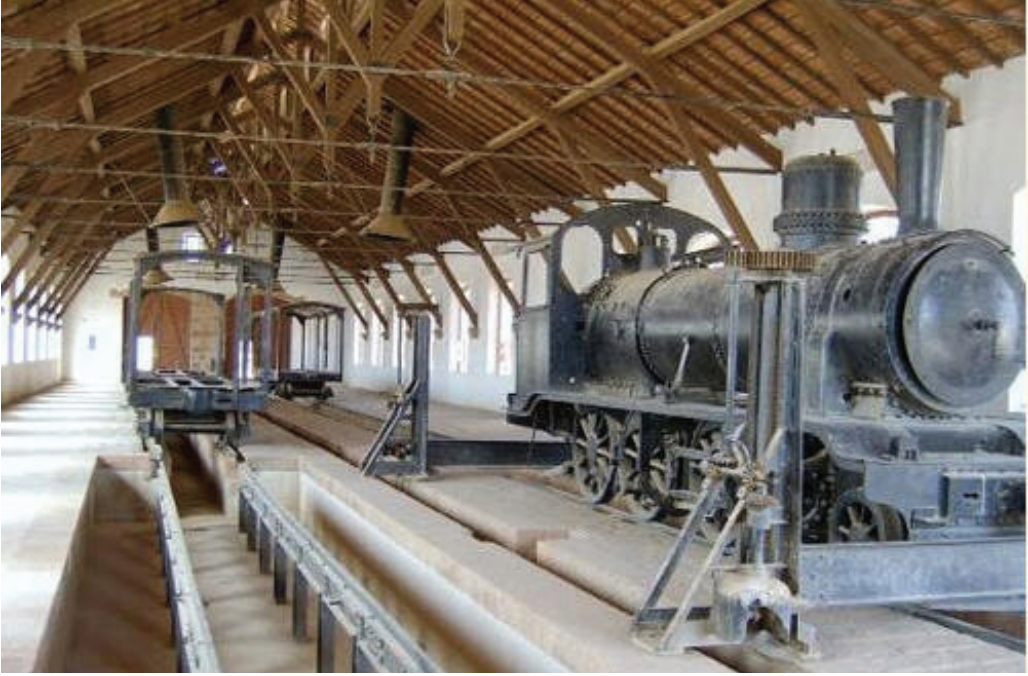
بنت جعفر المنصور رحمها الله، زوجة الخليفة هارون الرشيد والتي اهتمت ببناء دور السبيل كمأوى للفقراء والمساكين، اهتمت بحفر الآبار في مكة بمبلغ كبير جداً من أجل توفير الماء، والذي يعد من أهم عناصر للحياة وأساس الاستقرار والازدهار، وقد شجعت هذه الروح الإيمانية والتنافسية الموسرين على الإبداع في وقياتهم في تمويل البنى التحتية، ومن الأمثلة اهتمام الأمويين خاصة في الأندلس في تأسيس البنى التحتية الوقفية من القناطر والجسور، ومنها قنطرة عبدالرحمن ابن معاوية (١٨٠هـ)، وقنطرة المنصور بن أبي عامر في قرطبة وهي قائمة حتى الآن.

دور الوقف في تأسيس وتنمية البنية التحتية:

أولاً: مساهمة الوقف في تأسيس البنى التحتية العامة:

كان للوقف دور تنموي محوري في تأسيس وإقامة البنية التحتية في المجتمعات الإسلامية، وذلك عكس الفكرة السائدة أن الوقف يقوم بالأعمال البسيطة فقط، فقد انبهر الرحالة ابن بطوطة في رحلته من الرقي الذي وصلت إليه دمشق مشيراً أن الأوقاف في دمشق لا تحصر لكثرتها، وقد نافس النساء وبجدارة في إنشاء البنى التحتية الوقفية ومن أشهرهن: السيدة زبيدة





كانت تمول تشغيل الخط الممتد من دمشق للمدينة المنورة، كما ساهم الوقف في تأسيس البنى التحتية العلمية، عن طريق إنشاء المدارس والمعاهد والمراكز العلمية والمكتبات إيماناً بدورها في تطور المجتمع، كما حرص على إنشاء المستشفيات وتوفير الخدمات الطبية المختلفة حرصاً على إقامة مجتمع صحي خالٍ من الأمراض.

ثانياً: مساهمة الوقف في تأسيس الحواضر والمدن وتنميتها:

كان للوقف دور أساسي في تأسيس وتنمية الحواضر والمدن الجديدة، وذلك من خلال

ومن أجمل الأوقاف ذات البعد الإنساني جسراً يربط بين القسطنطينية وقرية (غلطا)، والذي أقامه الخليفة عبدالمجيد خان الأول بن محمود الثاني (١٢٧٧هـ / ١٨٦٢م)، وأوقف ريعه على فقراء المرضى بدار الشفاء، مقابل ما يدفعه مستخدموا الجسر من رسوم نظير استخدامه.

ومن أعظم الأوقاف التي تفتخر بها الحضارة الإسلامية في مجال البنية التحتية، وقف سكة الحديد الذي اشترى له السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، أراض كثيرة جداً ببيروت وسوريا أوقفها على هذا الخط، والتي

الوقفية مثل: جامع ومدرسة وسوق وفرن وحمام ومستشفى... إلخ، والتي تحولت بسرعة مذهلة إلى أكثر من خمسين مدينة جديدة وعواصم رئيسية، مثل بلغراد سراييفو - موستار - جالونا - تيرنا - الباسان... إلخ، واحتفظت بعض هذه المدن بأصلها الوقفي إلى الآن مثل Skander Waqf وقف إسكندر و Gornji Waqf أي الوقف الأعلى و Donji Waqf أي الوقف الأدنى، كما أنشأت بنفس الطريقة الوقفية مدنًا في بلاد الشام خلال العصر العثماني، وأهمها القنيطرة والقטיפية وإدلب والشغور وسعسع وخان يونس والصالحية...، فكما أن للوقف الفضل في تأسيس مدن جديدة، فقد كان للوقف دور في ازدهار مدن قائمة، فمدينة عكا تألفت في العصر العثماني كمدينة ذات أهمية كبيرة بشكل متدرج، فقد تأسس فيها أولاً دار للقضاء ثم بنى فيها واليها سنان باشا جامعاً لم يعهد مثله بين العباد، ومدرسة لتعليم القرآن بالقرب من الجامع، وخاناً كبيراً اشتمل على ثمانين مخزناً من المخازن العلوية والسفلية، وحماماً وفرناً، فقد مثلت هذه المنشآت الوقفية الانطلاقة الاقتصادية لعكا لتصبح مركزاً تجارياً.

ومن المحاولات الناجحة في العصر الحديث لتأسيس نواة مدن نموذجية تقدم خدمات مميزة في دول فقيرة، مثل مجمع الرحمة الذي أسسته

مشاركته في إقامة نواة المجتمعات للمدن الإسلامية؛ مثل جامع وعمارة وطاحونة وحمامات ودكاكين ومراكز تجارية وبيوت للفقراء ورباط... إلخ، وذلك لتكون نقطة استقطاب وجذب ثم تنمو لتكون قرية مستقرة قابلة للنمو، ثم بلدة ثم مدينة، وهكذا يكون الوقف الممول الرئيس لهذا التوسع والتطور العمراني، عن طريق توفير تأسيس البنى التحتية من شوارع، وقناطر، وآبار وغيرها في كل ضاحية من الضواحي، فعلى سبيل المثال لقد كانت الصالحية سفحاً مقفراً يشرف من بعيد على دمشق حتى منتصف القرن الثاني عشر ميلادي، وأول من بنى فيها داراً كبيرة جداً هو الشيخ ابن قدامة وتبعه بعض الناس، ثم تلاها ببناء بعض المنشآت الوقفية الدينية فهاجر إليها طلاب العلم، وممن تبعه السلطان نور الدين زنكي، وما إن زادت المنشآت الوقفية الدينية والعلمية والخدمية من جوامع ومدارس وأسواق، حتى اكتظت المدينة بالسكن والعمران والفضل يعود بعد الله تعالى إلى البنية التحتية التي مولها الوقف، كما أنه كانت لمنطقة البلقان أهمية استراتيجية للخلافة العثمانية، لأنها مصدر رئيسي للمعادن الثمينة ومكان خصب للزراعة، لذا فقد قررت الخلافة العثمانية إنشاء مدن جديدة يتركز فيها المسلمون الموالون لهم، فبادر السلاطين بإنشاء التجمعات والمنشآت



ثالثاً: مساهمة الوقف في إنشاء وتنمية المؤسسات على طرق السفر:

قام الوقف برسالة كبيرة في تنمية الاستقرار الأمني على الطرق السفر، حيث دأبت طرق السفر على التعرض للقرصنة والسلب، وخاصة للحجاج والتجار الوافدين من المناطق البعيدة باتجاه مكة المكرمة وغيرها، فكان للوقف حضور كبير في المساهمة في توفير الأمن على هذه الطرقات، عن طريق تشجيع تشييد البنى التحتية للمنشآت الوقفية الأساسية، مثل الخانات والفنادق والتي انتشرت على الطرق التجارية بين المدن الإسلامية، وكان أكثر روادها من طلبة العلم والحجاج والفقراء وأبناء السبيل وغيرهم،

جمعية الرحمة الكويتية عام ٢٠٠٧م في منطقة بلبلا بجبوتي، ويقدم خدمات ممتازة وجديرة بتعميمها في تنمية المناطق الريفية، حيث أقيم المجمع على مساحة ٣٠ ألف متر مربع بتكلفة ٨ ملايين دولار أمريكي، ويحتوي على مدارس نموذجية للمراحل المختلفة وورش تدريبية بمخرجات يحتاجها سوق العمل، وخدمات طبية مختلفة متطورة جداً برسوم رمزية، ودور لليتامى لتأهيلهم تعليمياً ومهنياً، ومراكز تحفيظ للقرآن الكريم، ومخابز ومطاعم ومغسلة ومرافق أخرى، والمجمع يغطي نفقاته من الخدمات التي يقدمها للمجتمع حتى لا يكون تحت رحمة التبرعات.

وقد نمت هذه الخانات والفنادق تدريجياً بفضل البنى التحتية الوقفية التي أنشئت فيها، وتحولت إلى حواضر ومجتمعات مدنية، مثل مدينة إدلب وجسر الشغور والقטיפه وسعسع وخان يونس بعد أن كانت مناطق مقفرة، كما يتضح أيضاً أن هذه التجربة قابلة للتطبيق في العصر الحاضر، حيث يمكن بجهود قليلة لكنها مدروسة بعناية من حيث التخطيط والتنفيذ، إنشاء كثير من مشاريع البنى التحتية في الدول الفقيرة، حيث يوجد الملايين من المسلمين وبحاجة ماسة لمثل هذه المشاريع لينطلقوا منها إلى التنمية الشاملة.

ومن التخطيط العجيب أن الواقفين خططوا لهذه المرافق الوقفية أن تشمل على خدمات مجانية متنوعة، تجعل الزائر يجد الراحة فيها سواء في الصيف أو الشتاء، مثل الغرف ومكان للمطالعة والدراسة وتقديم الطعام والسكن المجاني، إلى جانب خدمات حفظ الأمانات والغسيل والتنظيف وتوفير الأمن والطبابة، وقد تم تزويد هذه الخانات والفنادق بطاقم إداري يتكون من الرجال والنساء، كما ورد ذلك في بعض الوقفيات.



مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين دراسة تحليلية ميدانية

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير
من الجامعة الإسلامية المدينة المنورة - كلية الدعوة وأصول الدين

إعداد الباحث: حمدان خالد حسين
إشراف: د. سليمان بن عبد الله الرومي

أولاً : نبذة تعريفية عن الموضوع :

الحمد لله الذي منَّ عليَّ ووفَّقني لاختيار هذا الموضوع الهام والكتابة فيه، وأسأله جل وعلا أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفعني به والمسلمين في كل مكان أما بعد:

لقد كانت البشرية تعيش في تخبط وتيه، وتوزع ولأهاتها بين طواغيت وأصنام، وكهان ومشعوذين، قد أسلمت يدها كالأعمى لهؤلاء يقودونها أينما أرادوا وكيفما شاؤوا؛ حتى بعث الله تعالى نبينا محمداً ﷺ للعالمين بهذا الكتاب هادياً ومبشراً ونذيراً للناس: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)، وما هي إلا سنوات وانطلق حَمَلَةُ هذا الكتاب يجوبون الديار، ويقطعون الفيا في حاملين رسالة التوحيد ومشعل الهداية للناس أجمع.

والإسهام في خدمة المكتبة الإسلامية ومراكز تحفيظ القرآن الكريم والعاملين فيها؛ وذلك من خلال بيان ضرورة الاهتمام بمراكز تحفيظ القرآن الكريم، وتوضيح جهودها في الدعوة إلى الله في مملكة البحرين لتكون معيناً ومثبتاً لأولئك الذين سلكوا هذا الطريق، خدمةً للقرآن الكريم فهو دستورنا ومصدر تشريعنا، وعلى الدعوة الإسلامية المعاصرة أن تبدأ مراحلها مع كتاب الله، فإنَّ أي دعوة تشرف بما تدعو إليه، وتزكو بما تحت الناس عليه، ولا ريب أن الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم، هي أسمى المقاصد، وأنبى الفوائد، لأنها تتعلق بكتاب الله تعالى، وكفى بذلك شرفاً ومقصدًا، لذلك جعلت عنوان رسالتي (مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين وجهودها في الدعوة إلى الله تعالى - دراسة تحليلية ميدانية)، ثم تطرقت وبينت الجانب الميداني من الدراسة حول المعوقات

لذا اهتمَّ المسلمون قديمًا وحديثًا بتعليم أبنائهم القرآن الكريم في سنٍّ مبكرة لأنهم يشعرون أنَّ عنوان فلاهم ودليل سيرهم هو خُطى الرعيل الأول في الإقبال على كتاب الله عز وجل، فكانت النتيجة أنَّ حَفِظَ بعضهم القرآن الكريم قبل سنِّ العاشرة كالشافعي، وابن حنبل، والنووي رحمهم الله وغيرهم من أئمة الإسلام، ونحن نرى في وقتنا الحاضر إقبالاً عظيمًا على كتاب الله من فئات المجتمع المختلفة، يتوافدون على حفظ القرآن وتلاوته وتدبره، فاكثرت مراكز تحفيظ القرآن الكريم في أرجاء البلاد الإسلامية بالطلبة المتحمسين لحفظ كتاب الله في صدورهم.

ولهذا فإنَّ أفضل ما يقوم المرء بخدمته هو كتاب الله عز وجل كما في هذه الدراسة، لذلك لابد من تتبع المعلومات من مظانها، والتنوع في مصادر المعلومات؛ لتعميق البحث وإثرائه،

أهداف الموضوع:

تهدف الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. بيان أهمية مراكز تحفيظ القرآن الكريم في المجتمع البحريني وضرورتها الشرعية والدعوية.
٢. إبراز الجوانب الدعوية في مراكز تحفيظ القرآن الكريم المتمثلة في تربية المتعلمين وحمايتهم من الأفكار الهدامة والمنحرفة.
٣. تصحيح بعض التصورات الخاطئة عن مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين.
٤. معرفة المعوقات التي تواجه مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين.

أهمية الموضوع:

وتتمثل أهمية الدراسة فيما يلي:

١. زيادة الإقبال على مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين من قبل أبناء المجتمع؛ وذلك لعلمهم بمدى حفظ هذه المراكز لأبنائهم من الانحراف وتبني الأفكار الهدامة.

الدعوية التي تواجه مراكز تحفيظ القرآن الكريم بمملكة البحرين.

ثانياً: الإطار المنهجي:

موضوع الدراسة وتساؤلاتها:

هناك عدة تساؤلات لموضوع الدراسة ولكن السؤال الرئيسي:

ما هي جهود مراكز التحفيظ بمملكة البحرين في الدعوة إلى الله تعالى؟

وتفرعت منه هذه الأسئلة:

١. ما الدعوة إلى الله؟ وما المقصود بمراكز التحفيظ؟
٢. ما أهمية مراكز تحفيظ القرآن الكريم في نشر الدعوة؟
٣. ما الأساليب الدعوية التي تستخدمها مراكز تحفيظ القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى؟
٤. ما الوسائل الدعوية التي تستخدمها مراكز تحفيظ القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى؟
٥. ما المعوقات التي تواجه مراكز تحفيظ القرآن الكريم في تأدية مهمتها الدعوية من وجهة نظر مشرفي مراكز تحفيظ القرآن الكريم؟

٢. عزو الأحاديث النبوية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو أحدهما، وما لم يكن فيهما عزوته إلى مظانه من كتب السنة مع ذكر كلام أهل العلم في بيان درجته.
٣. توثيق النصوص والنقول من مصادرها الأصلية.
٤. ترجمة الأعلام غير المشهورين ترجمة موجزة.
٥. شرح الألفاظ الغريبة والمصطلحات العلمية الواردة في البحث.
٦. التعريف بالأماكن والبلدان والقبائل والطوائف وكل ما يحتاج إلى تعريف.
٧. الالتزام بعلماء الترتيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.
٨. تذييل البحث بفهارس فنية على النحو المبين في الخطة.

ثالثاً : الإطار النظري:

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى ما يلي:

أولاً: مقدمة الدراسة: وقد اشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره والأهداف التي

٢. بيان جهود مراكز تحفيظ القرآن الكريم الدعوية في تقدم المتعلمين تعليمياً وتربوياً ودعويًا.
٣. الحاجة إلى الدراسات العلمية المتخصصة التي تبين جهود مراكز تحفيظ القرآن الكريم دعويًا على أبناء المجتمع -خاصةً في مملكة البحرين-.
٤. أهمية العناية بمراكز تحفيظ القرآن الكريم؛ حتى تسلم نفوس المتعلمين من الأفكار المنحرفة، وترتفع هممهم وتتقوى عزائمهم وإيمانهم، ويتم تربيتهم على الهدى المستقيم، وتغرس الثقة في نفوسهم.

منهج الدراسة:

المنهج المتبع في هذا البحث قائم على المنهج الوصفي التحليلي؛ وهو: «دراسة وتحليل ما حصل عليه الباحث من معلومات تحليلًا كميًا أو تحليلًا كميًا»^(١).

بالإضافة إلى إتباع الخطوات المنهجية في التعامل مع المادة العلمية وهي كالتالي:

١. عزو الآيات القرآنية بذكر سورها وأرقامها مع كتابتها بالرسم العثماني.

(١) المدخل إلى البحث، صالح العساف، ص ٢٠٦.

تسعى الرسالة لتحقيقها؛ ثم تمت صياغة الأسئلة التي من خلالها قامت فصول ومباحث الدراسة؛ واشتملت أيضاً على منهج الدراسة المتبع.

ثانياً: الجانب النظري: واشتمل على تمهيد وأربعة فصول:

التمهيد وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالدعوة.

المبحث الثاني: أهمية الدعوة والحاجة إليها.

المبحث الثالث: فضائل الدعوة إلى الله تعالى.

المبحث الرابع: التعريف بمملكة البحرين. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بها.

المطلب الثاني: الموقع.

المطلب الثالث: التاريخ.

المطلب الرابع: السكان.

الفصل الأول: التعريف بمراكز التحفيظ وأهميتها، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بمراكز التحفيظ.

المبحث الثاني: أهمية مراكز تحفيظ القرآن الكريم. وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: أهمية مراكز تحفيظ القرآن الكريم.

المطلب الأول: البناء الإيماني. وفيه فرعان:

الفرع الأول: أهمية مراكز تحفيظ القرآن الكريم للمتعلمين لفهم وتدبر القرآن الكريم.

الفرع الثاني: أهمية مراكز التحفيظ في الحث على تعظيم عبادة الله عز وجل.

المطلب الثاني: البناء التربوي. وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: أهمية مراكز التحفيظ في تعليم الدارسين مكارم الأخلاق.

الفرع الثاني: أهمية مراكز التحفيظ في تعليم الدارسين تحصين الذات.

الفرع الثالث: أهمية مراكز التحفيظ في تعليم الدارسين بناء العلاقات الطيبة مع الآخرين.

المطلب الثالث: البناء العلمي. وفيه فرعان:

الفرع الأول: إبراز أهمية العلم وارتداد مجالسه للمتعلمين.

الفرع الثاني: تعليم الدارسين على التحلي بآداب طالب العلم.

المبحث الثالث: القصص. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالقصص، وذكر أنواعها.

المطلب الثاني: أهمية القصص القرآني وفوائدها بمراكز التحفيظ.

المبحث الرابع: الترغيب. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الترغيب وأهميته بمراكز التحفيظ.

المطلب الثاني: بما يكون الترغيب بمراكز التحفيظ.

المطلب الثالث: ضوابط الترغيب.

المبحث الخامس: الترهيب. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الترهيب وأهميته بمراكز التحفيظ.

المطلب الثاني: بما يكون الترهيب بمراكز التحفيظ.

المطلب الثالث: ضوابط الترهيب.

المبحث الثالث: تاريخ مراكز تحفيظ القرآن الكريم بمملكة البحرين.

المبحث الرابع: أهداف مراكز تحفيظ القرآن الكريم في مملكة البحرين.

المبحث الخامس: عناية مملكة البحرين بمراكز تحفيظ القرآن الكريم.

الفصل الثاني: الأساليب الدعوية التي تستخدمها مراكز تحفيظ القرآن الكريم في الدعوة إلى الله. وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

التمهيد: التعريف بالأساليب.

المبحث الأول: الحكمة. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الحكمة.

المطلب الثاني: أهمية الحكمة في مراكز تحفيظ القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الموعظة الحسنة. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الموعظة، وذكر أنواعها.

المطلب الثاني: أهمية الموعظة وثمراتها بمراكز تحفيظ القرآن الكريم.

الفصل الثالث: الوسائل الدعوية التي تستخدمها مراكز تحفيظ القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى. وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

التمهيد: تعريف وسائل الدعوة لغةً واصطلاحاً.

المبحث الأول: التعليم والتدريس.

المبحث الثاني: الإمامة والخطابة.

المبحث الثالث: الأنشطة والبرامج.

المبحث الرابع: الدورات العلمية.

المبحث الخامس: الوسائل الحديثة واستثمارها في مراكز تحفيظ القرآن الكريم.

الفصل الرابع: الدراسة الميدانية:

المعوقات التي تواجه مراكز تحفيظ القرآن الكريم في تأدية مهمتها الدعوية من وجهة نظر مشرفي مراكز تحفيظ القرآن. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: منهج الدراسة.

المبحث الثاني: أداة الدراسة.

المبحث الثالث: مجتمع الدراسة.

المبحث الرابع: إجراءات الدراسة.

المبحث الخامس: تحليل النتائج وتفسيرها.

الخاتمة: وتتضمن:

أولاً: النتائج.

ثانياً: التوصيات.

الفهارس وتتضمن:

١. فهرس الآيات.

٢. فهرس الأحاديث.

٣. فهرس الأعلام المترجم لهم.

٤. فهرس المصادر والمراجع.

٥. فهرس الموضوعات.

النتائج:

اشتملت الدراسة بشقيها النظري والميداني على مجموعة كبيرة من النتائج كان من أهمها:

* أهمية الدعوة في حياة الفرد وحث الإسلام عليها مما حدا بمراكز التحفيظ إلى السير في هذا السلك.

* أن العناية بتعليم العلم الشرعي وبالأخص تعليم القرآن الكريم كان

٢. إيجاد مناهج تربوية مساندة لفهم وتدبر القرآن الكريم للدارسين بمراكز تحفيظ القرآن الكريم.

٣. إقامة الدروس والندوات والدورات العلمية المناسبة وتكون مصاحبة لحفظ القرآن الكريم وذلك حتى تعين الدارسين على فهم وتدبر القرآن الكريم.

٤. عقد الاجتماعات المستمرة مع أولياء الأمور وأخذ ملاحظاتهم واقتراحاتهم لأنه من أهم الوسائل والطرق الهامة في مجالات الإبداع في تعليم القرآن الكريم عند طلاب التحفيظ.

٥. ضرورة الأخذ بالأساليب الحديثة في تعليم القرآن الكريم، وتدريب المعلمين عليها مع التركيز على برامج التعليم الذاتي والمستمر.

٦. يوصي الباحث بالعمل على تصميم برامج حاسوبية لتعليم القرآن الكريم تساهم في تحبيب الدارس حب تعلم القرآن الكريم وحفظه وتلاوته.

٧. ضرورة الدعم المادي لمراكز تحفيظ القرآن الكريم بمملكة البحرين.

٨. وضع خطط ومشاريع دعوية تساهم في احتواء الدارسين والمتعلمين وحفظهم من

موجوداً منذ القدم في البحرين لأنهم يعلمون أنه سبب للرفي والعزة والكرامة والفلاح في الدنيا والآخرة.

* أن مراكز التحفيظ في مملكة البحرين انبثق نورها منذ زمن مبكر؛ وقد حظيت بعناية كريمة من قبل القيادة الرشيدة وخاصة منذ عهد سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة رحمه الله وزادت العناية الفائقة والاهتمام الكبير بها في عهد الملك حمد بن عيسى آل خليفة حفظه الله ورعاه.

* استخدمت مراكز التحفيظ العديد من الأساليب والوسائل الدعوية؛ ومنها: الحكمة، والموعظة الحسنة، والقصص، والترغيب والترهيب؛ ومن وسائلها التعليم والتدريس، الإمامة والخطابة، الأنشطة والبرامج، الدورات العلمية، الوسائل الحديثة.

ثانياً: التوصيات، والمقترحات:

في ضوء النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة يمكن التوصية بما يلي:

١. يوصي الباحث نفسه وجميع طلبة العلم بتقوى الله تعالى وإخلاص النية لله عز وجل والقيام بواجب الدعوة إلى الله على بصيرة.

الخيرية؛ من أهدافه: تحقيق أواصر الأخوة والتعاون على البر والتقوى، وتبادل الخبرات، والتشاور، وتنسيق البرامج.

١٥. مقترح بوضع برنامج مشترك بين إدارة الأوقاف السنية وإدارة شئون القرآن الكريم وذلك لرفع الكفاءة العلمية لدى الأئمة والمؤذنين من خلال شهادة التلاوة وعلم التجويد.

١٦. مقترح بوضع خطة دعوية شاملة بالتنسيق مع إدارة الأوقاف السنية وإدارة الشئون الدينية وإدارة شئون القرآن الكريم على مدار العام؛ حيث يتم تكثيف العمل الدعوي خلال مواسم الخيرات - كالحج ورمضان وغيرهما -، مع إعداد دليل للدعاة يضم أسماء المراكز والحلقات القرآنية؛ يوضح فيه أبرز الدروس والمحاضرات المقامة خلال عام كامل.

١٧. مقترح بإيجاد فرع للجامعة الإسلامية أو جامعة الإمام محمد بن سعود بمملكة البحرين وذلك من خلال التنسيق مع وزارة التربية والتعليم والجهات المعنية للاعتناء بالطلاب الخريجين والراغبين في الالتحاق بالدراسات الإسلامية علماً بأنه لا توجد جامعة متخصصة بالدراسات الإسلامية بمملكة البحرين.

السلوكيات الخاطئة والأفكار الهدامة.

٩. إيجاد شراكة حقيقة وتعاون مستمر بين مراكز التحفيظ تحت ظل مؤسسات الدولة.

١٠. تسخير التقدم التقني والفني لخدمة الدعوة إلى الله وفق ضوابط تتوافق مع مصلحة الدعوة وتحقيق أهدافها.

١١. الدعوة إلى إنشاء مركز عالمي لتعليم القرآن الكريم عن بعد، والعمل على وضع استراتيجية موحدة لتعليم القرآن الكريم على الصعيد العالمي؛ تحدد الأهداف وتضع الخطط، وتعمل على تنسيق التنفيذ المعرفي والدعوي والتربوي والتقني.

١٢. توعية أولياء أمور الدارسين بضرورة تعاون الأسرة مع مراكز تحفيظ القرآن الكريم لتحقيق أهداف الدعوة إلى الله، عن طريق لقاءات ودورات منتظمة، في سبيل تقوية العلاقات الاجتماعية بين الطرفين، ورفع وعي أفراد أسر الدارسين.

١٣. دراسة احتياجات الدارسين في مراكز تحفيظ القرآن الكريم دراسة علمية وافية؛ بهدف معرفة كيفية إشباع هذه الحاجات بالطريقة المحمودة.

١٤. تكوين مجلس للتنسيق بين المؤسسات

٢٠. مقترح بأن يكون هناك تنسيق من قبل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية وإدارة الأوقاف السنية بمملكة البحرين وذلك لوضع خطة دعوية في إرسال العلماء والدعاة والمشايخ لتنشيط العمل الدعوي بالبحرين.

١٨. مقترح بإيجاد قناة دعوية خاصة للعمل الدعوي بمملكة البحرين.

١٩. مقترح بضرورة مشاركة الكراسي العلمية - التابعة للجامعات السعودية - بالجامعات الموجودة بمملكة البحرين من أجل تنشيط العمل الدعوي بمملكة البحرين.



